مختارات
التعاون
العالمية

جاسوس فوق البحر الأحمر

ماهر عبد الحميد

المؤلف والكتاب

يعرف القراء ماهر عبد الحميد ، بوصفه متخصصا في الكتابة عن أنشطة المخابرات ، وهو في هذا الكتاب ، لا يكتفى بوصف عملية سرية ، بل يعرض أدق التفاصيل ، الدراسات التى أجريت ، والأبحاث التى تمت ، ثم القرارات التى اتخذت ، على أعلى مستوى ، بالإضافة إلى الاتصالات التى كانت تجرى بين الحكومات العربية ، التى دارت على أرضها أحداث تشد الأنفاس ، تتسم بالإثارة ، وهو يسلط شعاعا خاطفا من الضوء ، على أسرار ذلك العالم الغامض والغريب ، عالم المخابرات ..

الناشر





مركز الدراسات الصحفية بمؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

مركز الدراسات الصحفية

"مختارات التعاون العالمية"

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير العام :

ممدوح رضا

رئيس التحرير التنفيذي :

عبد القادر السعدني

المدير الفني :

جميل شفيق

سكرتير التحرير :

سيد قنديل

المراسلات
دار التعاون - ٦ شارع عبد القادر حمزة
جاردن سيتي - القاهرة

مختارات التعاون العالمية :

جاسوس فوق البحر الأحمر

ماهر عبد الحميد

المقدمة

في وقت ما ، منذ خمس سنوات ، أصدرت مصلحة وثائق السفر والهجرة والجنسية التابعة لوزارة الداخلية المصرية ، جواز سفر باسم المواطن موسى زكى سلامه . ومن الغريب أنه لم يستخدم هذا الجواز أبدا ، لسبب بسيط وهو أن المواطن موسى زكى سلامه نفسه ، ليس له وجود على الاطلاق !!

كانت هذه واحدة من وقائع عملية بالغة الاثارة ، من عمليات المخابرات ، وقد سمعت بها لأول مرة في وقت مبكر للغاية ، بينما كنت في مكتب رئيس أكبر معهد للمخابرات في الشرق الاوسط . وكان أحد الضباط الفنيين ، يقدم تقريرا دقيقا بعد أن أنجز مهمته بنجاح ، ولم يكن في تصورى ، أننى سأنشر هذه القصة بعد خمس سنوات كاملة !!

كان ذلك قبل حرب اكتوبر ، وبالتحديد في صيف سنة ١٩٧٢ ، ولم يكن أى مخلوق في هذا العالم يعرف .. أن أهم قرارات الحرب ، قد

اتخذت في هذا الصيف . وعندما تبينت التفاصيل فيما بعد . أدركت أنى أقصر تقصيرا شديدا . ان لم أنشر القصة كلها . على الرأى العام .

ورغم أننى اطلعت على ملفات هذه العملية . وهى ملفات محاطة حتى الآن . بأقصى درجات السرية . وقرأت بعناية ألف ورقة في حجم الفولسكاب . تتضمن الوثائق والصور . والخرائط والكروكيات . الا أننى قطعت أكثر من خمسة آلاف كيلو متر . وتحدثت الى اثنين من رؤساء الدول وحشد من ضباط المخابرات . وعدد كبير من الفنيين والمعاونين وجنود الحراسة وأفراد الأمن لمجرد أن أستوثق من المعلومات المذهلة . التى استخلصتها بنفسى ..

لقد استخدمت المخابرات الاسرائيلية . عندما تأزمت الامور بشكل جذرى . لواء من الطائرات المقاتلة . ومجموعة انزال بحرية . وعشرة ملايين جنيه استرلينى نقدا . وصفقة أسلحة صغيرة وفي المقابل . استخدم المصريون جواز سفر مزيف . وغواصة بعيدة المدى . وطائرة مجهولة الجنسية . ومع ذلك فأنى أعترف . أننى لم أقف مبهورا . الا أمام ما دار في هذه العملية من حوار !!

لذلك أرجو من القارىء . أن يتأمل بامعان في الحوار وسط سياق الاحداث المفرطة في الرهبة . وعلى الأخص . ذلك الحوار الذى جرى بين المخابرات المصرية والمخابرات الاسرائيلية عندما وجد اثنان من

ضباط المنظمتين . أنهما يجلسان معا . وجها لوجه . ولمدة ستة وعشرين يوما بلا انقطاع !!

كذلك أرجو من القارىء المتخصص . والدارسين لعلوم المخابرات . بصرف النظر عن جنسياتهم أن يلاحظوا حجم النجاح الذى يستطيع ضابط المخابرات تحقيقه . اذا تصرف بسرعة وحزم في الميدان . متجاوزا ما لديه من أوامر . وأن يكتشفوا الاهمية القصوى لفيض المعلومات الذى يجب أن يتوفر لمن يعمل في الحقل السرى . والقدر الهائل من الدقة في ادارة وتوجيه العمليات والامكانيات الضخمة التى توضع تحت تصرف الاجهزة . في اللحظات الحاسمة . كما أرجو أن يعرضوا للنقاش . ذلك المبدأ الذى تربع على عرش السيادة في العمل السرى . وأعنى به مبدأ « المعرفة على قدر الحاجة » . لأن تطبيق هذا المبدأ بدقة فائقة . كاد أن ينهى هذه العملية في مرحلتها الأخيرة . بكارثة محققه !!

وأخيرا أود أن ألفت الانتباه . الى أنني لم أكتم أى شذرة من المعلومات . باستثناء أسماء الضباط المصريين . الذين مازالوا في الخدمة حتى هذه اللحظة . ليس من أجل متطلبات الأمن وحدها . ولكن لأنى على ثقة تامة . من أن جميع الاسماء التى يستخدمونها في العالم الخارجى . ليست سوى أسماء مزورة .

ماهر عبد الحميد

الشرق الاوسط مايو سنة ١٩٧٧ .

الفصل الاول

« مهمة عند الفجر »

كل شىء كان هادئا في البداية . مساء الخميس الثامن عشر من يوليو سنة ١٩٧٢ . ولأن اليوم التالى . هو يوم العطلة في مصر . كانت الشوارع الرئيسية في ضاحية مصر الجديدة تموج بحركة السيارات المتجهة الى المدينة . وجماعات المارة التى تقصد الحدائق . ودور السينما القريبة سيرا على الأقدام . أما الطرقات الجانبية الخافتة الاضاءة . فهى ملاذ الاحباء من صغارالسن هناك يسيرون متشابكى الايدى تحت الشرفات ووراء الاشجار العتيقة . دون أن يعكر صفوهم أحد .

كانت الساعة تقترب من السابعة والنصف . وكانت الدقائق تحمل معها مزيدا من نسمات الصيف وفي حديقة الميريلاند الشهيرة . كان الرواد متناثرين على المقاعد المصنوعة من القش . حول بحيرة صناعية تسبح فيها قوارب على شكل الاوز . وثمة موسيقى صاخبة تنبعث من بعيد . وعلى مائدة صغيرة فى أقصى أركان الحديقة . كان شاب هادىء القسمات

رياضي القوام، يجلس مع سيدة رقيقة جميلة التقاطيع. وعلى العشب، كان طفل يلهو بحيوية ويبتسم بلا سبب: كانت أسرة صغيرة تستمتع بوقتها بعيدا عن الناس.

وشأن كل الأطفال كان الطفل يحاول أن يبتعد عن أبويه في اتجاه البحيرة ولكن أمه كانت تناديه بلهجة آمرة ثم ترفع عينيها الى رجلها الذى كان مسترخيا بلا مبالاه. ولم يكن أحد يدرى أن جهاز التليفون. يدق في مسكنهم القريب منذ خمسين دقيقة، وأن كل أقارب الأسرة وأصدقائها قد تلقوا محادثات غامضة. وأن عربة زرقاء تابعة للمخابرات. تندفع بسرعة رهيبة. وهى تثير الفزع في نفوس المارة. وفي النهاية. توقفت هذه العربة بالقرب من سور الحديقة. وأحدثت عجلاتها صوتا مزعجا. لفت انتباه كل من كان يجلس بالقرب من السور.

كان هذا الشاب واحدا من ضباط المخابرات. طويل الجذع عريض الكتفين ذا قبضة قوية وعينين ماكرتين. ضعيف الحركة أشبه بالفهد، وقد انتبه الى صوت العربة ورمقها بطرف عينه. ولأنها توقفت بجوار عربته مباشرة. غمغم ببضع كلمات تنم عن السخط وغادر المائدة. وحاول الطفل أن يلحق به ولكن الأم أسرعت فالتقطته وأرغمته على البقاء.

وفي غضون دقيقتين. كان «الفهد» يتظاهر بفحص جانب سيارته. ليتأكد من أن هذا المجنون لم يصبها بأذى. وفي نفس الوقت. تلقى رسالة سريعة نقلها اليه سائق العربة الزرقاء وعندما عاد الى مائدته. أدركت

رسالة سريعة نقلها اليه العربة الزرقاء وعندما عاد الى مائدته. أدركته الزوجة أن أحداثا جسيمة توشك على الظهور. وكانت تعرف مساوىء

الزواج من ضابط مخابرات ، ولكنها كانت راضية كل الرضا عن رجلها . رغم المتاعب التى تسببها مهنته .

داعب الفهد شعر طفله دون أن يجلس ثم مضى بخطوات واسعة الى طرف البحيرة . كان يبدو سعيدا رغم عشرات الأسئلة التى تتدافع في عقله . وبعد أن دار حول البحيرة أنطلق صوب مبنى ادارة الحديقة . وهناك طلب من موظف الحسابات الذى يجلس الى ماكينة تسجيل المبيعات أن يسمح له باستخدام التليفون .

وفي تمام السابعة والنصف وأربعة دقائق . وعلى مسيرة ثلاث دقائق بالسيارة من حديقة الميرلاند . فوجىء حارس الباب في مبنى رئاسة المخابرات . بصوت متقطع لنفير سيارة حديثة الطراز . وعندما ألقى نظرة . أسرع بفتح الباب وهو يرفع يده بالتحية . فقد كانت السيارة مخصصه لمدير المخابرات نفسه .

ان رجالاً قلائل هم الذين أثبتوا جدارة في منصب « رئيس الجواسيس » . دون أن يمارسوا الجاسوسية ولو لساعة واحدة . وكان مدير المخابرات المصرية في ذلك الوقت . أحمد اسماعيل على . الذى ذاعت شهرته في العالم كله بعد ذلك بسنة ونصف . لحظة اندلاع حرب اكتوبر والذى حصل على رتبة المشير . كان واحدا من رؤساء الجواسيس النادرين في التاريخ .

كان من ذلك الطراز من العبكريين . الذين خلقوا ليكونوا جنودا . حازما لا يقيم وزنا للعواطف . وكانت رأسه الحليقة . وعيناه الضيقتان ، وقامته الممتلئة . مع تقاطيعه الجامدة تثير حوله هالة من المهابة والاجلال . ولكنه كان انسانا رقيق القلب . دمث الخلق ، يشع من عذوبة روحه في نفس كل من يقترب منه . وكان ضباط المخابرات

يلاحظون . تقتيره الشديد في النفقات . وحرصه المبالغ فيه على المال العام . وكثيراً ما كان يستفسر . أثناء مناقشته عملية تتكلف مائة ألف من الجنيهات عن جدوى اجراء يتكلف خمسة جنيهات !!

ومنذ الساعة السادسة وعشرة دقائق . كانت ترقد على مكتب المشير أحمد اسماعيل . مذكرة مطبوعة بالحبر الاحمر . وكان مدير مكتبه قد نقل اليه عن طريق التليفون . مضمون المذكرة بعبارات مقتضبة للغاية . أشبه بالشفرة . وعلى الفور اتصل المشير أحمد اسماعيل . برئيس القسم الخاص بمقاومة الجاسوسية . ثم ارتدى بدلة رمادية . دون رباط عنق . واتجه الى مكتبه حيث قرأ المذكرة بنفسه . كانت المذكرة تبدو عادية رغم اللون الاحمر . ودرجات السرية الموضحة عليها . فقد اكتشف القسم المسئول عن المعلومات في المخابرات العامة من بين مائة وستين ألف خزنية معلومة تدخل اليه كل أربع وعشرين ساعة . معلومة جاءت من مصدر جديد غير المصادر المعتادة . وكانت البرقيات الاصلية . توضح أن أحد جنود حراسة الشاطىء في ميناء الحديدة اليمنى . لاحظ رجلا مغربيا يلتقط صورا للميناء بكاميرا من طراز غريب . وعندما فحصت أجهزة الامن في اليمن . الفيلم الذى استخدمه في التصوير . لم يعثروا على شيء ذي بال . وانما مجموعة صور لا معنى لها للبحر . ولكن ما أثار ريبة اليمنيين ودفعهم الى أن يستشيروا القاهرة . أن الرجل دفع ألفين من الدولارات كرشوة . لجندى الحراسة الذى قبض عليه . وكان هذا التصرف الاحمق . سببا كافيا للتريث قبل اتخاذ قرار نهائى باطلاق سراحه !!

استغرق المشير أحمد اسماعيل في قراءة المذكرة . ثم اتصل عن طريق التليفون الخاص بمكتبه بالقسم الخاص بمقاومة الجاسوسية . وكان الاتصال في السابعة وأربعين دقيقه بالضبط . ويبدوا أنه كان يرغب في

اطلاع معاونيه على وجوده في المكتب ، لأن الحديث كان مختصرا الى أقصى حد .

وفي نفس الوقت . كان حديث تليفوني آخر مثيرا للدهشة . فقد لاحظ موظف الحسابات في حديقة الميرلاند . وهو شاب أسمر ذو ملامح فرعونيه وشعر مجعد . يدعى توفيق يوسف أن الشاب الهادىء الذي تحدث في التليفون بالقرب من أذنه . لم يردد سوى كلمة نعم مرتين . ثم عبارة « بعد دقائق » وانتهى كل شيء .

كان توفيق يوسف قد نقل مؤخرا من حديقة « الجود شوت » التى تقع على شاطىء النيل عند مدخل ضاحية المعادى . وكان يشعر بالضيق لانه يقيم في منطقة القلعة . حيث كان في مقدوره أن يصل الى مقر عمله باستخدام مواصلة واحدة . وقد زاد سخطه وهو يستمع الى المحادثة التليفونية الغامضة . ولعله اعتقد أن معظم المحادثات في الميرلاند تجرى على هذا النمط . وسبح بخياله الى مقعده القديم أمام الماكينة في الجود شوت . حيث نسمات النيل المنعشة . وأحاديث الحب واللهفة التى تبثها الفتيات . للذكور الذين يتأخرون عن موعد اللقاء .

وعندما حلت الساعة الثامنة الا سبع دقائق . أجريت محادثة تليفونية أخرى ولكنها مختلفة فقد أتصل السفير المصرى في صنعاء فؤاد عبد المبدى . بوزارة الخارجية في القاهرة . وكان السفير المصرى يستفسر عما تم في البرقية التى أرسلت بالشفرة قبل ذلك بساعات . بناء على طلب الحكومة اليمنية . ولم يكن لدى وزارة الخارجية . أية اجابة على استفسارات السفير . واكتفت بأن أفضت اليه . بعزمها على اخطارة فورا . بمجرد انتهاء الاجراءات اللازمة !!

وعلى مرمى حجر من السفارة المصرية . في مبنى وزارة الداخلية اليمنية . الذى يقع في أول شارع جمال عبد الناصر من ناحية ميدان

التحرير . كان التاجر المغربي . أحمد الصبان وهو رجل جم الأدب خافت الصوت في حوالى الاربعين . يعرب عن احتجاجه للضابط المنوب بحراسته . وقد أقسم ألف مرة بأنه برىء . وان كل جريمته تنحصر في هواية التصوير المقيتة التى قادته الى هذا المأزق . وتعهد بأن يقلع عن هذه العادة السيئه الى الابد . وفي نفس الوقت . كان محمد الزرقا . رئيس تحرير جريدة الثورة اليمنية . وهو صحفى قصير القامه يضع على عينيه نظارة طبية . ويتمتع بأنف صحفية شديدة الخدة . يحاول جاهدا أن يحصل من وزارة الداخلية . على اذن بمقابلة التاجر المتهم بالتجسس . وقد قيل له أن الرجل ليس متهما ولكنه من المشتبه فيهم . وفي النهاية . قيل له أن الوحيد الذى يستطيع أن يأذن له بهذه المقابلة . هو وزير الداخلية شخصيا .

وعلى مسافة ثلاثة كيلو مترات من صنعاء . في مضيف يعرف باسم مصيف « حده » كان على سيف الخولاني وزير داخلية اليمن . مسترخيا في مزرعته وهو يدخن في هدوء وعندما اتصل به أحد مرؤسيه ليبلغه أن رئيس تحرير جريدة الثورة يلح في طلب مقابلة المتهم . أجاب بأنه سيسمح له بهذه المقابلة بعد انتهاء التحقيق . الذى يأمل أن ينتهى خلال عشرين يوما على أكثر تقدير .

كانت الساعة تشير الى الثانية تماما . عندما وصل « الفهد » الى مكتب رئيس قسم مقاومة الجاسوسية . وقد قضى هناك خمس دقائق . وما أن خرج من المكتب حتى اصدر أمرا قصيرا عن طريق التليفون . وكان هذا الأمر . يقضى باستدعاء . احد الضباط الفنين . بصفة عاجلة وكان هذا الضابط . خبيرا ذا مقدرة عظيمة على قراءة الصور . ابتداء من الميكرو فيلم الى الصور الجوية الهائلة المساحة .

وبعد ذلك بدقائق . كان السائق « طلبه محمود » . وهو رجل ضخم الجثة غليظ الاصابع أشبه بالدب . منطلقا بعربته الزرقاء في شوارع القاهرة . ومعه قائمة بالاماكن التى يحتمل أن يكون فيها خبير قراءة الصور . ورغم انه كان منطلقا بسرعة الصاروخ الا انه كان يتعجب لحالة الحمى المفاجئة . التى اجتاحت رئاسة المخابرات . وقد نجا من الموت بمعجزة . عندما مرق أمام مقدمة قاطرة مترو . بعد أن خالف اشارة المرور الحمراء وتغافل عن صراخ جندى المرور الذى تنفس الصعداء . عندما افلتت العربة من الكارثة . ورآه « طلبه » وهو يسجل رقم عربته . فهز كتفه باستهتار وابتسم ابتسامة شاحبة .

وفي شارع هادىء من شوارع مصر الجديدة . وفي الطابق الثانى من فيلا صغيرة يملكها احد الاطباء . كانت السيدة الرقيقة الجميلة التقاطيع . تجلس امام جهاز التلفزيون . بينما كان طفلها يلهو على أرضية الغرفة بدبابة تطلق وميضا احمر من مقدمتها . كانت علامات الضيق والحيرة تكسو وجهها . فقد حرمت بغتة من النزهة الوحيدة التى انتظرتها طوال الاسبوع دون أدنى تفسير . وعندما دق جرس التليفون أسرعت اليه وكادت ان تحطم لعبة طفلها وجاءها صوت « الفهد » من السماعة .

ــ حسنا ... سأتغيب لبعض الوقت .

ــ بعض الوقت ... ماذا تعنى ؟!

ــ أنت تعرفين ما أعنى ... هل تريدين شيئا ؟

ــ لا ... آه ... نعم ... ليس لدينا أرز .

ــ أرز ؟! انه يؤدى الى السمنة .. وانا افضل قوامك كما هو !!

وفي الثامنة والربع اتخذ « الفهد » طريقه الى الجراج . الذى يقع تحت مكاتب المبنى الذى احتله قسم مقاومة الجاسوسية . ومن هناك

انطلق بعربته وسط الحقول وانحرف بحدة الى اليمين حتى اذا وصل الى الطريق المحاذى لسور قصر القبة . أبطأ من سرعته . وعندما وصل الى باب مبنى رئاسة المخابرات العامة ، وجد الباب مفتوحا . ولاحظ أن ثلاثة مكاتب في الطابق الثانى ، ترسل نوافذها المسدلة الستائر بصيصا من الضوء .

ترك « الفهد » عربته وقفز كالقط البرى فوق مدرج من الاسمنت يعلوه باب زجاجى أنيق . ثم اتجه الى ممر يتوسطه تمثال برونزى « لأمنحتب » . وعبر ممشى مفروشا بالاحجار الملونة ، وسط صفين من الزهور النادرة ، كانت خطواته عملاقة كما هو دأبه دائما ، مرفوع القامة ، شامخ الجبهة ، ولم يكن مظهره المرح ، وابتسامته الدائمة ، تنم عن انه في الطريق الى مهمة خطرة من مهام المخابرات .

كانت وراءه سنوات عشر قضاها في الخدمة . والتقى اثناءها بذلك الطراز الفريد من البشر الذين يعرفون « بالجواسيس » وقد انتزع من فراشه مرات عديدة . وطار الى كل انحاء الارض . وكان يعرف قبل غيره . ان رحلاته محفوفة بالمخاطر . ولابد أن تنتهى بالنجاح . فالفشل أشد قسوة . في دنيا المخابرات من الموت . وكان يعرف ان عدوه لو اكتشف وجوده خارج مصر ، فلابد أن يصفى حسابه معه في هدوء . ودون أية بيانات رسمية . حتى من السلطات في القاهرة !!

لم يكن يفكر في اسرته الصغيرة . التى تعانى من نقص الارز . ولكنه كان يحاول جاهدا أن يستنتج هدفه المقبل . لقد أمر بأن يستعد للطيران عند الفجر . وأن يصحب معه خبير الصور الجوية الذى يختاره . وقيل له ان من الأفضل . الا يحمل معه اية اسلحة شخصية . كما تسلم شفرة معقدة للاتصال برؤسائه في الحالات الضرورية . ولكن احدا لم يخبره « بالهدف » بعد .

دخل في النهاية الى ردهة واسعة يعلوها نسر هائل يغطى السقف بجناحيه . واستقل مصعداً ضيقا يكفى شخصا واحداً . وعندما خرج من المصعد . توقف لحظة ثم مضى الى الامام . واتخذ طريقه نحو مكتب يطل على الفناء . وعندما فتح باب المكتب . كان أمامه مباشرة . وعلى مسافة خطوتين المشير احمد اسماعيل بنفسه ٠

ـ يجب ان تسافر غدا الى اليمن ٠

هكذا نطق المشير احمد اسماعيل بهذه العبارة وهو يفحص بعينيه الحادتين الضابط الذى قيل له انه من اقدر ضباط مقاومة التجسس . وانه يثير الرعدة في نفوس عتاة الجواسيس ٠

ـ ليست هناك طائرات في الغد . طائرة اليمن موعدها الاربعاء ٠

ـ لا ٠ لا ٠ يجب ان تكون في اليمن غدا ٠ حتى لو سافرت عن طريق جهنم ٠

قطب الفهد جبينه عندما نطق المدير بالكلمة الاخيرة . كان يعرف . مثل بقية زملائه ولع رئيسه بالاقتصاد في النفقات . لذلك لم يشأ ان يقترح رحلة جوية طويلة ٠

ـ ان ذلك يكلفنا اموالا اضافية ٠

ـ اموال ؟ ليس ذلك هاما ..... ابدا ٠

ـ هناك طائرة ستقلع في الفجر الى لندن . ومن هناك استطيع السفر الى عدن في نفس اليوم بعد ذلك اقطع الطريق بالسيارة الى تعز ثم صنعاء ٠

ستصل في وقت متأخر اذن . ولكن . لا بأس . تستطيع ان تدرس مهمتك حتى موعد الطائرة . لماذا تقف هكذا ؟! اجلس يا بنى ٠

جلس الفهد أمام المدير وبدا عليه شعور بالارتياح . ولكن عينيه بدأتا في ارسال ذلك البريق الغريب الذى ينبعث منهما كلما تقدم

الليل . وكان المدير يتصفح بعض الاوراق واخيرا تناول المذكرة المطبوعة باللون الاخضر ومد يده بها الى ضابطه ثم ساد الصمت .

ـ ان القصة تبدو عادية . اليس كذلك .

ـ لا أعتقد .

ـ ماذا تعتقد اذن ؟

ـ يجب ان اذهب اولا لارى ، ولكنني اشك انه جاسوس .

ـ هل قلت جاسوس ؟!

ـ نعم . والا فلماذا يدفع رشوة بهذه الضخامة . بل لماذا يدفع اصلا ؟!

ـ معك حق . لقد فكرت أنا ايضا في هذه النقطة . هل لديك مطالب معينة ؟

ـ لا .... مطلقا .

وكانت عقارب الساعة المعلقة وراء مكتب المدير تشير الى التاسعة وعشرة دقائق عندما وقف « الفهد » وقد وقف المشير احمد اسماعيل . ودار حول مكتبه ليصافح ضابطه . ومد يده ووضعها بحنان غامر على كتفه . وفي تلك اللحظة . كانت مصر كلها تضع يدها على كتف واحد من ابنائها ، وهو يتأهب لرحلة بالغة الخطورة . في طريقه الى « الهدف » .

الفصل الثانى

« اذاعة تثير الفزع »

من مكتب المشير احمد اسماعيل ، خرج ضابط المخابرات المصرى ، الذى أطلق عليه اسم « الفهد » . مباشرة الى مكتبه . وهناك . تسلم شريطا من الورق ، سجلت عليه كل المعلومات الضرورية لمهمته . طبيعة الأرض وطرق المواصلات والمدن والموانى الهامة . مواعيد سفر السفن والطائرات . بالاضافة الى حالة الطقس ومواقيت حركة المد والجزر على مدار السنة . ثم بيان شامل للقبائل والقرى ، واسم دبلوماسى مصرى تقرر أن يكون حلقة الاتصال بينه وبين السفارة المصرية فى صنعاء .

وكان عليه أن يراجع هذه المعلومات . بمنتهى الدقة . خلال الست ساعات المتبقية حتى موعد اقلاع الطائرة الى لندن ، ولم يحدث أن تعرض « الفهد » لأية مقاطعة . ولو عن طريق التليفون الا عندما اشرفت الساعة على الحادية عشرة والنصف . فقد ابلغ بأن كل الجهود التى بذلت للعثور على خبير الصور الجوية قد بأت بالفشل .

وعلى الفور . اتخذت الاجراءات لاستدعاء خبير آخر . ليكون بمثابة « احتياطى المهمة » . ولكن أوامر « الفهد » حظرت بشكل حاسم . اطلاع الخبير الجديد على أية معلومات عن الرحلة قبل الساعة الواحدة والنصف صباحا . لذلك اقتصرت الرسالة التى تلقاها . على أمر بأن يبقى في منزلة . الى جوار جهاز التليفون . فاذا لم يتصل به أحد حتى الواحدة والربع . كان عليه أن يتخذ طريقة نحو رئاسته .

ويتقدم الوقت . انضم نحل جديد الى الخالية الصغيرة . التى كانت تعمل بدأب في قسم مقاومة الجاسوسية . وتمكن أحد الضباط من العثور على الخبير المطلوب . وهو عائد الى منزلة قبل منتصف الليل بعشرة دقائق . وعندما وصل في النهاية . وجد « الفهد » متكبا على القراءة ولم يعره التفاتا .

ان هذا الخبير الذى شغل جهاز المخابرات . لمدة تزيد على الساعتين . رجل بدين مرح يغط في النوم كلما سنحت له الفرصة . ومع ذلك . فان الفهد يفضل مصاحبته في المهام البعيدة التى تتطلب قدرا كبيرا من الموهبة . والحظ الجيد . ومن المؤكد . أن الرجل جدير بهذة الثقة .

فمن الشائعات التى تتردد بين المختصين بدراسة وتتبع الجواسيس . انه يتمتع بموهبة عظيمة على تمييز الصور وهو مغمض العينين . وتثبت سجلات خدمته . أنه قام حتى يونيو سنة ١٩٧٢ بمائة وسبعة وعشرين رحلة جوية . عدا آلاف الكيلو مترات التى قطعها بمختلف وسائل المواصلات . ورغم أنه ينتهز دائما ليلة العطلة . ليسهر على غير عادته الى ما بعد العاشرة . ورغم انه استدعي وهو أقرب ما يكون الى غرفة نومه . الا أنه لم يفقد مرحه .

ان السنين . والمهام السرية الى أبعد مدى . ووحدة التعرض للخطر . ترسخ الصداقة المتينة التى تربط بين الرجلين . كما أنهما يحتفظان

بذكريات يقشعر لها الجلد . في أقصى شمال العالم وفي أقصى جنوبه . أما في القاهرة . فما ان تتشمم أنف « الفهد » رائحة جاسوس حتى يسارع الى الاستنجاد بصديقة البدين . الذى لم يخيب أمله فيه قط .

وفي منتصف الليل بالضبط . وقع أمر لم يكن في الحسبان . اذ أفادت الوحدة المسئولة عن « التجهيزات » . بأن الطائرة المحددة . ليس فيها مقعد خال . ولأن هذه الطائرة لم تكن تابعة لشركة مصر للطيران . لجأت منظمة المخابرات المصرية . الى اجراء استثنائى غير مستحب . ولكنه فرض نفسه . اذ لم يكن هناك أى بديل له .

فقد انطلقت عربة تقل ثلاثة من رجال المخابرات . صوب عنوانين محددين في مدينة القاهرة . فيلا استاذ جامعى في مدينة المهندسين .وشقة مهندس مناجم في حى السكاكينى . وتلقى كل من أستاذ الجامعة ومهندس المناجم . طلبا مهذبا بأن يؤجلا رحلتهما الى لندن . اذا لم تكن هناك اضرار منطقية .

كان مهندس المناجم . يغالب النعاس . وكانت حقائب السفر وراء باب الشقة مباشرة . وعندما قيل له أنه يؤدى خدمة للوطن . لم يحاول المناقشة . أما الأستاذ الجامعى ، فقد نظر الى رجال المخابرات الثلاثة . في هذا الوقت من الليل . بارتياب بالغ . ولكن أساريرة تهللت عندما أدرك أنهم يطلبون عونه . ولأنة كهل ذكى متخصص في الفلسفة . أعلن موافقته وسط طوفان من الاستفسارات والاسئلة . وقد أجيب بكل بساطة . بأن أحد أفراد الأمن سوف يحتل مقعده في الطائرة . ولما استفسر عما اذا كانت هناك معلومات مؤكدة بأن الطائرة سوف تختطف تلقى ابتسامة خجولة أنهت المقابلة .

وكما يحدث دائما في مثل هذه الرحلات . أعدت للفهد وصديقة . مهمات السفر . ملابس ومعدات حلاقة وراديو ترانزستور وأدوات

للكتابة . مع بعض الأشياء البريئة المظهر . والمحتوية على معدات معقدة للغاية . وهذه المهمات يتم اختيارها بدقة . لتناسب الشخصية والمهنة التى سيدعيها ضابط المخابرات أثناء وجوده خارج البلاد . فلم يحدث مطلقا ـ أن سافر ضابط مخابرات الى الخارج ـ بصفته هذه .

إن هذا الاجراء . ليس ضروريا في تجهيز المهمة . بل غالبا ما يكون مسألة حياة أو موت . فعلامة المعطف . أو علبة السجائر المحلية . تدل بوضوح كامل على بلد الصنع . ويعرف ضابط المخابرات . ان تفتيش مقر أى انسان . ليس سوى اجراء روتينى تقوم به الأجهزة المختصة او ضاحبة المصلحة . قبل أى خطوة أخرى .

وقبل ان يغادر الضابطان مكاتب مقاومة الجاسوسية . في تمام الثالثة صباحا ، اتصل المشير احمد اسماعيل تليفونيا من منزله . ليتمنى لهما التوفيق . ولكنه لم يشر من قريب او بعيد الى مهمتهما . ولم يوجه لهما أية نصائح . وكان الرجل ـ رحمة الله ـ حريصا بطبعة على قواعد الأمن ولم يكن يسمح أبدا . بمناقشة الأمور السرية . عبر أجهزة الاتصال المعتادة . وعلى الاخص أجهزة التليفون بأنواعها المختلفة .

كانت الرحلة طويلة بقدر ما كانت مضنية . من القاهرة الى لندن . ومن لندن الى عدن . ولأنهما وصلا الى مطار عدن في العاشرة مساء الجمعة . اقترح البدين قضاء الليل في المدينة . وأخذ يعدد مزايا العمل بعد أن يأخذ الجسم قسطا من الراحة . ولكن « الفهد » كان يستمع اليه وهو يسرع الخطى بحثا عن عربة أجرة . تقلهما صوب الشمال الى صنعاء .

وطوال الرحلة . عبر سلاسل الجبال العظيمة التى تغطى معظم ربوع اليمن . كان خبير قراءة الصور مستغرقا في نوم عميق . وكان قد احتل مقعد العربة الخلفى وحده . بينما كانت عينا « الفهد » تومضان بذلك

البريق الغريب الذى ينبعث منهما في الظلمة . وفي مدينة « تعز » أعلن سائق العربة أنه يفضل . ومن أجل سلامة الجميع . ان يستريح لبعض الوقت قبل مواصلة السفر ، ولكن « الفهد » كان في عجله من أمره .

وتسبب الارهاق . مع نقص الاوكسجين في اجزاء الطريق الشاهقة الارتفاع ، في ان الفريق كله كاد أن يلقى حتفه . فبالقرب من الكيلو ١٥٥ - على طريق تعز - صنعاء انحرفت عجلة القيادة من يد السائق ، واندفعت العربة صوب الهاوية السحيقة . التى يزيد عمقها على الثلاثة آلاف قدم . وبينما كانت قمم الجبال تتراقص امام عينى « الفهد » تعلقت العربة بعلامة الكيلو المبنية من الاسمنت . وقد انتبه البدين وألقى نظره . ثم وجه الشكر الحار للسماء لأنه مازال يتنفس ، وأبدى ملاحظة سريعة عن بغية عدم الاستماع لنصائحه ، وما أن بدأ السائق في التقهقر ليعيد العربة الى الطريق . حتى انصرف الى أحلامه السعيدة من جديد ، ولم يستيقظ الا على مشارف صنعاء .

وفي صنعاء اتجه الرجلان الى فندق متواضع . وبعد ان اغتسلا وبدلا ثيابهما هبطا الى الشارع وكان « الفهد » متعبا بدرجة كبيرة . أما البدين فكان يتدفق حيوية ومرحا . وكانت هيئة الاثنين معا توحى بأنهما من المدرسين المعارين لمدرسة ثانوية . أو الصحفيين الكسالى . ولم يكن أحد يتصور أبدا . أنهما اثنان من أقدر ضباط المخابرات في العالم بأسره .

وفي الساعة الواحدة والثلث . بعد ظهر السبت العشرين من يونيو ، أجرى الفهد أول أتصال تليفونى مع السفارة المصرية . وقد تحدث الى الدبلوماسي الذى يحتفظ باسمه . وبعد هذه المحادثة بعشر دقائق . أخطر السفير المصرى ، فؤاد عبد المبدى ، وزير الداخلية اليمنى . وكان في ذلك الوقت على سيف الدين الخولانى . بأن أثنين من خبراء قراءة الصور قد وصلا لتوهما وأنهما رهن إشارة حكومة اليمن .

وفي تمام الساعة الثانية . وصلت الى الفندق عربة لاندروفر . تقل وزير الداخلية وشابا أنيقا قوى البنية لم يفتح فمه بكلمة . وتم التعارف بين « الفهد » والوزير . ونوقشت المهمة بسرعة . واتضح ان الحكومة اليمنية . قد خصصت فيلا من طابق واحد لاقامة الخبيرين . وتم نقل أمتعتهما الى الفيلا التى تقع في ضواحى العاصمة . على الطريق المؤدى الى « وادى ظهر » . وما ان استقر الرجلان في مقرهما الجديد . حتى تسلما مظروفا يحتوى على الأفلام والصور التى ضبطت في حوزة التاجر المغربى المشتبه فيه . وانتبهت حواس البدين كأنه ابتلع عقارا سحريا فجأة . وعكف على دراسة محتويات المظروف باستغراق شديد . الى حد أنه رفض أن يتوقف لتناول طعام الغداء . وبينما كان « الفهد » يزدرد طعامه ويتأمل عن كثب . كان هو منحنيا على عدساته وأجهزته بشكل يثير السخرية .

ولم تنقض خمسون دقيقة . حتى كان البدين قد فرغ من مهمته . وأعلن ان الصور ليست سوى « بانوراما » لميناء الحديدة . وكانت كل صورة . اذا فحصت على حدة . لا تعطى مدلولا مريبا . ولكن اذا أزيلت من كل صورة . مساحات جانبية تهدف الى التضليل . وألصقت كل الصور متجاورة وفق ترتيب معين . تكونت صورة كاملة للميناء . ولم يكتف البدين باعلان هذا الاكتشاف المثير . بل أضاف أنه يجزم . بأن الكاميرا التى استخدمت في التصوير . ذات ـ عدسات خادعة . وهو نوع من الكاميرات التى يستخدمها الجواسيس . بحيث يكون اتجاه العدسة متعامدا مع اتجاه الهدف المراد تصويره .

شعر الفهد بالارتياح . وبما لأن الجهود الشاقة لم تضيع هباء . وقد قرر أن يخلد الى الراحة حتى صباح الأحد . وفي نفس اللحظة التى سمح

فيها لنفسه . لأول مرة منذ تكليفه بالمهمة . ان يستلقى على سرير . كان يشحذ طاقاته كلها ليصل الى هدفه . فقد كان عليه ان يتعرف على « المتهم » . وان يحدد « جنسيته » . والجنسية هنا تعنى جنسية رؤسائه . ثم يأتى أهم وأخطر مرحلة في اللعبة كلها وهى استخلاص كل ما لديه من معلومات صادقة .

ان الراحة بعد التعب شىء ممتع بصورة خيالية . ولكن الثوانى لها حساب بالغ الخطورة في حقل الجاسوسية . لذلك انتزع « الفهد » نفسه من فراشه في السابعة من مساء نفس اليوم ليتصل مرة أخرى بالسفارة المصرية . وفي التاسعة تم أول لقاء بين الدبلوماسى المصرى والفهد في عربة الدبلوماسى . وهى من طراز فولكس واجن . وفي العاشرة ودقيقتين أرسلت من السفارة المصرية أول برقية بشفرة المخابرات . وأبلغ المشير احمد اسماعيل بمحتوى البرقية . بمجرد أن انتهى المختصون من حل رموزها في القاهرة .

وفي صباح الأحد عاود « الفهد » الاتصال بوزير الداخلية اليمنى . وطلب ان يطلع على أوراق التحقيق المبدئى الذى أجرى مع المتهم . كما طلب ان يفحص كل ما ضبط في حوزته . وقد أتضح ان التاجر المراوغ كان يحمل في جعبته . شيكات سياحية قيمتها خمسة آلاف دولار . وثلاثة آلاف دولار نقدا . وثلاثة وأربعين ريالا يمنيا . وخاتما ذهبيا . وساعة « أوميجا » من أحدث طراز . وخطابات اعتماد من شركات تنتج لعب أطفال . وكتالوجات ملونه لهذه اللعب . وجواز سفر صادر من حكومة المغرب .

أما أوراق التحقيق فلم تشمل الا اجابات المتهم على الاسئلة التقليدية . السن والمهنة والعنوان وتاريخ الوصول وسبب الزيارة وتفسير التقاطه الصور في منطقة الميناء . كما أشتملت على أقوال جندى الحراسة

الذى ضبطه واقتاده الى ادارة الأمن العام في الحديدة . وتفاصيل واقعة الرشوة . وقد أصر المتهم في اجاباته كلها . على أنه من هواة التقاط الصور التذكارية ثم أعرب عن احتجاجه على احتجازه دون سبب جوهرى . وعن العواقب الوخيمة التى ستنجم عن هذه المعاملة التى يلقاها مواطن عربى من رعايا جلالة ملك المغرب .

وبمجرد أن انتهى الفهد من فحص أوراق التحقيق ، والأشياء المضبوطة حتى أصدر أوامره الى البدين الذى انتهى دوره في صنعاء . بأن يتخذ طريقه بأقصى سرعة الى المغرب . لكى يستفسر من الحكومة المغربية . عما اذا كان جواز السفر المضبوط . صادرا فعلا من وزارة الداخلية المغربية . وأن يتأكد . من أن البيانات المثبتة به حقيقية . وكان على البدين أن يبرق باجابة الحكومة المغربية ، بالشفرة . الى السفارة المصرية في صنعاء . وبعد ذلك . يمكنه أن يعود الى القاهرة .

وبعد أربع وعشرين ساعة . أفادت السفارة المصرية في صنعاء . بأنها تسلمت برقية مرسلة من المغرب . بشفرة خاصة . وكانت هذه البرقية مكونة من كلمة واحدة . وعندما وضعت تحت بصر « الفهد » ارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة . فقد كانت ترجمة هذه الكلمة . لا تعدو أن تكون أداة النفى : « لا » .

نفس الوقت . وكان وزير الداخلية اليمنى . يتعجل اعلان نبأ القبض على أول جاسوس بسقط في اليمن .

ومع أتضاح الصورة أمام عينى الفهد . بعد اكتشاف صور الميناء وجواز السفر المزور . بدت مهمته وكأنها مفرطة في السهولة . ولكن المتاعب أخذت تلوح في الأفق . فقد اشارت السفارة المصرية . بأسلوب مهذب . الى أنها لا تحبذ الاشتراك في مثل هذه « المسائل الغامضة » .

كان ضابط المخابرات المصرى ، أمام حالة نادرة . وكان يعرف بخبرته ان المتهم شديد الخطورة . وكان قد قرر أن يتولى استجوابه بنفسه ، وأن يبقيه بمعزل عن العالم الخارجي لكى يتمكن من الانفراد به . لمعرفة كل ما لديه من معلومات .

وبعد مناقشات معقدة . أمكن اقناع السفارة المصرية في صنعاء . بأن مجرد ارسال واستقبال البرقيات . لا يعنى اشتراكهما في « المسائل الغامضة » . كما ان العملية كلها تتم بناء على طلب السفير نفسه ، استجابة لرغبة حكومة اليمن . أما وزير الداخلية . فقد وافق هو الآخر ، على التريث ولو لمدة أيام معدودة . قبل اذاعة النبأ .

وفور الانتهاء من تذليل هاتين العقبتين جاء دور المطلب الذى كان ملحا ، ان يلتقى ضابط المخابرات المصرى . بذلك التاجر الغريب الأطوار . والذى يحمل هوية مزيفة وصورا دقيقة لميناء بالغ الحيوية . ومع ذلك . يصر على أنه من هواة التقاط الصور التذكارية .

وفي الساعة الواحدة من صباح الثلاثاء . الثالث والعشرين من يونيو ، أخطر أحد الحراس اليمنيين ، المتهم . بأن صحفيا مصريا سوف يأتى لزيارته . وكان المتهم محتجزا في مصلحة الأمن الداخلي . في غرفة صغيرة في الطابق الأرضى . وقد فتح الحارس الباب ، وبمجرد ان دخل « الفهد » أغلق الباب بالأقفال والمزاليج الحديدية .

كان التاجر المتهم . جالسا على كرسى من الخشب المتآكل . وقد أطرق برأسه . وكانت الجدران العالية ، المبنية من الحجر الكالح اللون ، والنافذة الوحيدة المغطاة بالقضبان ، والضوء الخافت ، تضفى جوا من الكآبة المقبضة على جو الغرفة . وقد عثر « الفهد » على مائدة عتيقة أمامها مقعد ، فتأمل المكان كله ثم جلس بهدوء .

ساد الصمت الرهيب في جو مشبع بالميلودراما ، وعندما رفع المتهم رأسه ليفحص زائره . التقت عينا الرجلين ، وللحظة خاطفة قرأ كل منهما في عين الآخر أشياء مرعبة . واكتشف المتهم ان زائره ذا سحنة لا تبشر بالخير . رغم الابتسامة التى يعلقها على شفتيه ، ورغم انه مؤدب الى حد مدهش ، ورغم أنهم أخطروه بأنه صحفى .

- هل أنت مصرى ياسيدى .

هكذا نطق المتهم وهو يحاول جاهدا ان يخفف من رهبة الموقف .

- مصرى .. نعم .. اننى أهتم بمثل هذه القضايا . لذلك طلبت أن أراك ..

- ان مصر بلد متحضر ، انتم لا تقبضون على الناس لمجرد أنهم يلتقطون الصور ..

- هدىء من روعك . لقد قالوا لى أنك مغربى .

- نعم .. وقد جئت بقصد السياحة .

- اننى أحب المغرب ، ولى أصدقاء مغاربة ، هل انت متزوج ..

- آه .. نعم ولدى ولدان . ان هؤلاء اليمنيين حمقى .. فقد أردت ان التقط بعض الصور .. صور تذكارية . وقد قبضوا على .

- هذه اجراءات ضرورية ، وسوف تعود لأسرتك . أين أسرتك الآن ؟

- في الدار البيضاء .. بيتى في شارع الملك محمد الخامس .

- آه ... هذا الشارع محاذئ للمحيط .

- بالضبط .. يجب ان تساعدنى أيها السيد ..

- ولكنهم يقولون أنك دفعت رشوة .. هل حدث ذلك فعلا .

- وماذا كنت تتوقع . لقد أدركت بمجرد أن رأيت هذا المنكود وهو يقترب منى أن المتاعب قد بدأت . كان تصرفي أبلها . أليس كذلك ..

- لقد أثرت شكوكهم . ولكن يجب ألا تكتئب .

- أكتئب ؟ لقد فكرت في الانتحار . اننى لا اعرف خطوتهم المقبلة . أرجو أن تساعدنى . نعم . يجب أن أوكل احد المحامين للدفاع عنى .

- سوف أساعدك ولكن بشرط .

- هل قلت شرطا ؟

- نعم .

- أعرف .. أعرف .. اننى تحت امرك .. ولدى ثروة كبيرة في المغرب .. واستطيع أن ..

- دع الحديث عن الثروة الآن . يجب أن تعطى لتأخذ ..

- طبعا .. ان تجارتى تتعرض للدمار لو بقيت هنا .. وسوف أضحى بأى مبلغ .. أى مبلغ ..

- رائع .. أعدك بان أساعدك .. ولكن عليك أن تصارحنى .

- أننى لا أخفى شيئا .. صدقنى .. أقسم .

- قلت لك يجب أن تصارحنى .. هذه نقطة هامة .. الى أقصى حد ..

- حسنا ... سوف أجيب على أسئلتك .

- أسئلتى ؟ لا .. أننى أفضل أن تروى أنت القصة .

مضت ساعة كاملة والمتهم يسرد قصته . جئت من نيروبى يوم ١٦ مايو . غادرت عدن يوم ١٨ الى تعز ثم ركبت السيارة بعد يومين الى صنعاء . في صنعاء نزلت في فندق « المخا » . كان الجو خانقا ففكرت في زيارة الشاطىء . سافرت بالاتوبيس الى الحديدة ونزلت في فندق « الأخوة » . بقيت هناك أستطلع السوق وأتنزه على ساحل البحر الى أن قبضوا على .

كان ليل صنعاء هادئا لا يعكر صفو هدوئه سوى نباح كلب ضال أمام مبنى الأمن العام . وكان « الفهد » ينصت باهتمام وملامحه جامدة كأنه بنى سدا بين أذنيه وعينيه . ومن آن لآخر كان المتهم يتوقف

ويحدق في زائره لعله يقرأ تأثير أقواله في تقاطيع وجهه دون جدوى .

- هل هذه أول زيارة لك لليمن ؟

- نعم ... ولكن زرت عدن من قبل .

- متى ؟

- العام الماضي في يونيو .

رفع « الفهد » عينه الى السقف وكأنه يقرأ شيئا مجهولا هناك . في يونيو سنة ١٩٧١ كانت ناقلة بترول اسرائيلية قد تعرضت لهجوم الفلسطينيين امام ساحل عدن . ولكن لماذا أفصح عن زيارته لعدن دون أن يسأله أحد . هل لأن الزيارة مسجلة على جواز سفره . أم أن هذا أسلوب بارع لابعاد الشكوك . دارت عجلات « الكمبيوتر » الدائر في جمجمة الفهد بسرعة مذهلة . وعندما خفض بصره كان وجهه صلبا كأنه اكتسى بقناع من الفولاذ .

- لنعد قليلا الى الماضي ... ماهى البلاد التى زرتها من قبل .

- طفت العالم أيها السيد ... اننى تاجر .

- أعتقد أننى أعرف مهنتك . قبل « نيروبى » أين كنت ؟

- آه ... زرت بروكسل في ابريل ومنها أنتقلت الى عدن . بعد ذلك عدت الى كينيا . ثم قررت ان أرى اليمن .

- هذا سجل طيب . في الحقيقة ...

- ان هؤلاء اليمنيين أشرار للغاية ياسيدى . الحراس . أنهم يتوعدوننى بالويل دائما . يجب أن تساعدنى ياسيدى ؟

- حسنا . فلنرتب الأمور على النحو الأمثل يجب أن نخطر سفارتك .

- أية سفارة ؟

- سفارة المغرب . يجب أن يعرفوا أنك في مأزق . ليساعدوك .

- لا .. أرجوك .
- هل تعنى أنك لا تود أن أستنجد بحكومتك ؟
- نعم .. نعم .. سأصارحك .. لدى مشكلة خاصة .
- أية مشكلة ؟
- جواز سفرى .. أنه غير مسجل لدى حكومتى .. فقد حصلت عليه بالثمن .

آه .. ان القضية تزداد تعقيدا .. الجواز مذور اذن .
- ليس تماما .. أنت تعرف .. ثمة ظروف يجد التاجر منا نفسه فيها على شفا الافلاس . حدث ذلك معى منذ أربع سنوات . وقد استدنت مبلغا بسيطا . ووقعت على شيك هذا أمر سىء للغاية . فقد صدر ضدى حكم بالسجن . وعندما تحسنت الأحوال كان الأوان قد فات .
- وكيف حصلت على الجواز ؟
- دفعت . الاختام صحيحة . ولكنه غير مسجل . هذا كل مافي الأمر .

كانت ورقة رابحة من أوراق الفهد . التى كان يدخرها للحظة المناسبة . قد أصبحت بلا قيمة . ولكنه كان مستغرقا في تأمل محدثه البرىء القسمات . وكانت في جعبته ورقة رابحة أخرى . الا أنها كانت بالغة الخطورة . فقد كان على هذا المتهم أن يفسر تفسيرا مقبولا . السر في احتفاظه بصورة معقدة للميناء . وبكاميرا ذات عدسة خداعة .
- إعتقد أنك لا تتحدث بصراحة .
نطق « الفهد » بهذه الكلمات فجأة وبسرعة . وانتقل اليه ذلك الشعور بالرعدة الذى سرى في جوف المتهم . كان يتماسك بصعوبة ولكنه أبتسم .
- ماذا تعنى ؟

ـ انصت الى . ليس في العالم كله انسان واحد تقول له بسفارتك ، فيسأل أيه سفارة . هذه مجرد ملاحظة .

ـ أنت تقسو على أيها السيد . انني مرهق . ويجب .. يجب أن تقدر ظروفي .

ـ حسنا ... وماذا بشأن الصور ؟

ـ الصور ؟ لقد أخذها اليمنيون .

ـ آه .. هم سمحوا لى بأن ألقى نظرة ... وقد وضعتها متجاورة .. ان الصورة رائعة

كانت عينا « الفهد » مركزتان على عينى المتهم . وقد حاول الأخير أن يقاوم . ولكنه اختلج بحدة . بدا عليه شعور بالهزيمة . رفع رأسه وتنفس بقوة . كانت المطلقة قد أصابته في مقتل وفي النهاية همس :

ـ هل قلت أنك تهتم بمثل هذه القضايا ... أعتقد انني فهمت .

ـ اذن عليك اختصار الطريق .

ـ أنت ضابط أيها السيد .

ـ وهل قلت لك غير ذلك .. انني أفضل الصدق .

ـ هذه مأساه ... ولا بد أن اعترف .

ـ وأنا سأستمع ... أنت تعرف القواعد طبعا .

ـ القواعد .

ـ نعم ... يجب أن تعطى لتأخذ .. هذه أول القواعد .

ـ أنني .. هذه أول مرة .. صدقنى .. عليهم اللعنة .

ـ من ؟

ـ هؤلاء الامريكيون ... لقد التقوا بى في نيروبى .

ـ استمر .



فندق الاخوة في الحديدة هنا أقام « باروخ »

ـ ثمة رجل يدعى ريتشارد .. قدم لى نفسه على أنه تاجر يدير شركات كبرى .

ـ ريتشارد ماذا ؟

ـ ريتشارد فقط .

ـ متى ألتقيت به ؟

ـ منذ أربعة أشهر . تعارفنا في فندق فرانسيه . وكنا نلتقى في مقهى فندق نيو ستانلى هاوس . وفي النهاية أعطانى الكاميرا . وطلب أن أقصد الحديدة .

ـ في مقابل ؟

ـ في مقابل توكيل ضخم في المغرب .

ـ وهل حدد لك الهدف ؟

ـ نعم .. الميناء .

ـ ألم يقل لك لم يريد الصور ؟

ـ قال أنه يريد أن يتعرف على الوحدات البحرية السوفيتية التى تزور الميناء .

ـ وكيف تسلمه الصور ؟

ـ استأجرت صندوق بريد في نيروبى .

ـ باسمك ؟

ـ لا بأسم أحمد صابر .

ـ هل كانت لك خبرة سابقة بالتصوير .

ـ لا .. هو علمنى كيف ألتقط الصور . في ثلاثة أسابيع .

ـ أين ؟

ـ في مسكنه .. انه يقيم في ... آه ... سوف أتذكر حالا ... في ...

ـ لا داعى مطلقا .. المهم أنك زرت مسكنه .

- نعم .. أنت لا تعرف هؤلاء الامريكين .. أنهم كرماء للغاية .
- هل أخبرك أنه ضابط ... أعنى ضابط مخابرات .
- نعم .. نعم .. وقال أن رئاسته في لانجلى . بالقرب من واشنطن .
- هذه قصة ممتعة .. أليس كذلك .
- .....
- هل سمعتنى .
- أننى مرهق ياسيدى . كم الساعة معك .
- الثالثة .هل ترغب في أن تستريح .
- نعم ... ان قدمى تؤلمنى بشدة .
- حسنا ... سأتركك الآن وأرجو أن تنام نوما عميقا .
- لحظة أيها السيد ، هل ستساعدنى ... اننى صديق .. اقسم .. وسوف أضع نفسى تحت تصرفك .. مدى حياتى أيها السيد .
- لقد وعدتك .. ولكن يجب أولا أن أتأكد من أنك تقول الصدق .
- أقسم .. أقسم أيها السيد - ... لم أكذب في حرف .
- سوف نرى ... هل ترغب في شىء ما .
- نعم .. قل لهم ألا يوقظونى مبكرا .. لا شىء أكثر .
- سأطلب ذلك . ولكن . هم يطبقون أنظمتهم . وسوف أحاول .
- أشكرك ... أشكرك باخلاص ياسيدى .

اخترق « الفهد » شوارع صنعاء . في طريقه الى مقره . كانت نسمات الفجر الرطبة تداعب وجهه وهو يقوذ العربة اللاند روفر التى خصصتها له وزارة الداخلية . وقد سرح خياله الى مسافة بعيدة . هناك في ضاحية مصر الجديدة . عشه الصغير وطفله المحبب والسيدة الرقيقة التى تقاسمه حياته الغريبة ومع ذلك تعيش على هامشها .. وتذكر أن أسرته تعانى من

نقص الأرز ، وازدحمت الأسئلة في خلايا عقله . لحساب من يعمل هذا المخلوق . ولماذا جاء الى مدخل البحر الأحمر . ثم تلك الشخصية المراوغة التى لا يمكن أن يصقلها تدريب ثلاثة أسابيع ، كان الفهد يعرف أكثر من الآخرين ، حجم التدريب الذى يكفى لاتقان اللعبة الى هذا الحد . كانت قصة التاجر المزيف تبدو صادقة . ولكنها كانت مليئة بالثقوب . فبالاضافة الى قصر مدة التدريب . هناك ضابط المخابرات الأمريكى ، الذى يسمح لعميله بأن يعرف الطريق الى مسكنه . ويحدثه عن رئاسته في لانجلى . ومع ذلك القدر من المعلومات الكاذبة . كانت قصة الجواز « الذى لم يسجل لدى الحكومة المغربية » دليلا على براعة المناورة ، وهى براعة لا تتوفر للهواة والوافدين الجدد الا نادرا . ومع ذلك . حقق الفهد نجاحا في أول خطواته . اذ تمكن بعد أول لقاء . من أن ينتزع اعترافا من هذا القادم من المجهول . بأنه جاء في مهمة للتجسس .

وفي طريقه الى مقره على الطريق المؤدى الى وادى « ظهر » . لم يكن الفهد يعرف ان مصريا نشيطا آخر . كان يؤدى واجبه في صنعاء ، اذ حصل مندوب وكالة أنباء الشرق الأوسط ، على تصريح من أحد المسؤولين في ادارة الأمن العام . بأن تاجرا مغربيا قد قبض عليه ، بتهمة التجسس في ميناء الحديدة . وأرسل برقية عاجلة بالخبر الى وكالته في القاهرة . ولأن البرقية وصلت الى الوكالة في الرابعة صباحا ، أذيع النبأ في أول نشرة للأخبار . من اذاعة ركن السودان . وكان ذلك في الساعة السابعة وأربعة دقائق بالضبط . ورغم ان النبأ لم يتردد في أية اذاعة بعد ذلك . ولم تنشره الصحف ، الا أن إذاعته أثارت . دون قصد ، فزع المخابرات .

الفصل الثالث

« الاسرائيليون لا يسمعون »

بأقصى سرعة تحركت أذرع أخطبوط خرافى متشعب الأطراف هائل الحجم . وفي غضون ثلاثين دقيقة . كان كل أثر لنبأ القبض على جاسوس الحديدة قد أختفى من الوجود . وتعجب رؤساء تحرير الصحف المصرية . الذين تلقوا النبأ على آلات التيكرز . من لهفة المخابرات المصرية على كتمان نبأ سبق أن أذاعته وكالة الأنباء المصرية الرسمية بشكل علنى .

ورغم أن ضباط المخابرات في القاهرة . شعروا بالارتياح . بعد محاصرة النبأ تماما . الا أن حقيقة واحدة ظلت تحملق في وجوههم بشراسة . وهى أن النبأ قد أعلن من راديو ركن السودان . وكانوا يعرفون أن الأثنى عشر ثانية . التى استغرقها المذيع في قراءة النص . المكتوب باختصار . كفيلة باثارة انتباه أجهزة الإستماع المنتشرة في كوكب الأرض . وعلى الأخص . جهاز الاستماع في منظمة المخابرات . التى أوفدت هذا الجاسوس . والتى كانت مجهولة لم تحدد بعد .

واتخذت على الفور . اجراءات معقدة أيما تعقيد . لتأمين العملية من جميع جوانبها . وأرسلت برقية عاجلة الى السفارة المصرية في صنعاء . وتضمنت البرقية مطلبا بالغ الغرابة . ويتلخص هذا المطلب في أن الحكومة المصرية . ترجو أن تقوم السلطات اليمنية . بنقل التاجر المتهم . من مصلحة الأمن الداخلى . الى مكان آمين يحاط بأقصى درجات السرية .

وفي نفس الوقت . تلقى ضابط المخابرات المصرى . الذى كان مشغولا باستجواب المتهم . برقية بالشفرة . لاطلاعه على القصة كلها . مع نصيحة من رؤسائه . بأن يسرع في انجاز مهمته . وأن يضع في اعتباره . أن جهاز المخابرات المعنى . سوف يبذل جهودا مكثفة للحيلوية بينه وبين هدفه . مما يستوجب تغيير مقره هو الآخر . مع اتخاذ احتياطات الأمن الضرورية .

وحتى لا يثرثر مندوب وكالة أنباء الشرق الأوسط . في صنعاء . بمضمون السبق الصحفى الذى حصل عليه . صدرت اليه الأوامر في نفس اليوم . بأن يغلق مكتب الوكالة . ويركب أول طائرة الى القاهرة . ومن الغريب . أن مكتب الوكالة في صنعاء . ظل مغلقا حتى هذه اللحظة . ويباشر مندوب الوكالة الحالى « جلال سالم » أعماله من منزله .

كانت قرون الاستشعار تتحرك في كل اتجاه . وانتبه موظفو قسم الاستماع . في جهاز المخابرات المصرى . ووضعت كل الأجهزة المختصة . بمراقبة الموجات التى تستخدمها المخابرات . وبحل الشفرة . في حالة طوارىء على مدى الأربع وعشرين ساعة التالية . وكان شغل هذه الأجهزة الشاغل . أن تجيبنا على سؤال واحد . هل التقطت الاذاعة التى بثتها محطة ركن السودان . ثم . ما هو رد الفعل ؟

ومن بين ضباط المخابرات المصريين . الذين كانوا على معرفة بأن عملية ما تجرى في اليمن والذين يعدون على أصابع اليد الواحدة . كان واحد يشعر بالقلق أكثر من غيره . ليس فقط على عملية يجب أن تنتهى بنجاح . ولكن على مرؤوسه ـ وصديقه في نفس الوقت ـ الذى قد يواجه ـ بسبب تسرب غير مقصود ـ جهازا من أجهزة المخابرات القوية . وفي العالم السرى . يعرف « الجميع » ان الالعاب القذرة مسموح بها في الظروف المناسبة . بشرط ألا تترك الأصابع أية بصمات . وأن كان « الجميع » ينكرون هذه الحقيقة . في المؤتمرات الصحفية .

هو رجل في حوالى الخمسين . أحمر الوجه دقيق التقاطيع ذو شعر قصير وعينين حادتين تنزلقان بسرعة في كل اتجاه كأنهما خلقتا من الزئبق . وقد أشتهر بسجله العريض كواحد من خبراء « النقل » ولقدرته الفائقة على القفز من القاهرة الى أماكن عديدة في العالم . والعودة سالما بالهدف المطلوب نقله . كان أقرب ما يكون الى « سنجاب » بشرى . جميل الطلعة ناعم الملمس ولكن خفة حركة لا يمكن أن تبارى

وكانت صلة السنجاب بالفهد وثيقة كأوثق ما تكون الصلة بين الأستاذ وتلميذه النابغة . وكان قد تلقاه وافدا جديدا لا يعرف من أسرار المخابرات الرهيبة شيئا . وعندما انتهى الفهد من الدراسة . كان السنجاب هو الذى رشحه لكى يتولى التدريس في مدرسة الجاسوسية . ذلك المعهد المظلم الذى يفرخ نوعا واحدا من الخريجين . نوع لا يمكن أن تعثر عليه في أى معهد آخر . وأعنى بهم الجواسيس .

كان ذلك في أوائل الستينات . ولكن تقدم السنجاب في السن . حفزه على أن يصحب الفهد معه في بعض مغامراته الخاطفة . في أواخر الستينات . وهكذا تدرب مدرس الجواسيس على المراقبة والتتبع في ظروف

بالغة الصعوبة ، وتعلم كيف يقترب بخفة من هدفه ثم يضم قبضته عليه ويسرع به الى « العش » وكان العمل الملائم له . بعد هذا الكم الهائل من المعرفة بأسرار المهنة ، هو مقاومة الجواسيس ، وقد نجح الفهد في هذا المضمار نجاحا باهرا .

وعندما كانت الأمور تتخذ مسارا معقدا ، أثناء العمليات التى يكلف بها الفهد ، كان يلجأ الى معلمه القديم ، وكان السنجاب منبعا مخلصا للحكمة . وكان الوحيد من بين ضباط المخابرات . الذى يكشف له الفهد عن أسرار العمليات أثناء حدوثها ، وأن كان حرصه الغريزى على الأمن . يدفعه في معظم الأحيان . الى ابهام بعض الجوانب . أو كتمان الأسماء ، وكان السنجاب يضحك من أعماقه برضا .

أحس السنجاب بخطورة الموقف ولكنه كان هادئا . ولاحظ مرؤسوه أنه كان دائب الاستفسار عن البرقيات الواردة ، كما طلب ان تعرض عليه تقارير الاستماع حتى قبل أن تعرض على الرئاسات المختصة . وكان يعرف أن أعمال المخابرات عندما تتعرض للضوء ، وتفقد سريتها ، تصبح حربا سافرة تستخدم فيها كل الأسلحة .

ورغم ان حرارة الموقف انخفضت بحدة مساء الأربعاء الرابع والعشرين من يونيو . عندما تكشف في الأفق نذر تنبىء بنشاط معاد ، الا أن السنجاب ظل على قلقه . وفي صباح اليوم التالى ، اقترح على المشير احمد اسماعيل ، ان تتحرك وحدة بحرية مسلحة ، بأقصى سرعة ، لتكون على مقربة من مسرح العملية الذى يبعد عن القاهرة بأكثر من ثلاثة آلاف كيلو متر .

وبالفعل تمكن مدير المخابرات من اقناع السلاح البحرى ، بأن يأمر احدى وحداته المقاتلة ، بأن تتجه الى جنوب البحر الأحمر ، وأن يزعم قبطانها ان خللا أصابها ، لكى يتمكن من البقاء في ميناء الحديدة .

وكان اقناع رجال البحر صعبا . وكانت الصعوبة ناجمة عن ان المخابرات لم تقدم أى مبرر لهذا المطلب الذى حاولوا عبثا أن يعرفوا دوافعه .

وفي صنعاء . كانت متاعب جديدة تطفو على السطح . فقد نفد صبر وزير الداخلية اليمنى . وكان حانقا لأن النبأ أذيع من القاهرة . فضلا عن أن الفهد لم يفصح عن نتيجة فحصه للقضية . وعبثا حاول ضابط المخابرات المصرى . أن يقنع اصرار الوزير . بأن اذاعة النبأ من راديو القاهرة . كانت خطأ أمكن تجاوزه . أذ أصر الوزير على أن يتم ابلاغه رسميا بالمنتائج التى توصل اليها الفهد . قبل مساء نفس اليوم .

وازاء اصرار الوزير اليمنى . اضطر الفهد الى اجراء بالغ الاثارة . فقد اقترح على الوزير أن يستمع الى جلسة استجواب يجريها مع المتهم . ليتأكد بنفسه أن المتهم قد أعترف بالتجسس . وان عملية استجوابه ستستغرق وقتا طويلا لاستخلاص كل التفاصيل . وبعد ان وافق الوزير على الاقتراح . تولى الفهد بنفسه تركيب جهاز لنقل المحادثات الى غرفة مجاورة . في المبنى الآمن الذى نقل اليه المتهم . وكانت هذه أول مرة . ليسمح فيها جهاز للمخابرات . لشخص من خارج الجهاز . بأن يتصنت عليه .

وبعد أن استمع الوزير الى جلسة استجواب قصيرة . مساء الخميس . اقتنع بأن يتيح لضابط المخابرات المصرى . فرصة أوسع . حتى يتمكن من الوصول الى كل التفاصيل . ولكنه حذر من أنه سوف يضطر . مهما كانت الظروف . الى السماح للمتهم بأن يوكل محاميا للدفاع عنه . مع تقديره الكامل . لأن هذا الاجراء . سوف يحطم حجب السرية التى تحيط بالقضية كلها .

كان المقر الجديد الذى أختير لأقامة المتهم . وضابط المخابرات المصرى . أكثر رفاهية من غرف التحفظ في مبنى الأمن الداخلى . وكانت

هذه أول ثمرة من ثمار تعاونه مع المحقق المصرى الذى وعد بأن يقدم المساعدة . وفي نفس الوقت . تصور أن قصته قد لقيت التصديق وكلا الرجلين . يعرفان أن هذه القصة المتقنة . ليست سوى نسج خيال محض .

ومع هذه الظروف كلها . أضطر الفهد الى أن يختصر الطريق . وبدلا من أن يترك المتهم ليجتر قصته الكاذبة . حتى سأم من ترديدها . زاره صباح الجمعة . وبمجرد أن دخل الى غرفته هتف :

ـ يبدو أنك تفضل اثارة المتاعب .

ـ كيــف ؟

ـ لقد اتفقنا على الصراحة . أليس كذلك ؟

ـ نعم ... أنا لم أكذب .

ـ حسنا . سأقول لك . أن لى أصدقاء في نيروبى . وقد أخطرونى الآن بأن ريتشارد هذا ليس سوى شبح .

ـ آه ... انت تعرف .. انهم ينتحلون أسماء كثيرة .

ـ هل تعتقد أن الأسماء تعنينى كثيراً .

ـ لا .. أقصد ... ربما حدث خطأ .

ـ الخطأ الوحيد أنك لا تقدر الموقف تقديرا دقيقا .

ـ أقسم ... أقسم أننى أقول الصدق .

ـ أذن دعنى أحدثك بصراحة أكثر ... لقد أرسل اليمنيون يطلبون مشورتنا . لهذا جئت الى هنا .. هل فهمت ما أعنيه .

ـ نعم ... أفهمك تماما .

ـ أنهم يتعجلون الأمور . وسوف أنفض يدى من المسألة . وهم أقدر على اتخاذ القرار . ان القضية تخصهم .. وحدهم ..

ـ هل سأسجن ايها السيد ٠
ـ تسجن .. أنت لا تعرف اليمنيين جيداً ٠
ـ ولكنك وعدت أن تساعدنى ياسيدى ٠
ـ اذا قلت الحقيقة ٠
ـ حسنا .. أن ريتشارد ليس ...
ـ كف عن المراوغة . لنبدأ من المغرب ٠
ـ المغرب ؟
ـ نعم ... أنت لست مغربيا ٠

أنهار المتهم وأرخى يديه وبدأ كأنه استسلم ، ولكن عقله كان يعمل بسرعة . كان يدرك أنه أمام ضابط مخابرات محترف . يسدد الضربة في اللحظة المناسبة ٠

ولكنه كان ذكيا هو الآخر . لذلك قرر أن يتراجع خطوة أخرى ٠

ـ معك حق أيها السيد اننى اسرائيلى ٠
ـ آه ... هذا لا يضيف جديدا استمر ٠
ـ وقد تصيدنى هذا الأمريكى ...
ـ لا ... لا ... يجب أن تنسى قصة الأمريكى تماما ٠
ـ لقد قال أنه أمريكى ٠
ـ استمع الى . هذا ليس أسلوب الامريكيين ٠
ـ هل تعنى أنه يكذب ٠
ـ بالضبط . كما تكذب أنت الآن . هل قلت أنك اسرائيلى ٠
ـ أسمك ؟
ـ يوسف يعقوب سالم ٠
ـ ماذا قلت ؟
ـ يوسف يعقوب سالم . كنت أقيم في مصر وهاجرت الى اسرائيل ٠

ـ هذا يفسر اتقانك اللغة . أين كنت تقيم في مصر ·
ـ ٢ شارع ذهنى بالظاهر ·
ـ متى هاجرت ؟
ـ ١٩٥٧ ·
ـ والتاريخ ؟
ـ ٦ فبراير ·
ـ بعد ذلك جئت الى نيروبى · بقصد التجارة · والتقيت بريتشارد ·
ـ هذا فصل كوميدى من فصول الرواية ·
ـ ماذا تعنى ·

ـ أعنى أن الامريكيين لم يجدوا في هذا الكون سوى أحد الاسرائيليين ليتجسس على دولة عربية . ان ذلك يشبه ايفاد فأر سمين لكى يتجسس على القطط .
ـ وما ذنبى اذا كان هو يقول انه أمريكى . لعله من الكى جى بى و ...
نطق الاسرائيلى بالحروف الثلاثة ثم توقف فجأة . وأدرك أنه سقط سقطة لا يمكن التجاوز عنها . وكان أمله الوحيد أن يكون محدثه قد غفل عن الفخ الذى قاد نفسه اليه دون أن يدرى .
ـ الكى جى بى ؟
ـ نعم أقصد أى جهاز . الأجهزة كثيرة .
ـ أعرف .. ولكن ليس في الدنيا جهاز يستخدم اسرائيلى ويوفده الى دولة عربية . هناك جهاز واحد . واحد فقط .
ـ ماذا تقصد ؟
ـ أقصد « الموساد » ؟

ارتعشت عينا المتهم وبت العرق لا معا على جبهته . فكلمة « الموساد » تعنى المخابرات العامة الاسرائيلية . وبعد ان ساد الصمت لحظات ، كان كل منهما يتأمل الآخر خلالها . عاد الاسرائيلى الى الحديث بصوت مبحوح .

ـ اذن يجب أن أصدقك القول .

ـ قلت لك ذلك منذ البداية .

ـ لقد كدت اتضور جوعا ، أنت تعرف ظروف يهود الشرق . وانتقلت من عمل وضيع الى عمل وضيع آخر . حياة الكيبوتزات لا تطاق أيها السيد ، لذلك قبلت أن أعمل لحساب « الموساد » .

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحا عندما انتهى الاسرائيلى من سرد تفاصيل قصته الجديدة . وكان الارهاق قد تمكن من الرجلين الى حد مفزع . كانت عيونهما مفتوحة على اتساعها . وعقلاهما يعملان بأقصى طاقة لدى كل منهما ، ولكنها كانا يعانيان أثر الجلسة الطويلة . والكد الذهنى لمدة ثمانية عشرة ساعة متصلة .

وتلخصت أقوال المتهم في انه هاجر من مصر الى اسبانيا . ثم رحل الى اسرائيل . وهناك استوطن واحدة من المستوطنات الإسرائيلية في صحراء النقب ، الا انه ضاق ذرعا بالحياة الخشنة . فصحب زوجته وولديه وقصد تل أبيب . حيث عمل في مخزن للبضائع . ثم التحق بالعمل كمرشد للمتفرجين في دار للسينما . وعملت زوجته وتدعى مارجريت ليفى كمدرسة في مدرسة للأطفال .

واثناء عمله في دار السينما . عرض عليه أحد أصدقائه أن يعمل في الشرطة السرية . لقاء أجر محترم . فقبل على الفور . والتحق بخدمة الشرطة السرية الاسرائيلية . فيما يعرف هناك باسم « المادورا المركزية »

ومقرها المبنى رقم ٤ بشارع ديز نجوف في تل أبيب . ثم انتقل بعد ذلك الى خدمة المخابرات .

وفيما يتعلق بالتدريب . اعترف المتهم بأنه درب على المراقبة . في بروكسل . حيث أوفد الى هناك تحت ساتر أنه تاجر . كذلك درب على التراسل السرى . وحل الشفرة . واستخدام وسائل الاخفاء . واكتشاف المراقبة والافلات منها . وبعد ذلك قام بجولة في أوربا وافريقيا لا ستكمال بناء الساتر الذى تقرر أن يتخذه في المستقبل .

أما جواز السفر المغربى . فقد روى أنه حصل عليه من الموساد . قبل أن يسافر الى المغرب لأول مرة . لكى يتقن اللهجة المغربية . وليتعرف على المدن والشخصيات التى سوف يدعم بها قصته . لكنه لم يستخدم هذا الجواز أبدا . في الموانىء المغربية . وكانت المغرب هى البلد الوحيد التى دخل اليها بجواز سفر مزور آخر . بوصفه من رعايا كينيا .

ولم يخف المتهم شيئا من نواياه . وخططه . التى كانت وراء رحلته الى الحديدة . اذ اعترف بأن المخابرات الاسرائيلية . كلفته بجمع معلومات عن الميناء . ثم التقاط الصور التى أدت الى سقوطه ولكن أهم ماجاء في اعترافه . انه جمع معلومات عظيمة النفع عن مقر منظمة التحرير الفلسطينية في صنعاء . واضاف . انه رسم للمخابرات الاسرائيلية في تل ابيب « كروكى » لمقر المنظمة . كما مكنته المراقبة من التعرف على نظم حراسته . ومواعيد تغيير الحرس . واجراءات الأمن عند الدخول .

كانت هذه واحدة من النقاط الهامة للغاية . في اعترافات هذا الجاسوس الاسرائيلى . الذى يعد من أكثر الجواسيس قدرة على الخداع والمماثلة . لأن أحدا لم يكن قد اكتشف بعد انه تجسس على منظمة

التحرير . كما ان المعلومات التى جمعها . كانت قد ارسلت منذ بعض الوقت ، قبل القبض عليه ، الى صندوق بريد . في نيروبى ، ولا شك أن ضابط المخابرات المصرى . قد سعد سعادة بالغة بهذا الاعتراف الاختيارى .

ومع ان القصة هذه المرة . كانت تتسق مع المنطق . ومع مالدى جهاز المخابرات المصرى من معلومات عن جهاز المخابرات الاسرائيلي . الا ان الفهد كان متحفظا أشد التحفظ حيال القصة الجديدة . وظل يستخدم في نداء المتهم اسم « احمد » ولم يلتفت الى الاسم الجديد : يوسف يعقوب سالم .

كانت حاسته السادسة ، التى صقلتها التجارب . تشير بعنف الى أن شيئا غامضا يحملق من خلال شخصية المتهم . وكانت روايته عن تدريبه في « بروكسل » نقطة ضعف خطيرة في هذا الاعتراف . لأن المجندين العاديين لا يدربون في بلاد بعيدة الا اذا كان الحرص عليهم يفوق كل تصور . فاذا اضفنا الى هذه النقطة . سقطة المتهم عندما نطق بالثلاثة الحروف التى تعنى المخابرات الروسية . فان الغموض يزداد حدة .

ان الجواسيس العاديين . والمجندين الجدد . وجماعات الهواة . لا يملكون القدرة على تصور المدى الذى تذهب اليه انشطة المخابرات ، الى حد أن الأمريكى يمكن أن يكون روسيا فضلا عن أن المحترفين فقط ، هم الذين يستخدمون الرموز المتعارف عليها عند الحديث عن اجهزة المخابرات . كما ان ثمة طريقة ما . تميز أحاديث المحترفين ، حتى لو كانت هذه الأحاديث . تتردد عبر مسجلات الصوت .

- وحتى اذا كان هذا الاعتراف صادقا . بافتراض المستحيل . فانه يعد قرينة ضد المتهم وليس كسبا ان يضاف الى صالحه ، اذ يكون قد اتبع

اسلوبا راقيا من اساليب مواجهة الاستجواب فحاول بداية ان ينكر التهمة كلها . ثم تراجع خطوة واحدة محسوبة . عندما كشف ان احد المصريين قد جاء الى المسرح . فاعترف بالتجسس . ولكنه أخفى شخصيته ومعها جهاز المخابرات الذى اوفده . وبعد ذلك ادعى انه لا يعرف على وجه التحديد جنسية جهازه . مع كشف هويته هو . وفي النهاية جاء اعترافه عن نشاطه ضد منظمة التحرير الفلسطينية . بمثابة دليل ذكى اراد ان يبرهن به على صدق روايته الاخيرة .

ورغم الشعور بالاجهاد . وعلامات الاعياء التى ظهرت بوضوح على ملامح الاسرائيلى . كان عليه ان يجيب على عدة اسئلة . استغرق توجيهها والاجابة عليها ساعة بنصف ساعة . وكانت كلها تدور حول تفاصيل دقيقة للغاية . اسم صديقه الذى ضمه الى خدمة « المادورا » . واسم ضابط المخابرات الاسرائيلى الذى تولى تجنيده . ثم اسماء كل الضباط الاسرائيليين الذين التقوا به اثناء تدريبه وتشغيله . وعنوان مقر منظمة المخابرات الاسرائيلية في تل ابيب وتاريخ سفره الى بروكسل . وعنوان مقر المنظمة الاسرائيلية هناك . وتاريخ ارسال معلوماته عن منظمة التحرير الفلسطينية . والغريب ان كل الاجوبة كانت صادقة . وفق معلومات المصريين المؤكده .

ولأول مرة سمحت السلطات اليمنية ، الممثلة في ثلاثة من أفراد الحراسة . وبناء على طلب « الفهد » . للمتهم الاسرائيلى بان ينام كما يشاء . واختفت بدرجة ما . علامات الحنق التى كانت تطالعه في أعين اليمنيين الذين يقع بصرهم عليه . وعندما استيقظ من نومه بعد الظهر وجد وجبة طعام شهية في انتظاره فأكل ثم استغرق في النوم .

وبينما كان الاسرائيلى نائما . كانت البرقيات تتوالى بين سفارة مصر في صنعاء . وبين القاهرة ففى الفجر . تمكن الفهد من ايقاظ صديقه

الدبلوماسى . لكى يرسل برقية طويلة . وكان يطلب في هذه البرقية ، التحقق من شخصية من يدعى يوسف يعقوب سالم . الذى كان مقيما في حى الظاهر حتى سنة ١٩٥٧ . بارسال كل البيانات المتاحة عنه الى ضنعاء ، وتكليف الادارة الافريقية في جهاز المخابرات المصرى ، بمحاولة استعادة أية مظاريف يعثر عليها في صندوق البريد المؤجر باسم أحمد صابر في نيروبى . على أن يتم هذا الأجراء ، خلال ثمان واربعين ساعة ، وعلى الا يتكرر بعد ذلك أبدأ .

كانت العبارة الأخيرة ذات أهمية فائقة . اذ أن محاولة استعادة المعلومات الخاصة بمقر منظمة التحرير الفلسطينية ، سواء انتهت بالنجاح أو الفشل . كانت آخر اقتحام لصندوق البريد المقصود . بعد ذلك . كان « الفهد » يكلف الاسرائيلى المحتجز . بأن يكتب رسائل مضللة ، ويرسلها الى نيروبى ، حتى يظل جهاز المخابرات الاسرائيلى ، مطمئنا الى أن رجله في اليمن يعمل دون أن يضايقه أحد .

وفي القاهرة . صدرت الأوامر على الفور . الى وحدة نشطة من وحدات « التحريات » ، بجمع كل شذرة من المعلومات ، عن يوسف يعقوب سالم ، وقام رجال هذه الوحدة . باستجواب غير مباشر . لسكان المنزل رقم ٢ في شارع ذهنى . وحظى السكان القدامى وكبار السن بقسط وافر من الاسئلة . وكذلك ثم استجواب عديد من المواطنين في كل المنطقة . بوابين وباعة سجائر وصاحبة محل للتنظيف وامرأة يهودية مسنة قيل أنها كانت على علاقة غرامية باليهودى المهاجر منذ عشرين سنة .

وفي نفس الوقت . أرسلت برقية الى ضابط مخابرات مصرى . كان في زيارة سريعة للحبشة بأن يطير بأقصى سرعة الى نيروبى . وان يجد الوسيلة المناسبة لفتح صندوق البريد . واستخراج ما يعثر عليه من

رسائل . ليعيد ارسالها الى القاهرة ، ولم تكن المخابرات المصرية . في حاجة الى التنبيه على رجلها . بأن يتم العملية في هدؤ ودون أن يترك وراءه أى أثر . لان بصمات الأصابع . في مثل هذه الحالات . تتم ازالتها بقدر كبير من الدراية والحذق .

وعند الظهر ، قدمت مقاومة الجاسوسية . تقريراً شفويا بالنتائج التى توصل اليها « الفهد » : الى المشير أحمد اسماعيل . الذى استفسر عما اذا كان الاسرائيليون قد التقطوا الاذاعة التى بثتها محطة ركن السودان . وقد أجيب بأن كل الدلائل تشير الى أن النبأ قد مر بسلام ، دون أن يلفت انتباه أحد . وعندئذ ، أبدى المشير استياءه لأن « السنجاب » اقترح عليه ايفاد وحدة بحرية مسلحة الى الحديدة دون وجود مبرر قوى . وقد عبر عن استيائه بأن سأل عما اذا كان ضباط مقاومة الجاسوسية . يقدرون حجم النفقات التى تستلزمها مثل هذه الرحلة .

وفي تمام الساعة الثالثة بعد ظهر السبت ، السابع والعشرين من يونيو ، استدعى السنجاب لمقابلة المدير . وكان ضابط المخابرات المحنك هادئا . وهو يستمع الى النقد الذى وجهه رئيسه الى اقتراحه الذى وجد ـ للأسف ـ أذناً صاغية . وقد ثبت نظارته فوق عينه ثم طلب من رئيسه أن يستبقى الوحدة البحرية في الحديدة . لأننا قد نحتاج اليها .

ومن الأمور التى تبعث على الدهشة ، في قصتنا هذه ، ان جهاز المخابرات الاسرائيلى لم يلتقط النبأ من اذاعة ركن السودان . وأعتقد أن السبب يكمن في أن الاذاعة كانت في الصباح الباكر . وربما كان المختص بمتابعة هذه الاذاعة قد أرهقه السهر ، فأغمض عينيه لبعض الوقت . وعلى أية حال . فلم يسبق في التاريخ . أن كلف أهمال جهاز للمخابرات . مثل التكاليف الباهظة التى دفعها جهاز المخابرات الاسرائيلى . بل

واسرائيل كلها . بسبب اغفال نبأ استغرقت اذاعته اثنى عشر ثانية بالضبط .

وفي مساء يوم الأحد . اخطرت المخابرات المصرية . رجلها في صنعاء . نتيجة نشاطها في نيروبى والقاهرة . واتضح ان صندوق البريد وجد خلوا من أية رسائل . أما المعلومات الخاصة بيوسف يعقوب سالم . فكانت مثيرة للسخرية . اذا اتضح أنه لم يكن متزوجاً . كما أنه لم يهاجر الى اسرائيل بل بقى في مدريد .

وهكذا وجد « الفهد » نفسه من جديد وسط متاهة من الأكاذيب ......

« الفصل الرابع »

أين مراجعة الأمن ...... ! !

كان صباح الاثنين . التاسع والعشرين من يونيو . ينبىء بيوم خانق الحرارة والجو مترب لا يبشر بالخير . وكانت المعلومات التى جاءت من جهاز المخابرات المصرى في القاهرة . والتى أكدت ان الأسرائيلى السجين مازال يجتر مزيدا من الاكاذيب . فيما يتعلق بشخصيتة . كانت هذه المعلومات وحالة الطقس كفيلة بأن تثير الحنق وتدفع الى اليأس .

ورغم ذلك . استمر ضابط المخابرات المصرى . الذى كان يتصبب عرقا في تنفيذ المخطط الذى رسمة منذ البداية . لكى يصل الى الحقيقة . بأسرع الوسائل الممكنة . وكان هذا المخطط . وليد افكاره هو . بعد ان درس الحالة دراسة ميدانية . وطبقا للعرف السائد في منظمات المخابرات لم يعرض هذا المخطط على أى رئاسة أعلى . ولو لمجرد الموافقة علية ! !

وعندما التقى الرجلان من جديد . في تمام العاشرة من صباح هذا اليوم الاثنين . كان الفهد يرتدى قميصا مفتوحا يتهدل فوق بنطلون

داكن . وقد وضع في قدميه . حذاء من الكاوتشوك . وكانت هيئته تنم عن ان الاقامة في اليمن قد راقت في عينيه . ولم يشعر الأسرائيلى مطلقا . بأن الاوراق التى لعب بها جولته الاخيرة . قد أصبحت مقروءة تماما لغريمة الذى يبتسم بضفة دائمة ! !

وفي اول اللقاء . سأل الفهد عما اذا كان الأسرائيلى قد نام نوما عميقا وتلقى اجابة خافتة تعنى ان الأسرائيلى لم يعد يبالى . وبأدب جم . طلب منه الفهد ان يكتب اول رسالة . منذ ان سقط ليتولى بنفسة ارسالها الى صندوق البريد في نيروبى . حتى تطمئن منظمة المخابرات الاسرائيلية الى ان رجلها مازال يمارس هوايتة في ميناء الحديدة .

كانت الاوراق التى وضعت تحت أنف السجين ليكتب عليها رسالتة . من النوع الذى يباع في مكتبات صنعاء . وقد نزع الفهد غلاف مظروف كان يضم هذه الاوراق . وامره ان يتناولها من داخل المظروف بأصابعه . وأدرك الاسرائيلى . ان غريمة ليس سهلا . فقد فهم بوضوح . ان الفهد لا يرغب في ان تظهر على الرسالة . بصمات أصابعة ! !

وتركت للسجين الحرية الكاملة في اختيار طريقة الكتابة . ولون الحبر . واسلوب تركيب الجمل . وشكل التوقيع . ولكن الفهد كان يرقب الحروف وهى تنساب على الورق . بعينين أشبه بعينى بومة ترقب سربا من العصافير وهى تنفلت تحت بصرها من العش ! !

كان الاسرائيلى يستجمع كل ما لدية من قدرة على التقمص . وقد وضع على ملامحة قناعا من الشعور بالذلة . وكان هذا الشعور يتزايد بدرجة ملحوظة مع كل كلمة يخطها بيده على السطور . فمن الطبيعى ان يكتسى الانسان بالذل وهو يخدع منظمتة بأمر من عدوه . وفي النهاية . بلغت المأساة ذروتها عندما مد يدة بالرسالة . ولكن الفهد ظل جامدا كأنه تمثال منحوت من الجرانيت !

ـ مازلت تراوغ ! ! !
هكذا نطق تمثال الجرانيت في مواجهة الاسرائيلي الذى انقلبت مذلته الى دهشة عارمة ٠
ـ مشكلتى أنك لن تثق في مهما فعلت ··· ايها السيد ٠
ـ يبدو انك تعرف كل القواعد ٠
ـ أية قواعد ؟ ! أنا اعرف فقط أنك لن تصدقنى ··· ابدا ٠
ـ اذن ··· أين مراجعة الأمن ؟ !

نطق الفهد بالسؤال الاخير وهو يتأمل اليد الممدودة امامه ، بينما رعشة مباغتة تسرى في جسد السجين وتصل الى اصابعه ، ولم يكن الضابط المصرى في حاجة الى أى دليل آخر ، على ان الثعلب القابع في مواجهته ، والذى يتقن لعبة الدهاء ، قد بدأ يلفظ انفاسة الاخيرة . تماما كالفريسة التى تستميت لتتخلص من الفخ ، الى ان تخمد حركتها تماما ٠

ان مراجعة الامن ، في لغة المخابرات ، تعنى عملية معقدة تستهدف اخطار مستقبل الرسالة ، بأن المرسل يكتب في ظروف عادية ، أو بمعنى اوضح هى شفرة سرية ، داخل الرسالة السرية ، مضمونها دائما اننى لا أكتب تحت بصر العدو ! !
وفي معظم الاحيان ، تكون مراجعة الامن ، دقيقة بشكل لا يلفت النظر المجرد ، كأن تغفل وضع نقطة فوق حرف من حروف الهجاء ، في الكلمة الثالثة في السطر الاخير ، او الكلمة الثانية من السطر الاوسط . . وكأن تكتب التاريخ دون وضع فواصل أفقية بين اليوم والشهر والسنة . أما في الرسائل اللاسلكية ، فان مراجعة الامن ، تكون اجراء معقدا ايا تعقيد ، كأن تطرح تاريخ ميلادك من تاريخ يوم الارسال ، ثم تضيف

للناتج رقما متفقا علية ، ثم تكتب المجموع في ذيل الرسالة ، فاذا اختلفت الارقام ، أو جاءت الرسالة خالية من مراجعة الامن . أدرك ضابط المخابرات المختص على الفور . أن رجله في خطر ! !

كان الاسرائيلى يعرف هذه التفاصيل كلها ، وقد طوى رسالته وأحنى رأسه بينما مد المصرى ساقيه واسترخى في مقعده كأن يقضى أجازة على الشاطىء ٠

ـ الآن جاء دورك لكى تنصت ٠

نطق الفهد بهذه العبارة وهو يتأمل عدوه بامعان . بعد ذلك أرخى جفنيه واستطرد :

ـ اذا كنت اطلب منك الصدق فلابد أن اصدقك القول ، لقد خسرت ، صدقنى ليس معنى هذا أنك لم تقاتل بمهارة . ولكن المشكلة انك اعطيتنى خيطا دقيقا ليقودنى اليك ، ولم يعد امامى سوى اجراء واحد ، تنتهى بعده قصتك كلها ! !

كان الاسرائيلى ينصت ووجهه يعبر عن الكارثة التى توقعها ، فقد كان يعرف اكثر من غيره . انه يعيش اللحظة الحاسمة في دنيا المخابرات . اللحظة التى يتمكن فيها الصياد من الفريسة ويبدأ في ممارسة دور المعلم ، مع توجيه النصائح المناسبة ، من مركز القوة ! !

ـ لم يبقى امامى . سوى ان التقط لك صورة وأبعث بها الى القاهرة ٠

لماذا القاهرة ؟ !

أنت الذى وضعت أصبعى عليها . اننا لا نقول كثيرا على الاسماء ، والملامح ، وجوزات السفر المزورة ، أظن انك توافقنى . لقد قلت في البداية انك مغربى ، ثم زعمت انك اسرائيلى ، ولكن يوسف يعقوب

سالم . كان مؤشرا سخيفا على الخريطة . لان البحث سوف يبدأ من حى الظاهر . وبالقرب من بيتك أنت

ـ ولماذا الصور ؟ ! أعترف أنى خسرت .

ـ اذن . سأمنحك فرصة . ...

ـ اننى أ ...

ـ الفرصة الاخيرة ! !

ـ اسمى باروخ زكى مزراحى ! !

بعد أحمد الصبان . ويوسف يعقوب سالم . ظهر هذا الاسم الثلاثى ولكنه كان صادقا . وكانت القصة التى رواها الاسرائيلى . هذه المرة . مقنعة بقدر ما هى مثيرة . اذ اتضح انه يهودى مصرى ، ولد في القاهرة وعاش في المنزل رقم ٨ بشارع خليل الطواب . الذى يقع في حى الظاهر !! واتضح ايضا أن باروخ . حصل على بكالوريوس في العلوم التجارية . من جامعة القاهرة سنة ١٩٤٨ وكان ينوى البقاء بمصر بمنأى عن المتاعب التى كانت تواجهها اسرائيل . ابان الحرب التى يطلق عليها الاسرائيليون الرسميون اسم حرب الاستقلال . وقد التحق بوظيفة مدرس . في مدرسة الاقباط الثانوية الكائنة حتى الآن في حى شبرا المزدحم بالسكان .

ان أشياء صغيرة في هذا العالم . تترك آثارا بعيدة المدى في مستقبل الانسان . واحيانا في مستقبل شعب بأكمله . وهذا هو ما حدث بالضبط . عندما التقى مدرس مدرسة الاقباط الشاب بمدرسة يهودية بارعة الحسن . تدعى فورتينيه مدنيه . وكانت « فورتينيه » رائعة الشفتين ذات شعر أشقر وعينين توقدان في النفس آلافا من ألسنة اللهب العاتية . وفي لحظة خاطفة . تحول باروخ الى أسير ربطه الحب بقيد من الصلب .

وتسببت « فورتينيه » ، التى جمعت بين الجمال والشقاوة والطموح ، في نزوح اسرتها ، ومعها أسرة حبيبها ، الى أرض الميعاد ، وتولى هو اقناع شقيقته « ايفيت ».. وأمه « روجينا » بالرحيل الى اسرائيل ، وصحبت « فورتينيه » شقيقتيها معها فيكتورين واليجرا ، وإتخذوا جميعا طريقهم الى هناك .

كانت آمال باروخ لا يحدها حد ، وهو يعبر البحر المتوسط الى أثينا ، أقرب مرفأ الى تل أبيب وكان يدغدغ مشاعره ، ذلك الشعور بالفروسية ، الذى يتولد عندما يضحى الانسان باستقراره ومسقط رأسه ، في سبيل فكرة تتطلب منه ركوب المشاق ، ومن اجل امرأة فتنته فلم يستطع منها فكاكا ولكنه عندما وصل الى اسرائيل ، تلقى صدمة عمره .

ففى اسرائيل اكتشف باروخ ، أن الجمال الاخاذ ، يخفى احيانا نفسا لئيمة لا تقيم وزنا للعواطف اذ صادفت فورتينيه رجل اعمال اسرائيلى ثرى يكبرها بثلاثين عاما ، فأقامت معه علاقة جنسية محمومة وهجرت باروخ الذى هاجر معها ومن اجلها ، ثم ما لبثت ان تزوجت من عشيقها ، وليس لدينا أدنى شك ، في أن هذه الصدمة هزت كيان باروخ بقسوة ، وان كانت اعترافاته ، التى كتبها بخط يده توضح انه مر مرورا سريعا على هذه الحادثة ، وقد برز أثر الصدمة في زواجه من « مارجريت ليقى » ، التى التقى بها في تل أبيب ، وهى من اصل مصرى هى الاخرى ، وكانت تعمل في سن المراهقة عاملة بيع في محل العروسة الصغيرة ، الذى يقع في شارع طلعت حرب فهذه الزوجة ، التى تعجل في الارتباط بها ، والتى انجبت له ولدين ، كما كانت حاملا عندما وقع في الاسر ، امرأة دميمة بارزة العظام أشبه بالشيطان !!

أما فيما يتعلق بالعمل ، فقد اعترف باروخ أنه التحق ، بمجرد وصوله الى اسرائيل بالشرطة الاسرائيلية في « رامات جان » ، ثم نقل الى

الشرطة السرية سنة ١٩٦٥ وقضى ثلاث سنوات استدعى بعدها الى مكتب « ابراهامى » . وهو مكتب للمخابرات الاسرائيلية في شارع اللبنى في تل أبيب . ثم نقل الى منظمة مقاومة الجاسوسية « شين بيت » وفي أواخر ١٩٦٨ نقل الى المخابرات العامة « الموساد » ولانه سبق أن اعترف بحصوله على بكالوريوس العلوم التجارية . من جامعة القاهرة لم يكن من اللائق أن ينكر ، أنه ضابط في صلب تنظيم المخابرات الاسرائيلية فضلا عن أن نوعية الوظائف التى شغلها . توضح انه اعد اعدادا منطقيا اذ درس اثناء خدمة الشرطة . أنماط وعادات الاجناس البشرية المتعددة التى تعج بها اسرائيل . ثم تعلم في « الشين بيت » كيف يسقط الجواسيس . لكى يتحول في النهاية ، الى جاسوس بارزومحترف في منظمة الموساد !!

ومن المؤكد . أن هذا التدرج والتنوع . في اعداده للتجسس ، أو لرئاسة مجموعة من الجواسيس قد أدى الى كفالة كل عوامل النجاح ، لعملية زرعه في الدول العربية . كتاجر مغربى . وقد برر سبب اختيار « غطاء » التجارة في مهمته ، بأن المخابرات الاسرائيلية ، استوعبت جيدا درس « ايلى كوهين » ، وهو الجاسوس الاسرائيلى الشهير ، الذى زرع بنجاح في سوريا أبان حكم أمين الحافظ . والذى افتضح أمره اثناء مراجعة روتينيه لصور اليهود الذين هاجروا من مصر لذلك كان بمقدور « باروخ » أن يمارس التجارة ، وأن يبتعد عن نشر صوره علنا .

ومع هذا الكم من المعلومات . تكتشف ايضا حقيقة مهمته في اليمن . اذ اعترف بأنه جاء الى اليمن . ليلتقط صور ميناء الحديدة . وفي نفس الوقت . لتكون هذه الرحلة نقطة وثوب الى بلاد العالم العربى . باستثناء مصر والمغرب . مصر لانها تحتفظ بصور اليهود الذين يهاجرون منها والمغرب لان جواز سفره منسوب الى حكومته .

وبالاضافة الى الصور والتأهب للوثوب الى العالم العربى . كان عليه أن يتعرف على قناصل الدول في المنطقة . وأن يحاول « تجنيد » من يراه صالحا . بشرط ألا يكشف عن هويته بهدف الحصول على جوازات سفر عربية . لتتمكن المخابرات الاسرائيلية . من استخدامها في دفع عملاء جدد . وأثناء شرح جهوده في هذه النقطة . قال باروخ انه نجح في الحصول على جواز سفر واحد . من احد الدبلوماسين الذى كان سفيرا لليمن في اثيوبيا . لقاء صندوق من زجاجات الوسكى . وأنه أرسل هذا الجواز الى اسرائيل .

وأبدى ضابط « الموساد » الحاذق . أسفه العميق . لانه سقط ولأن سقوطه كان على أيدى اليمنيين . الذين وصفهم رؤساؤه له في تل أبيب بالتخلف والجهل وعدم الدراية بأعمال المخابرات وكان جزينا لانه تسرع بعرض رشوة ضخمة . على جندى الحراسة الذى قبض عليه . وبرر هذه السقطة التى ما كان يجب أن يقع فيها . بأن معلوماته عن اليمنيين أنهم قوم غلاظ القلوب قساة لا تأخذهم الرحمة . وخشى أن يقتاده الجندى الى « الامن الوطنى » وكانت هذه الرشوة . هى السبب في ارتياب السلطات اليمنية في حقيقة شخصيته .

استغرقت الاعترافات الجديدة . حوالى أربع وستين ساعة . أو أربعة أيام . بمعدل ستة عشر ساعة يوميا . من العاشرة الى الثانية من صباح اليوم التالى . وقد أفاض باروخ في سرد وقائق قصته منذ أن ولد . ولان تفاصيل حياته الشخصية لا تهم القارىء في شىء . عمدت الى اغفال ذكرها .

من الامور الموثوق بها تماما . أن الفهد أتخذ قرارا بنقل « باروخ » الى القاهرة . بمجرد أن اعترف بأنه كان ضابطا في المخابرات

الاسرائيلية ، ولكنه قرر في نفس الوقت ، أن يستخلص منه كل ما يمكن استخلاصه من معلومات ، تحوطا لأية ظروف قد تمنعه من نقله ٠

وكانت هذه واحده من المرات النادرة في التاريخ ، التي وجد فيها أحد المحترفين . ضابطا محترفا من الجانب الاخر في قبضته ، ولان علم المخابرات يعتمد بالدرجة الاولى على الخبرة والتجربة فان التجارب الفريدة تستلزم قدرا كافيا من الابتكار ، والقدرة على التصرف . لادارة مباراة هدفها الاول والاساسى ، اقتناص معلومات موثوق بها ، دون أن تتعرض للاضرار التى تنجم في الاحوال العادية عن وسائل النقل ٠

وقد استمرت عملية استجواب باروخ . طوال الاسبوع الاول من يوليو ، وفي نفس الوقت الذى اتسمت فيه هذه العملية بالسهولة . وكانت مفرطة في الصعوبة والتعقيد ، وكان مرد السهولة الى أن كلا من الرجلين ، كان يعرف أنه يتحدث الى زميل من زملاء المهنة . مما أدى الى اختفاء ألاعيب الهواة ومحاولات الخداع الساذجة . أما اخفاء الجوانب الحيوية ، والتى تهدد مصائر شعب بأسره ، فكانت تتطلب جهدا مضنيا حتى لا يطفو أبدا سر قاتل على السطح ٠

وعلى هذا الاساس ، كان على باروخ أن يجيب ، وبلا أى ابطاء ، على طوفان من الاسئلة التى وجهها اليه الفهد ، وكان عليه أيضا ، أن يضمن اجوبته . كل الجزئيات التى يعرف هو أنها ضرورية وأنه سيسأل عنها اذا تجاهلها ، مما قد يعد في نظر الفهد ، مضيعة مقيتة ومؤسفة للوقت ٠

وطبقا للاولويات التى وضعها ضابط المخابرات المصرى ، الذى كان يرغب في استغلال الموقف حتى القطرة الاخيرة ، لم تحظ الشرطة الاسرائيلية بأيه عناية ، أما منظمة مقاومة الجاسوسية في « شين بيت » ومنظمة المخابرات العامة « الموساد » فان أسئلته التى تتابعت حولها ،

كانت تنقيبا قاسيا وذكيا ، تماما كالتنقيب عن شيء ما ، في نخاع عظم انسان يتنفس •

وعلى سبيل المثال ، فان أسماء جميع الضباط ، الذين عملوا أو احتكوا بباروخ ، سواء كمرؤوسين أو زملاء أو رؤساء ، كانت مطلوبة بحزم ، ولان خدمة « باروخ » في المخابرات الاسرائيلية كانت حوالى أربع سنوات ، ظهرت الى الوجود قائمة ثمينة بأسماء هؤلاء الضباط ، الكودية والحقيقية ، واقترن عديد من هذه الاسماء ، ببيانات مختلفة ، كالجنسية الاصلية ، ورقم التليفون ، وعنوان المسكن وأهم من ذلك كله ، التخصص والواجبات •

كان الاسرائيلى في مأزق صعب لايستطيع تقدير مرارته الا المحترفين ، وكان على بينه من أن المعلومات التى تنتزع منه ، لا يمكن تقديرها بثمن ، ومن المؤكد ، أن أى جهاز للمخابرات ، على استعداد لان يدفع مليونا من الجنيهات ، لاى عميل يقدم له مثل هذه القائمة طواعية •

عندما لمست أسئلة الفهد مواطن حساسة للغاية ، حاول الاسرائيلى ان يساوم وتحدث باستفاضه عن استعداده لمعاونة ، « المصريين » ، في مقابل كلمة من غريمه ، أو وعد بالمساعدة ، ولكن أوان المساومة كان قد فات ، وأصبح من المفروغ منه ، أنه سوف يدلى بكل مالديه ، بدون أى مقابل على الاطلاق •

وشملت الاسئلة التى كانت تتوالى ببطء مصطنع ، والتى دارت حول المخابرات الاسرائيلية مجموعة من الاستفسارات التى بدت عفوية ، عن عناوين المقار السرية ، والاماكن الامنة ، والاعمال التجارية الزائفة التى تستخدم كواجهات ، ومراكز تلقى الرسائل ، التى يستخدمها الجهاز الاسرائيلى في اسرائيل ، وفي البلاد التى قام « باروخ » بزيارتها أيضا •

وكذلك أجاب باروخ عن عدد من الاسئلة غير المباشرة . وتناولت هذه الأسئلة . بعض الجوانب التى كانت خافية على المصريين . في بعض العمليات المحدودة . وكان عليه أن يتذكر بدقة مصير بعض العملاء الذين سقطوا وهم يتجسسون لحساب القاهرة في اسرائيل . وقد أفصح عن معلومات عظيمة النفع في هذا المجال .

ورغم التعب الذى تمكن من السجين الى حد مزعج . خلال أيام الاستجواب الاخيرة . لم يسمح الفهد بأى قسط اضافى من الراحة . وأضفى اعترافه بأنه ضابط ضمن تنظيم الجهاز الاسرائيلى . جوا من المودة طغى على الارهاق والانكسار . وكان واضحاً أن هذا الاستجواب المبدئى . ليس سوى مقدمة لاستجواب مدقق كان في انتظار السجين . مهما كانت الظروف . فقد كانت هناك آلاف التفاصيل المفرطة في الدقة . تنتظر اماطة اللثام عنها بأمانة . ودون أى قدر من المراوغة .

وكان من الطبيعى . أن تستحوذ نظم العمل . وطرق الاتصال . ومكونات اتخاذ القرار . في المخابرات الاسرائيلية . على اهتمام مكثف من جانب الضابط المصرى . وفيما يتعلق بالتدريب اضطر « باروخ » الى الاجابة عن كل الاسئلة . التى دارت حول تدريبه هو نفسه . قبل وأثناء التحاقه بخدمة المخابرات .

واتضح أن باروخ قد درب . على استخدام وحل الشفرة . متدرجا من الشفرة « الروزيكروشيه » التى تعتمد على أوضاع نقط معينة داخل مستطيلات متفق عليها . في مفتاح الشفرة الاصلى . الى شفرة « الزجزاج » التى تستخدم الرسوم البيانية العادية . واعترف بأنه قام اثناء تدريبه على المراقبة بمتابعة رجل اعمال فرنسى في تل ابيب . كما ثبت ميكروفونا من نوع « المرسل المطلق » . في جهاز تليفون . في السفارة البريطانية في اسرائيل .

كذلك أقر بانغماس المنظمات الاسرائيلية ، في التصنت على معظم المكاتب التجارية . ومكاتب السلك الدبلوماسى ، والمؤسسات التى يشترك في ادارتها اسرائيليون ، واتضح أن المخابرات الاسرائيلية تستخدم في تصنتها الدائب على الاخرين ، اجهزة « الاوسيلوجراف » وهى أجهزة لرسم الذبذبات ، يمكن بواسطتها تجميع رقم التليفون على لوحة المراقبة ، بمجرد انتهاء الطالب من ادارة الرقم الاخير .

وكشف « باروخ » أثناء اعترافاته المذهلة ، عن نوع من « الطبقية » يميز امكانيات منظمة مقاومة التجسس عن منظمة « الموساد » فبينما تستخدم الاولى وسائل عتيقة نسبيا ، تحصل « الموساد » على معدات أكثر تطورا ، وعلى سبيل المثال ، فأن الموساد تستخدم الميكروفونات المرسلة ، ذات الحجم الصغير ، والتى لا تزيد أبعادها عن ٨ر × ٨ر × ٦ر بوصة ، والتى يمكن اخفاؤها في كوب به شراب معتم ، ومد « الهوائى » في البوصة الماصة التى تستعمل في الشرب ، بينما تستخدم « الشين بيت » ميكروفوانات من النوع التقليدى ، القصير المدى والذى يتطلب قدرا كبيرا من الظروف المناسبة ، ليعمل بكفاءة .

كذلك كشف « باروخ » عن فوارق اساسية بين المنظمتين ، في حجم الاموال المسموح بها ، وفي مستويات اتخاذ القرار ، واعترف ، بأن الجنسية الاصلية لضابط المخابرات الاسرائيلى ، لاتحدد فقط موقفه في سلم الترقى ، بل تؤدى دائما الى نفوذ أعلى - أو أقل - من سلطة رتبته ولان الجنسيات متداخلة في هيكل الاجهزة الاسرائيلية ، فان تحديد جنسية ضابط المخابرات في عملية ما ، يكون سهلا للغاية ، بدراسة حجم النقود التى تدفع ، وبدراسة حركة القرارات وتوقيتاتها ! !

ان الامور تتضح أكثر لو أننا بيناها على النحو التالى ، لو أن أحد العملاء المزدوجين ، قدم تقريرا بأن الضابط الاسرائيلى ، الذى يتولى

تشغيله . يسرف في استخدام المنطق . والافكار الايديولوجية في اقناعه . فلابد أن تتوقع تقيدا في حجم المكافآت التى يدفعها لعميله . وفي الغالب . يمكن الاستنتاج مبدئيا . بأن هذا الضابط من يهود الكتلة الشرقية . أما اذا كانت المكافآت كبيرة الحجم مع دعوات مناسبة للمطاعم الفاخرة ودور اللهو . فان ذلك يقودنا على الفور . الى أن الضابط الاسرائيلى قادم من الغرب !!

وفي الحالات التى تكثر فيها الوعود . وتقل المكافآت عن المبالغ المتوقعة . فان هذا يعنى أن ضابطا من أصل غربى يعمل كمرؤس لضابط من الشرقيين . مما يؤدى الى تقلص المبالغ التى اقترحها الاول بمجرد عرض الموضوع على رئيسه . فاذا ما عادت الاموال الى الزيادة . كان معنى ذلك أن القضيه قد عرضت على الرئيس الاعلى !!

كذلك تؤثر الجنسية . والجنسية الاصلية بالنسبة للضباط « السابرا » . في درجة تقدير المعلومات وفي أسلوب ووسائل الاقتراب . والقدرة على التصرف في الميدان . كما تؤثر تأثيرا ظاهرا . في سلوك ضابط المخابرات أثناء وجوده خارج اسرائيل . وقد أمكن في حالات خاصة . الاقتراب من ضباط المخابرات الاسرائيلية باستخدام الانتماء المزيف . الى جنسيتهم الاصلية !!

وللتثبت من أقوال باروخ . طلب منه الفهد أن يكتب قائمة بأسماء أصدقائه . في اسرائيل واتضح أن أقرب أصدقائه . كان ضابط شرطة رامات . دان اليعازر . وجاره في المسكن روجين مناحم بالاضافة الى فيكتور وهبه وهو يهودى من اصل مصرى ولانه عمل في « الشين بيت » في قسم مكافحة الشيوعية . أو النشاط المتزايد للشيوعية . طبقا لاسمه الرسمى . فقد ربطت أواصر الصداقه بينه وبين ضابط يدعى دافيد جهاخمان . ومن الامور التى تدعو للتأمل . أن مدير هذا القسم . حاييم

أولوفيتس يهودى بولندى ، أما مساعداه ، دافيد جلاخمان ويورام فينار فهما سابرا من أصل بولندى أيضا !!

وفي « الموساد » أقر باروخ أن رئيسه يتخذ الاسم الكودى « رامى » أما أسمه الحقيقى فهو أورى نئمان ، أما زميلاه فكانا دافيد شمران ويتخذ الاسم الكودى « دافيد » وجاك لوكاس ويتخذ اسم زتشارد !!

وفي النهاية كان على باروخ أن يوضح عددا من العناوين ، عنوان مسكنه ومساكن أقاربه وأصدقائه وقيل له ، أن هذه العناوين ضرورية ، وبالتالى يجب أن تكون صادقة ، لكى يقوم جهاز المخابرات المصرى باجراء التحريات اللازمة ، وكان باروخ بحكم كونه محترفا ، يعرف ان مثل هذه التحريات ليست سوى عمل روتينى ، لا يتضمن اية مخاطرة ٠

وقال باروخ أن اسرته تقيم في المنزل رقم ٩٨ بشارع ايلات في جولون ، أما شقيقته ايفيت ، فقد تزوجت من يهودى ايرانى يدعى كليمنت مزراحى ، وتقيم في نفس الشارع في المنزل رقم ٣٨ ، واتضح أن لباروخ شقيقا يدعى « ماير » ويعمل ميكانيكيا في جيش الدفاع وتزوج من عراقية تدعى « ايلين » ويقيم مع اسرته في البيت رقم ١ بشارع روشبينا ٠

وانتهى الاستجواب الفورى للضابط الاسرائيلى الاسير في الساعة الثانية عشرة والربع من صباح اليوم الثامن من يوليو ، وفي الصباح أبرق الفهد الى القاهرة ببرقية من كلمتين ، ضابط مخابرات !!

وصل النبأ الى القاهرة فأحدث رد فعل واسع النطاق ، وقالت منظمة مقاومة الجاسوسية في تقرير سرى للغاية ، أن جهاز المخابرات الاسرائيلى يعرف بالقطع أن ضابطه في اليمن ، وعلى ذلك بمجرد انقضاء الفترة المحددة للتراسل ، دون وصول أية رسائل ، فان الاسرائيليين سوف

يتحركون بأقصى سرعة لمنع اليمنيين من « استنزاف » معلوماته . حتى لو أدى الامر الى قتله !!

وفي الساعة العاشرة من صباح التاسع من يوليو عقد في مكتب المشير احمد اسماعيل اجتماع موسع حضره السنجاب . وفي هذا الاجتماع . استقر الرأى على أن أفضل اجراء يمكن اتخاذه لتحقيق اقصى فائدة ، من هذه الحادثة الفريدة . هو العمل بكل الوسائل لكى تتسلم القاهرة من صنعاء الجاسوس الذى قبض عليه في الحديدة · وقد يبدو غريبا ، بعد أن قام الفهد باستجواب باروخ هناك في صنعاء ، أن تعمد المخابرات المصرية الى اجراء يهدف الى تسلم الاسير من الدولة التى أسرته ، ولكن هذه الغرابة تزول على الفور. اذا أوضحنا أن المعلومات التى أدلى بها باروخ لمستجوبه ، رغم غزارتها ، لا تمثل الا جزءا ضئيلا من المعلومات التى كان عليه أن يكشف عنها النقاب عندما يصل الى القاهرة !!

وكان أهم سؤال يحير الفهد في صنعاء . ويحير رؤساءه في جهاز المخابرات المصرى ، هو ذلك السؤال الذى بقى على شكل استفسار مشوب بالدهشة وهو :

لماذا ترسل المخابرات الاسرائيلية ، التى لا يجب الانتقاص من كفاءتها ، ضابطا من ضباطها ، في مهمة كان يستطيع أى عميل عادى ، أن يقوم بها على خير وجه ؟!

وكانت الاجابة على هذا السؤال ، بداية لمعركة ضارية لم يسبق أن شهد العالم السرى ، معركة مثلها من قبل !! ·

الفصل الخامس

المتاعب تظهر في الأفق

قبل أن ينقضى نهار الأحد، التاسع من يوليو ، كانت القاهرة قد اتخذت الاستعدادات الضرورية ، لنقل ضابط المخابرات الاسرائيلى ، من صنعاء . وكان الرأى السائد في رئاسة المخابرات ، وفي منظمة مقاومة الجاسوسية ، ان الوسائل الدبلوماسية ، سوف تتكفل باقناع الحكومة اليمنية ، بأهمية هذه الخطوة ، على المستوى القومى ·

وكان معروفا منذ بداية الأسبوع ، ان مجلس الوزراء سوف يعقد اجتماعا في التاسع من يوليو ، لذلك ، اجرى مكتب المشير اسماعيل ، اتصالا عن طريق التليفون بمقر رئاسة مجلس الوزراء ، في تمام الثانية عشر ظهرا ، واستفسر المتحدث عن وزير الخارجية · ولكن اتضح أن الأجتماع الذى كان مقررا عقده في ذلك الوقت ، قد تأجل الى الثلاثاء الحادى عشر من يوليو ، ولم يكن وزير الخارجية موجودا هناك · وبعد ذلك بثلاثين دقيقة ، تمكنت المخابرات من الاتصال بوزير الخارجية ،

وعندما أشرفت الساعة على الواحدة ، عقد اجتماع ضم الرجلين وحدهما ، وأفضى مدير المخابرات لضيفه بقصة جاسوس الحديدة ، وشرح باقتضاب أهمية نقله الى القاهرة ، وطلب أن تبذل وزارة الخارجية أقصى ما تستطيع من جهد ، للحصول على موافقة الحكومة اليمنية في أقرب وقت ممكن ، وكانت الحجة التى قدمتها المخابرات ، أن باروخ المولود في مصر يتمتع بالجنسية المصرية ٠

وفي نفس اليوم ، ابرقت منظمة مقاومة الجاسوسية ، لرجلها في صنعاء ، تطلب منه ان يوافيها على وجه السرعة ، بأربع صور مقاس ٤ × ٦ ، للاسرائيلى السجين ، واشترطت البرقية ان تلتقط الصور بالمواجهة وأن تظهر فيها أذناه !!

وكان « الفهد » قد ترك « باروخ » لتوه ، بعد ان أجرى معه جولة جديدة من الحوار لذلك دهش الاسرائيلى بشدة عندما فوجىء بغريمه وهو يأمره بأن يرتدى ثيابه ، ليلتقط له عددا من الصور التذكارية ، وبينما كان يدس قدميه في سرواله ، ابدى ملاحظة ذكية على سبيل الدعاية ، اذ أشار الى الساعة المربوطة في معصم الفهد ، وقال أنها التقطت له ما يكفى من الصور ، واضطر ضابط المخابرات المصرى الى الابتسام ، فقد كانت ساعته تحتوى بالفعل ، على كاميرا صغيرة من طراز « شتانيك ب » !!

كانت خطة المخابرات المصرية ، مبنية على اعتقاد مفرط في التفاؤل ، بأن الحكومة اليمنية سوف تسلم « باروخ » بهدوء للفهد . وكانت الصور المطلوبة ضرورية لاستخراج جواز سفر مصرى من مصلحة الجوازات . تحت زعم أن مواطنا من عملاء المخابرات وجد نفسه فجأة بدون جواز سفر ، وبمساعدة هذا الجواز ، كان من المقرر ان يصحب الفهد أسيره ، في رحلة طيران عادية الى القاهرة ٠

وبعد ثمان وأربعين ساعة . وصلت صور « باروخ » من صنعاء . وتم استخراج الجواز بالفعل . وكانت البيانات المثبتة فيه . توضح أن صاحبه يدعى موسى زكى سلامة . ومهنته تاجر . أما عنوانه فهو : ٨ شارع خليل الطواب بالظاهر !!

وفي اليوم التالى . الاثنين العاشر من يوليو . اتصلت السفارة المصرية في صنعاء . بمكتب رئيس وزراء اليمن وكان في ذلك الوقت محسن العينى ـ وطلب المتحدث تحديد موعد للسفير . لكى يسلم رئيس الوزراء رسالة عاجلة من الحكومة المصرية . وتمت المقابلة في الساعة الواحدة وثلاث عشر دقيقة . وفي هذه المقابلة . أشار رئيس الوزراء الى اقتناعه بوجهة النظر المصرية . ولكن أرجأ البت في الأمر . حتى يستطلع رأى وزير الداخلية . والمسئولين عن الأمن . ووعد بأن يخطر السفير بالنتيجة على الفور .

وشهدت القاهرة مقابلة اخرى وان كانت مختلفة . فقد وافق المشير أحمد أسماعيل على الادلاء بحديث صحفى لجريدة الاخبار القاهرية . وكانت أهم فقرة في حديث المشير . الذى نشر صباح الاربعاء الثانى عشر من يوليو . هى تلك التى قال فيها أن جهاز المخابرات العامة . قام مؤخراً بجهود مشرفة في مجال مقاومة الجاسوسية . وأن هذه الجهود . لم يحن وقت الاعلان عنها بعد ..

وفي مساء نفس اليوم الاثنين . اتضح ان تفاؤل المخابرات المصرية . لم يكن له أى مبرر . فقد تلقت السفارة المصرية في صنعاء . جواب رئاسة الوزراء اليمنية على رسالة القاهرة ويتلخص هذا الجواب في ان وزارة الداخلية . لا ترى في القضية ما يدعو لتسليم « الجاسوس » للقاهرة . وخصوصا وأنها على استعداد كامل . لان تضعه تحت تصرف المصريين .

في صنعاء ، حتى يتمكنوا من استخلاص المعلومات التى يريدون استخلاصها منه ..

وكان وزير الداخلية على سيف الخولانى مصرا على رأيه بعناد لا حد له ، وعندما أتصل به السفير ، في محاولة يائسة لاقناعه ، أشار الى أن قصة الجنسية المصرية التى يتمتع بها الجاسوس ، لا تلقى قبولا من جانبه ، وفي النهاية ، اضطر السفير ، صباح الثلاثاء الحادى عشر من يوليو ، الى الابراق برد الحكومة اليمنية ، الى وزارة الخارجية .

وعندما تلقت رئاسة المخابرات النبأ ، في الساعة الثالثة بعد الظهر ، طلبت مرة أخرى من وزارة الخارجية ، أن تخطر الوزير اليمنى ، بأن هذا الجاسوس ، مارس نشاطا ضارا بأمن مصر ، وأن فحص الصور التى ضبطت معه ، أثبت أنه التقط صورة لوحدة بحرية مصرية ، أثناء مرورها أمام الساحل اليمنى ، وان هذه الوحدة ، مازالت راسية في ميناء الحديدة .

ومن جديد جاء رد وزير الداخلية اليمنى مخيبا للآمال ، وكانت وجهة نظره منطقية الى أبعد مدى ، اذ أشار الى أنه يفضل محاكمة الجاسوس في صنعاء ، حتى يدرك الجميع ان الاراضى اليمنية ليست مباحة للأجهزة الباحثة عن المعلومات ، أما فيما يتعلق بالوحدة البحرية المصرية ، فان الوزير يؤكد ، ان الجاسوس سوف يلقى عقابا رادعا ، جزاء تجاسره على تصويرها .

وجدت المخابرات المصرية أنها في موقف لا تحسد عليه ، فبينما كانت تتلهف على نقل ضابط مخابرات معادى ساقه القدر الى قبضتها ، كانت كل الظروف تتخذ اتجاها معاكسا ، ولم يكن من المقبول ، أن تعمد الى الاساليب المعتادة في مثل هذه الحالات ، في عالم المخابرات ،

فوجود الهدف في أرض دولة شقيقة كان يمنع مجرد التفكير في اختطافه ·

كانت الظروف التى تمر بها مصر في ذلك الوقت عصيبة بدرجة لا تصدق ، وكانت نوايا الرئيس التى لم يطلع عليها أى مخلوق ، والتي تتركز كلها حول شن حرب بالغة الشراسة ضد اسرائيل ، تشغل تفكيره بقسوة ، وكانت المخابرات قد ضبطت شبكة من عملاء المخابرات الاسرائيلية ، وهم يوزعون منشورات مضادة تهدف الى تخريب نفسية الشعب الذى يتأهب للحرب ، وأهم من ذلك كله ، كان قرار الرئيس بانهاء الوجود السوفيتى في مصر قد اتخذ بالفعل ، وكان من المقرر ان يلقى الرئيس بيانا أمام اللجنة المركزية يوم الثلاثاء الثامن عشر من يوليو ·

ـ لماذا يوفدون ضابط مخابرات ؟ ··· ان ذلك يبدو غريبا ·

هكذا همس الرئيس السادات في مواجهة مدير مخابراته وهو يرسل بصره عبر الباب الزجاجى الذى يشرف على النهر ، وعندما أجاب المشير بأن كل الأمور سوف تتضح عندما يصل « باروخ » الى القاهرة ، أومأ الرئيس برأسه واستغرق في تأملاته من جديد ·

ساد الصمت الرهيب غرفة المكتب ، التى شهدت أخطر اجتماع في قصتنا كلها ، ولم يتبدد هذا الصمت الا عندما بدا شعور بالارتياح على ملامح الرئيس السادات وقد التفت الى المشير ثم هتف :

انني لا أحب أن اسبق الحوادث · ولكنى أعتقد أنهم يبحثون عن شيء هناك ·· عند باب المندب !!

كالبرق الخاطف أضاءت عبارة باب المندب الأفق الذى كانت الظلمة تغمره ،وعلت الابتسامة وجه مدير المخابرات الذى قضى عمره جنديا محاربا ، ولم يكن أحد في حاجة لأن يوضح أن « باب المندب »

ليس سوى طرف القصبة الهوائية . الممتدة بعيدا . بطول البحر الأحمر كله الى ميناء ايلات .

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف أجرت رئاسة الجمهورية في القاهرة ، اتصالا تليفونيا بمكتب القاضى عبد الرحمن الايريانى في صنعاء ، وبعد ان تبادل الرئيسان حديثا وديا للغاية ، وعد رئيس الجمهورية اليمنية ، بأن يبذل قصارى جهده ، لكى توافق الحكومة على الطلب الذى تقدم به سفير مصر في صنعاء .

كانت الاحداث تتتابع بسرعة رهيبة وسط جو مشحون بالقلق . ويبدو ان وزير الداخلية اليمنى ، الذى كان مقتنعا بافكاره الخاصة ، أراد ان يضع حدا للضغوط التى تمارسها القاهرة ، فقد أسرع بمجرد ان اتصل به القاضى الايريانى ، وعقد مؤتمرا صحفيا أعلن فيه باختصار . أن جاسوسا اسرائيليا قد قبض عليه في اليمن .

أنتشر النبأ بسرعة البرق ، ونشرته صحف القاهرة في صفحاتها الأولى ، صباح الخميس الثالث عشر من يوليو ، وأدرك ضباط المخابرات المصريون ، أن السر الذى تكتموه قرابة شهر ، والذى كان يمثل في نظرهم أهم عوامل النجاح في خططهم التى كانت تمنى بالفشل تباعا . أدركوا أن هذا السر قد أفتضح .

كانت الضربة أقوى من أن تمتص بسهولة ، وكان من المستحيل ، بالنسبة لأى مخلوق عاقل ، أن يتوقع مرور النبأ هذه المرة تحت أنف الاسرائيليين دون أن يلفت انتباهم ، ولأنهم كانوا يعرفون بالتأكيد ، أن رجلهم في اليمن ، تحركوا بسرعة تدعو الى الاعجاب ، وكان المصريون ، في الجانب الآخر ، على يقين من ان المخابرات الاسرائيلية ، سوف تذهب الى نهاية الشوط ، فاذا ما فشلت في استعادة رجلها ، فلا بد أن تلجأ الى « تصفيته » حتى لا يقع كنز من المعلومات في يد العرب .

وهكذا ، وبينما كانت تعقد في القاهرة ، صباح الأحد السادس عشر من يوليو ، جلسة محاكمة للعملاء الذين ضبطوا وهم يوزعون المنشورات ، وصل الى صنعاء رجل يمتهن المحاماة ، ويدعى صالح عبد القادر كبير ، وأعلن فور وصوله أنه موكل للدفاع عن الجاسوس المتهم ، وطلب أن يلتقى بموكله ٠

ورغم ان الفهد ، الذى كان يقطع الوقت بجلسات حوار طويلة مع الأسرائيلى ، أدرك ان المتاعب بدأت في الظهور ، الا انه لم يفقد هدوءه للحظة الواحدة ، ولانه لم يكن مغمض العينين ، رأى ان يلقى نظرة عن كثب على ذلك المحامى الذى ظهر على المسرح فجأة ٠

كان المحامى رجلا إثيوبيا أسمر البشرة حاد التقاطيع يتأرجح في مشيته مثل دب ، وقد زعم ان علاقته بالمتهم قديمة ترجع الى سنوات مضت ، وكان من الطبيعى بالنسبة لرجل يحترف التجارة ولديه صلات متشعبة بشركات عديدة ، ان يكون لديه محامى مفوض ليدافع عن مصالحه ٠

ولكن الحياة ليست دائما كما تبدو عن قرب ، فهناك في أديس أبابا ، حيث يقوم مكتب استاذ القانون المولع بالدفاع عن المظلومين ، عثر ضابط مخابرات مصرى ، أوفد لتحرى الحقائق على عجل ، على عقد بين المحامى وبين من يدعى جاستون رين ، ونصت بنود العقد ، على أجر قدره خمسة آلاف دولار أثيوبى ، اذا تمكن المحامى من اطلاق سراح المتهم ٠

ولأن الحركة السريعة تسفر في بعض الأحيان عن نتائج مرعبة ، اكتشف ضابط المخابرات المصرى في أديس ابابا ، ان السيد المبجل جاستون رين ، الذى يبدو أنه كان في عجلة من أمره .. قد جاء الى

اثيوبيا بجواز سفر اسرائيلى ، وأنه اتخذ من هيلتون أديس ابابا مقرا لاقامته ٠

وبمجرد وصول هذه المعلومات الى القاهرة ٠ شكلت المخابرات المصرية مجموعات عمل ، زودت بكل الامكانيات الضرورية ، للمهام الصعبة ، وطارت أول مجموعة الى أديس ابابا ، صباح الثلاثاء الثامن عشر من يوليو ، وكان على افراد المجموعة الثلاثة ، ان يضعوا جاستون رين تحت الرقابة الدائمة ، والرقابة تعنى في لغة المخابرات ، ان يظل تحت الملاحظة طوال الأربع والعشرين ساعة ، التى تشكل الزمن المعروف لأى يوم ٠

وجاء من تل أبيب مؤشر بالغ الخطورة وان بدا عاديا ، فقد أذاعت وكالة الأنباء الفرنسية نبأ يفيد بأن سلطات الامن الاسرائيلية ، قررت ان تقدم للمحاكمة خلال شهرين ، ألفا وأربعمائة عربى ، كانوا في السجون الاسرائيلية ، دون ان توجه اليهم اتهامات محددة ، وكان معنى هذا النبأ ، الذى طيرته الوكالة الفرنسية في نفس اليوم ، الثلاثاء ، ان اسرائيل تجمع في السلة أكبر عدد من البيض ، استعدادا للمساومة ٠

ولم تكن هذه الخطوة هى كل ما في جعبة المخابرات الاسرائيلية ، فهناك في اسرائيل يعيش ألوف من اليهود اليمنيين ، الذين لا يمكن تمييزهم عن أهل اليمن الاصليين ، والذين يجيدون اللغة العربية ، باعتبارها لغتهم الحقيقية ، ولأن الحدود اليمنية تمتد امتدادا هائلا ، كما ان غالبية اجزائها تتميز بالوعورة ، كان سهلا على المخابرات الاسرائيلية ، ان تدفع هى الأخرى « جماعة عمل » يكون هدفها الأساسى الحيلولة بين الضابط الأسير وبين أى طرف يود ان يجبره على أن يفتح فمه ، وكما يحدث دائما في مثل هذه الظروف التى يواجه فيها جهاز مخابرات قوى جهازا قويا آخر ، أخذت النذر تتجمع وتنبىء

بتصاعد رهيب في حدة الصدام المرتقب ، وأفاد تقرير عاجل من أديس ابابا . بأن « جاستون رين » . تلقى مساء الأربعاء التاسع من يوليو . مكالمة تليفونية اسرع على أثرها مغادرا الفندق . واستقل عربة أجرة هبط منها على مقربة من السفارة الاسرائيلية . وبعد ان تسكع في الشوارع بعض الوقت التقى برجل في حوالى الأربعين . يتميز بسحنة شرقية وقامة مديدة وبنية تدل على قوة الجسد . وبمتابعة هذا الرجل . أكتشفت مجموعة المراقبة أنه التقى في نفس الليلة . بستة رجال ، كل على حده . وكان القاسم المشترك في صفات الرجال الستة ، السمات العربية والسلوك الشرقى الصرف .

ان المسافة بين الساحل الأثيوبى . وساحل اليمن ، يمكن قطعها في تسع ساعات بزورق جيد نوعا ما ، وكان معنى التقرير الأخير ، ان المخابرات الاسرائيلية قد استعدت للجولة الحاسمة في المباراة . وكان المصريون يعرفون تماما . ان هذه الجولة ، مسموح فيها بالضرب تحت الأحزمة .

وكان من الضرورى تحذير الفهد ، وقد تلقى برقية مفادها ان يتوقع وصول بعض عناصر الكومندوز الاسرائيليين الى اليمن . ولم يكن واجب ذلك الضابط الشجاع ان يتوخى الحرص ليدافع عن حياته فقط . بل كان عليه أن يمنع أى محاولة لقتل « باروخ » أيضا . ومن المفارقات التى تثير العجب . ان واجب الفهد كان يحتم عليه . في هذه المرحلة من العملية . ان ينقذ غريمه بأية وسيلة . حتى لو ضحى بحياته هو !!

وعندما حل يوم الاربعاء . التاسع عشر من يوليو . اكتشف المصريون أن « جاستون رين » . الذى لم يشك أحد في أنه ضابط مخابرات هرع لنجدة زميله . يتمتع بقدر مناسب من الثروة فقد عرض المحامى

الأثيوبى ، ان يدفع مائة ألف من الجنيهات الاسترلينية على سبيل « الكفالة » لاطلاق سراح السجين ٠

كانت الأمور تزداد تعقيدا كل لحظة ، فبعد المائة ألف جنيه ، عرض المحامى ان يدفع عشرة ملايين جنيه استرلينى ٠ في مقابل نسيان المسألة برمتها ، ومن الغريب ، ان هذا العرض كان سيجد قبولا من بعض المسئولين اليمنيين وكانوا يرون لا فائدة في الاحتفاظ بهذا الجاسوس الفاشل ٠ كما ان الصفقة تبدو رابحة للغاية ، وقد تمكن الفهد من الاطلاع على كل تفاصيل هذه الصفقة ، وأدرك ان الحجر قد أخذ في التدحرج بعيدا عن سيطرته ٠

وقبل غروب شمس الاربعاء ، تسلمت رئاسة المخابرات في القاهرة ، برقية من الفهد ، وظن الضابط الذى فك رموزها ، ان خطأ جسيما قد حدث ، فقد تضمنت هذه البرقية مطلبا واحدا ان تضع المخابرات تحت تصرفه عشره ملايين جنيه استرلينى نقدا ٠

كان تاريخ الفهد المشرف ، يحملق بشدة في وجه كل من تصور ان خطأ ما يرقد بين السطور فلم يحدث قط ، طوال قرابة عشر سنوات ، ان أخطأ الفهد في حل أو تركيب شفره . كما ان تقديره اتسم بالصواب في مواقف تثير الحيرة وربما أكثر تعقيدا من هذا الموقف ٠

وبينما كانت أجهزة الارسال ، تبرق ببرقية عاجلة الى صنعاء ، لطلب مزيد من الايضاح . كان المشير اسماعيل يتلقى تقريرا عن آخر التطورات في أهم قضية شغلت جهاز المخابرات المصرى في السنوات الأخيرة . وعندما قال مدير منظمة مقاومة الجاسوسية للمشير ان الفهد أرسل يطلب عشرة ملايين جنيه ضاقت عينا الرجل وقطب جبينه بحدة ، ولكن المدهش أنه أوما برأسه موافقا !!

وفي منتصف الليل ، أقدم ضابط المخابرات المصرى في صنعاء على خطوة تعد ـ من وجهة النظر البروقراطية ـ خرق صريح لقواعد العمل ، اذ اتصل بصديقه في السفارة المصرية ، وطلب منه أن يخطر السفير ، بأن الحكومة المصرية على استعداد لأن تدفع الملايين العشرة المطلوبة كفدية للجاسوس المتهم ، والح في أن يبلغ السفير هذا القرار للمسئولين قبل ان تشرق الشمس •

ومن أديس ابابا ، جاءت أنباء قاتمة تتسم بالكآبة ، فقد أبلغت جماعة المراقبة هناك ان « جاستون رين » ، الذى كان قابعا في فندق هيلتون ، استقبل زائرا مشابها للزائر الذى التقى به من قبل في شوارع المدينة ، وان ستة أفراد اخرين ، قد وصلوا الى أديس ابابا ، ولكن في هذه المرة ، تمكنت المراقبة من تحديد وجهتهم ، ولم تكن هذه الوجهة سوى الشاطىء الأثيوبى ، وهناك استقلوا زورقا وأختفوا في البحر •

وفي نفس الوقت ، أفادت تقارير متابعة نشاط الاسرائيليين الجوى ، في صحراء سيناء ، عن زيادة غريبة في حجم الداوريات الجوية الاسرائيلية. واتضح ان لواء جويا كاملا قد نقل من مطارات المنطقة الوسطى ، في اسرائيل ، الى مطارات سيناء في الجنوب •

وفي ميناء ايلات ، المطل على خليج العقبة ، شاهد عملاء المخابرات المصرية ، ثلاث زوارق مسلحة بالصواريخ ، وكشفت حركة هذه الزوارق ، عن نوع جديد من الداوريات ، وكان واضحا ان الاسرائيليين قد قرروا مراقبة البحر الأحمر ، من الجو والبحر ، ومن المؤكد أنهم شعروا ، بوسيلة أو بأخرى ، ان الأصابع المصرية تحاول هى الأخرى ان تصل الى « باروخ » •

كانت الاسلحة تشحذ وهى تتأهب لمعركة حياة أو موت . وكان جهاز المخابرات المصري في القاهرة في حالة يقظة واستعداد قصوى ، وكان جهاز المخابرات الأسرائيلى في تل أبيب يفتح عيونه على اتساعها . اما في صنعاء ، فكل أثنان من ضباط الجهازين يجريان حوارا هادئا يغمره الود ، وعندما كان الفهد يتغيب لبعض الوقت ، كان « باروخ » يبدى استياءه ويشعر بالوحشة !!

وفي صباح الخميس ، تدخل طرف ثالث لم يكن أحد يتوقع أن يتدخل بهذه السرعة ، فقد أبرقت لجنة حقوق الأنسان · التابعة للأمم المتحدة ، من باريس . تطلب ان تتاح للمتهم الفرصة لكى يدافع عن نفسه في محاكمة عادلة ·

ووسط هذا الجو المشحون بعوامل الانفجار ، برزت على السطح بادرة طيبة للغاية ، اذ نقلت وكالات الانباء تصريحا مقتضبا لمحمد خميس ، مدير جهاز الأمن اليمنى . وكان نص التصريح أن الحكومة اليمنية سوف تسلم الجاسوس الاسرائيلى لمصر ، وقد أدلى محمد خميس . وهو ضابط شاب يتدفق حماسا وحيوية · بهذا التصريح لوكالة الأنباء العراقية . ونقلته الى العالم كله وكالة الانباء الفرنسية ·

وكان معنى هذا التصريح المقتضب ، الذى نشرته صحف القاهرة صباح الخميس العشرين من يوليو . ان آراء معارضة لموقف وزير الداخلية قد بدأت تبرز على سطح الأحداث ·

وكان على المصريين ان يراقبوا الموقف بهدوء وان يتمنوا تغلب الآراء التى في صالحهم ·

وكانت القاهرة تتحرك بسرعة في مواجهة تل أبيب ، وكان من السهل على المصريين أن يدفعوا أى مبلغ من المال . في سبيل الحصول على

الفريسة التى كانت ترقد في شبكة متينة وان كانت بعيدة ، وفي يوم الخميس ، مضى الاسرائيليون قدما في محاولاتهم المستميتة ، اذ عرض المحامى الأثيوبى ، ان يقدم لليمن ، بالاضافة الى الملايين العشرة ، صفقة أسلحة صغيرة على سبيل الهدية وللتعبير عن نواياه الحميدة تجاه شعب اليمن ·

ومن الغريب · ان هذا المحامى النشيط ، لم يكف لحظة عن الاعلان ، عن أن كل هذه العروض ، سوف تتحملها ثروة موكله التاجر الثرى ، ورغم ان جميع الأطراف كانوا يعرفون الحقيقة ، الا أن الكل كان يبتسم وهو يتظاهر بالتصديق ، وكانت الدلائل تشير الى أن اللعبة تتخذ مسارا مراوغا ، فان لم تنجح الجهود المبذولة للافراج عن المتهم ، فان من المفيد كسب بعض الوقت ، حتى تتمكن المخابرات الاسرائيلية من التصرف ·

وفي مساء الخميس ، وبينما كان الفهد يسرع في طريقه الى المقر ، الكائن على الطريق المؤدى الى وادى ظهر ، انطلق وابل من الرصاص على الرجل الذى لم يكن يملك سوى طبنجة صغيرة العيار ، وأصابت رصاصة نافذةالسيارة اللاندروفر التى كان يقودها ، ومرقت رصاصة أخرى تحت ذقنه وهى تحدث صفيرا مخيفا ، وضغط الضابط الجسور بقوة على مفتاح السرعة ، وفي نفس الوقت ، أدار عجلة القيادة بحدة الى اليمين ، واندفعت اللاندروفر وهى تزار الى تل رملى يشرف على الطريق ، وبعد أن دار حول التل ، عاد بأقصى سرعة مخترقا الطريق الى الجانب الأيسر ، وبينما كان يبحث على ضوء مصابيح السيارة عن المهاجمين انطلق الرصاص من جديد ·

كانت المخابرات الاسرائيلية قد وصلت الى الميدان ·

الفصل السادس

القاهرة تنادى القرش !!!

أسوأ شىء في الكون ان تكون هدفا واضحا وعدوك مختفى عن الاعين ، وسط لجة من الرصاص كان الفهد يفكر بسرعة ، اللاندروفر تحولت الى نعش ظاهر والمهاجمون يصوبون على عجلة القيادة ٠ لا امل في النجدة لأن صوت الرصاص ليس غريبا في أرض يحمل أهلها ـ حتى الاطفال ـ البنادق على اكتافهم ، كل الوجوه مرقت في مخيلته كان ساحرا رهيبا يبدل الصور أمام عينيه . الزوجة والطفل وليالى الصيف الحالمة والمدير الذى ينتظره كما ينتظر الرجال دائما ، بعد المدير رأى السنجاب يبتسم كأنه يشجعه ، في تلك اللحظة تمنى لو أن السنجاب كان معه ٠

وسط شريط الصور توقفت صورة واحدة لتثير الرعدة في بدنه ، أحنى رأسه وغاص في مقعده وضغط بدال السرعة فأنطلقت اللاندروفر كيفما اتفق ، كان يعرف أنه على يسار الطريق لذلك لوى عجلة القيادة الى

اليمين . وشعر كأنه يسير فوق حافة مستنه ومالت العربة بحدة ولكنه واصل الضغط بعنف . ارتفعت المقدمة وهوت فجأة واكتشف انه يغوص في رمال ناعمة . بدل السرعة وزار المحرك وراحت العجلات الخلفية تدور دون أن يتقدم . حاول من جديد ونبت العرق فوق جبهته . في النهاية نجح في أن يعاود السير . رفع رأسه بحذر والقى نظره . على مسافة ذراعين رأى الطريق الممهد ورغم قسوة الموقف ابتسم . عندما لمست العجلة الأمامية سطح الأسفلت انتابه احساس كأحساس الغريق عندما يضع قدمه فوق صخرة . كانت الصورة التى استفزت كل قدراته هى صورة « باروخ » .

انطلق ضابط المخابرات الذى كان هدفا لمجموعة من الاسرائيليين لا تجيد التصويب صوب المقر . كانت العربة مندفعة كطلقة رصاص كأن كل أبالسة الجحيم تجد في آثره . رغم الصدمة والوحدة لم ينس أن يترك العربة بعيدا عن البيت . وعندما وجده « باروخ » امامه دهش لهيئته التى تنم عن القلق . آمره أن يرتدى ثيابه وأن يستعد لمغادرة المكان بأقصى سرعة . كانت المشكلة الآن تتلخص في الحصول على موافقة السلطات اليمنية لكى ينقل الاسير الى مكان آمن بعيد . لذلك طلب الفهد من الحراس اليمنين ان يفتحوا عيونهم جيدا . وانطلق الى اللاندروفر مرة أخرى .

مضت ساعة كاملة الى أن تمكن الفهد من الوصول الى قلب صنعاء . بدلا من الطريق المعتاد اتجه الى الصحراء ومر بجوار قصر الامام القديم ثم اندفع في ممر ضيق تملؤه الحفر في قلب وادى ظهر نفسه . وقطع مسافة وسط الرمال الى أن وصل الى طريق المطار . انحرف الى اليسار ودخل صنعاء من أبعد أطرافها عن مكمنه

كانت الساعة التاسعة والنصف من مساء الخميس عندما توقفت اللاندروفر امام السفارة المصرية . وكانت هذه أول مرة تطأ فيها قدم الفهد أرض سفارته . الى يمين الباب عثر على مكتب القنصل ولكنه استمر في التقدم . كان الرجل يعرف طريقه الى مكتب صديقه الدبلوماسى الذى يلجأ اليه كلما احتاج الى معاونة . صعد درجا مفروشا بسجاد كالح اللون ومضى الى اليسار طرق الباب وجاءه صوت مصرى بأن لا أحد هناك . المصريون هم المصريون في كل مكان . وبمجرد ان اكتشف حارس الليل في الطابق الثانى أنه مصرى دعاه الى كوب من الشاى ولكنه اعتذر . سأله عما اذا كان قد وفد الليلة الى اليمن فأجابه بايماءة من رأسه وطلب أن يتحدث في التليفون . اقتاده الحارس الى غرفة فسيحة الى اليمين بها مكتب أنيق وعدة مقاعد خضراء . لاحظ وهو يتحدث في التليفون علم مصر وصورة الرئيس . كان الفهد في مكتب السفير نفسه .

وفي العاشرة بالضبط وافاه صديقه الدبلوماسى وأبدى دهشته لوجوده في مبنى السفارة في هذا الوقت من الليل . وبعد اتصالات محمومة أمرت وزارة الداخلية اليمنية بنقل « باروخ » على وجه السرعة من المقر . وقبل أن تشرق شمس الجمعة كان الرجلان قد استقرا في مكانين متباعدين . باروخ وحراسه الثلاثة في بيت متواضع على طريق « صعده » . والفهد في شقة صغيرة في حى « باب اليمن » .

ولم يكن هذا الاجراء هو النتيجة الوحيدة لدوى الرصاص في تلك الليلة . فقد أدركت كل الاطراف ان اللعبة اتخذت مسارا حادا هذه المرة . وشعر الجميع . اليمنيون والمصريون والاسرائيليون . بأن الموقف يتطلب مزيدا من الحذر بعد أن كشفت كل الأوراق على المائدة وكان

« باروخ » هو الثعلب الوحيد المستسلم وسط حشد من الثعالب وصل الى مكان الفخ ·

وبينما كانت الأمور تتفاقم على هذا النحو في صنعاء ، كان جهاز المخابرات في القاهرة يشهد نشاطا واسع النطاق . وكانت التقارير تتدفق من أقسام المعلومات ، جداول للنشاط الجوى الاسرائيلى وخرائط لمسارات طائرات الاستطلاع وتوقيتات الداوريات البحرية في خليج العقبة ، مع بيانات وافية لتحركات العملاء الاسرائيليين الموضوعين تحت المراقبة ، والسفارات الاسرائيلية في المنطقة الجنوبية من افريقيا . وكان فرد واحد يحظى بأكبر قسط من الاهتمام · ولم يكن هذا الفرد سوى جاستون رين ، ضابط المخابرات الاسرائيلية المقيم في أديس بابا ، والمكلف بقيادة وتوجيه عمليات انقاذ « باروخ » ·

كانت القاهرة على استعداد لأن تدفع أى ثمن في مقابل الحصول على « باروخ » ، وكانت عشرة ملايين من الجنيهات الاسترلينية معدة للطيران الى صنعاء بمجرد أن يشير الفهد . ومنذ أن أشار الرئيس السادات الى « باب المندب » ، والمشير احمد اسماعيل يستحث ضباطه لكى يسرعوا باحضار « باروخ » مهما كانت الظروف . وكانت امكانيات مصر كلها ، وبلا حدود ، موضوعة تحت تصرف مدير المخابرات ، ولم يكن المدير يعرف أنه سيتولى بعد ذلك بأربعة عشر شهرا . مسئولية الضغط على قصبة اسرائيل الهوائية ، الممتدة من ايلات الى باب المندب ·

وفي صباح الجمعة الواحد والعشرين من يوليو ، دعا المدير الى اجتماع ضم هذه المرة ضباطا من أقسام غير منظمة مقاومة الجاسوسية ، بالاضافة الى مجموعة الضباط الذين تابعوا عملية « باروخ » منذ بدايتها . وطرحت على بساط البحث ، الاجراءات اللازمة لتوجيه الضربة الحاسمة في العملية كلها ·

كانت المشكلة التى برزت أمام المجتمعين ناجمة عن صعوبة عملية النقل حتى لو وافقت السلطات اليمنية على تسليمه . فالطريق الطبيعى لنقل هذه « الشحنة البشرية » ، من صنعاء الى القاهرة ، هى البحر او الجو . اما الطريق البرى فلا يمكن استخدامه لطول المسافة من ناحية ، ولأن مصر يفصلها عن اليمن بحر . وهذا البحر رغم أنه يبدو ضيقا على الخريطة ، الا أنه شاسع الطول في أقصى طرفه الشمالى خليج العقبة ، الذى تقوم عند رأسه المدبية اسرائيل .

وكان المجتمعون يعرفون أن اسرائيل سوف تعمل بكل ما لديها من امكانيات ، على التخلص من « باروخ » قبل أن يصل الى القاهرة . وكان معنى ذلك باختصار ، أن أى وحدة بحرية ستتحرك من الحديدة الى السويس ، سوف تتعرض للهجوم مهما كانت العواقب . ولم يكن الوقت من وجهة نظر المصريين مناسبا للمعركة ، لذلك تركز البحث حول تنفيذ العملية عن طريق الجو .

واستبعدت من مجال البحث طائرات الركاب المدنية العزلاء ، وكانت الوسيلة الوحيدة الباقية هى طائرات توبيلوف القاذفة الضخمة ، فهذه الطائرات العسكرية هى وحدها القادرة على قطع المسافة من مصر الى صنعاء والعودة . ولكن الضابط المسئول عن « عمليات الجو » افاد باستحالة استخدام التوبيلوف في المهمة ، لسبب بسيط وهو أن السلاح الجوى المصرى الذى لا يملك طائرات مقاتلة بعيدة المدى ، لن يستطيع توفير الحماية الجوية لطائرة النقل ، ولم يكن احد على استعداد للمغامرة بطائرة التوبيلوف ، التى تشبه البطه السمينة . وأهم من الطائرة التضحية بباروخ نفسه . وفيما يتعلق بالطريق البحرى ، اجمع الضباط على استحالة استخدام الوحدات البحرية العائمة في نقل الاسير . وكان البديل الوحيد هو استخدام غواصة على أن تتحرك الى الحديدة وسط أعقد

اجراءات للسرية ، وكانت أقرب غواصة مصرية الى ميدان العملية ، غواصة من طراز « روميو » كانت في رحلة تدريب ، وكان من المقرر أن تدور هذه الغواصة حول رأس الرجاء الصالح ، وتعبر مضيق جبل طارق ثم تخترق البحر الأبيض الى الاسكندرية ، وكانت الغواصة في ذلك الوقت تسبح شمال خط الاستواء ·

كان المشير احمد اسماعيل ، يستمع صامتا الى اقتراحات ضباطه وهو جالس على رأس مائدة الاجتماع دون أن يتخذ قرارا علنيا ، وكان « السنجاب » ضابط مقاومة الجاسوسية القديم يجلس في مواجهته . وقبل أن ينتهى الاجتماع ، طلب السنجاب من المدير أن يسمح له بالتوجه الى اليمن ، وقد رفع المشير حاجبيه باندهاش وحدق في وجه « السنجاب » الأحمر وبصوت هادىء النبرات شرح السنجاب مزايا هذا الاقتراح . ورغم أن المشير أعلن موافقته ، الا أن السنجاب لم يقلع الى صنعاء ، فقد كان من المقرر أن يطير صباح السبت الثانى والعشرين من يوليو ، الى باريس ، ففى باريس كانت أخطر جاسوسة لاسرائيل تعمل تحت مراقبة المصريين ، وكانت هذه الجاسوسة التى لم تنشر قصتها كاملة حتى هذه اللحظة ، تمد المخابرات الاسرائيلية ـ بخرائط تفصيلية لمواقع بطاريات الصواريخ على جبهة القناة ، ولست أشك لحظة واحدة ، في أن المخابرات المصرية ، لو لم تكتشف جاسوسة الصواريخ ، لتغير وجه التاريخ ·

كانت هبة عبد الرحمن سليم ، فتاة مصرية رائعة الجمال ذات سحر أخاذ وفتنة تخلب اللب ، وقد انتخبت بالفعل ملكة للجمال أثناء دراستها بجامعة القاهرة ، وعندما حصلت على منحة دراسية في جامعة السوربون ، طارت الى باريس وهناك تلقفتها المخابرات الاسرائيلية ·

وقد نجحت ملكة الجمال المثقفة في مضار الجاسوسية بشكل يندر أن يكون له مثيل في التاريخ . وأقامت شبكة لجمع المعلومات تحت ساتر انها تعمل في منظمة من أجل السلام . ونجحت في اجتذاب مهندس مصرى كان يعمل في الانشاءات العسكرية ، وهكذا وجدت خرائط الصواريخ طريقها بهدوء من القاهرة الى تل ابيب مرورا بباريس .

وفي هذه الظروف ، كانت منظمة مقاومة الجاسوسية تعمل في اتجاهين متضادين ورئيسيين في آن واحد ، من باريس في الشمال الأوربى ، الى صنعاء في الجنوب الآسيوى ، وكان واجب السنجاب ، منذ اكتشاف الصلة بين هبة سليم وبين الاسرائيليين ، أن يلقى نظرة من آن لآخر ، على الجاسوسة وضباط اتصالها الاسرائيليين ، أما في القاهرة ، فكان يتابع المهندس الخائن وكانت المراقبة مفروضة حول العميلين ليل نهار .

وفيما بعد ، عندما تقرر انهاء عملية « الطاحونة الحمراء » وهذا هو الاسم الكودى الذى أطلقته المخابرات المصرية على شبكة الصواريخ ، كان السنجاب هو الذى تولى نقل الجاسوسة الحسناء من باريس الى القاهرة ، وكانت عملية النقل هذه واحدة من العمليات المفرطة في الاثارة . ومن الغريب أن هذا الرجل تمكن من استدراج الفتاة بأسلوب معقد للغاية ، حتى ابتعدت بما فيه الكفاية عن الضباط الاسرائيليين ، ثم ضم مخالبه عليها ولم يهدأ الا عندما وصلت الى القاهرة ، وكان ذلك في السابع والعشرين من فبراير ١٩٧٣ . قبل الحرب بأكثر من سبعة أشهر ، وكانت هذه الأشهر السبعة ، كافية لأن تغير مصر مواقع صواريخها كلها ، دون أن تشعر اسرائيل .

تركت للسنجاب حرية الانتقال الى صنعاء ، بعد أن يعود من باريس ، وكان من المقرر أن يصل الى باريس في الرابع والعشرين من

يوليو ، بعد جولة واسعة بهدف التضليل ، وكان هو يعرف ، أن مهمته في باريس لن تستغرق أكثر من يومين ، يجتمع خلالها بمجموعة المراقبة التى كانت مكلفة بعملية « الطاحونة الحمراء » ·

وبعد أن انتهى الاجتماع ، استبقى المشير مدير منظمة مقاومة الجاسوسية وحده ، وليس بمقدور واحد أن يعرف ما دار بين الرجلين ، ولكن المؤكد ، أن المشير وضع أولويات محددة للعمل بمقتضاها فيما يختص بالعملية التى كان يوليها الأهمية القصوى وهى عملية نقل « باروخ » ·

وفي الساعة الحادية عشر صباحا ، اتصل الرئيس السادات بمدير مخابراته عن طريق التليفون وفي الحادية عشرة والنصف استقل المشير عربة سوداء قادها بنفسه ، وغادر مبنى رئاسة المخابرات ، ولم يكن أحد يعرف أنه اتخذ طريقه الى بيت الرئيس ·

وفي الثانية عشرة والثلث ، اتصل القصر الجمهورى في القاهرة بمقر القاضى عبد الرحمن الايريانى في صنعاء ، وعندما تحدث الرئيسان معا ، كان واضحا أن السادات الذى نجح في اقامة علاقات وثيقة مع كل الدول العربية يبذل جهودا مكثفة من أجل أن تتسلم المخابرات المصرية الضابط الاسرائيلى القابع بلا فائدة في صنعاء ·

وفي الثانية بعد الظهر عاد المشير الى مكتبه في مبنى رئاسة المخابرات ، ورغم أن يوم الجمعة هو يوم العطلة في مصر ، الا أن رئاسة المخابرات كانت تموج بالحركة ، وفي الثانية وعشرة دقائق استدعى مدير منظمة مقاومة التجسس على عجل الى مكتب المدير ، وهناك تسلم الأوامر التى كانت محصلة هذه الاجتماعات كلها ·

وفي عصر نفس اليوم ، استدعى خبير الصور البدين لمقابلة مدير منظمة مقاومة الجاسوسية ، وفي هذه المرة ، كلف البدين بمهمة لا تدخل

في نطاق اختصاصه ، اذ أمر بأن يسافر بأقصى سرعة الى عدن ، وان يشترى عربة لاندروفر بيضاء ، وأن ينتظر ومعه عربته الى أن تصدر اليه الأوامر من جديد ...

وفي نفس الوقت ، كانت غواصة مصرية تابعة للسلاح البحرى ، تسبح بهدوء في الأعماق شمال جزر اموانة فوق خط الاستواء . وكانت هذه الغواصة التى تحمل رقم ٦١٢ والتى يبلغ طولها مائتين وستة وأربعين قدما ، على مسافة الف ومائتين وسبعين ميلا من دار السلام ، وعلى مسافة أربعمائة وخمسين ميلا من مضيق باب المندب . كان هدير المحركات التى تبلغ قوتها أربعة آلاف حصان يخلف همهمة مكتومة في جوف الغواصة ، وكان الصف ضابط المسئول عن اجهزة الاتصال اللاسلكى ، وهو واحد من رجال البحر الأشداء ذا جبهة ضيقة وأنف مدببة يشبه سمكة الباراكودا ، مسترخيا بلا مبالاة بالقرب من جهاز الاستقبال ، وفي أقصى ركن من الغواصة ، وفي غرفة تعلو ستة أنابيب تحوى في جوفها ستة طوربيدات من عيار ٥٣٣ ملم . كان القبطان مضطجعا على أريكة من الجلد البنى اللون وبجواره جهاز للتليفون .

كان هذا القبطان واحدا من ضباط أعالى البحار المتمرسين ، وقد تسلم هذه الغواصة منذ أن انضمت للسلاح البحرى ، في فبراير ١٩٦٩ . وكانت هذه آخر رحلاته البحرية على الغواصة ٦١٢ ، اذ تسلم بعد ذلك غواصة من طراز « ويسكى » ، وكانت موجودة منذ عام مضى في لينجراد للاصلاح ، واعيدت للاسكندرية في ديسمبر ١٩٧٢ .

كانت الساعة تقترب من الخامسة واربعين دقيقة ، عندما نهض القبطان وتحدث في جهاز التليفون ، وقد أمر بأن يجرى مهندسو الآلات اختبارا للموتورات الكهربية ، بينما كانت موتورات الديزل تعمل بكفاءة ، وكانت الغواصة على عمق ستين قدما تحت سطح البحر .

وكانت أجهزة رجع الصدى وشاشات الرادار توضح أن كل شيء على ما يرام ·

وفي الساعة السادسة وعشر دقائق ، كان ضابط آخر يسرع الخطى ليستوثق من ان كل شيء على ما يرام قبل ان يقلع الى عدن ، وكان البدين يتعجب وهو يتأهب للرحلة الغريبة التى كلفوه بها ، ولم يكن لديه أى مبرر مقنع ، لأن ينتزع من عطلته لكى يطير الى الجنوب ، وليشترى عربة اللاندروفر ، التى اشترطوا عليه أن تكون بيضاء ·

وفي السادسة والربع ، كان الفهد هناك في صنعاء ، يترقب نهاية تلك القصة التى بدأها منذ شهر وثلاثة أيام ، وكان يستعد لجولة طويلة سيرا على الأقدام ، ليصل في النهاية الى ذلك البيت المتواضع على طريق صعده ، حيث يقيم غريمه الذى ربطته به صداقة من نوع غريب ، كما طال بينهما النقاش ·

فطوال الأيام الماضية ، ومنذ أن اعترف « باروخ » بحقيقة هويته ، لم يكن الحوار بين الرجلين ذا طبيعة محققة ، بل كان نقاشا طويلا هدفه التعرف على أفكار الضابط الاسرائيلى السجين ، كما كان بمثابة مضيعة مفيدة للوقت ، الى أن تنتهى المخابرات المصرية من استعدادتها لنقله الى القاهرة ·

وفيما كان الفهد ينقل قدميه في شوارع صنعاء ، كان « جاستون زين » قائد العملية على الجانب الاسرائيلى ، يستند بمرفق الى مائدة منزوية في بار هيلتون ، في أديس بابا وكان ينتظر على أحر من الجمر ، أنباء جماعة الكوماندوز التى أوفدها الى صنعاء ، والتى كانت أوامره لها تتلخص في البحث عن مقر « باروخ » ، واغتيال حراسه والعودة به ـ بأى شكل ـ سالما ، وكانت جماعة الكوماندوز قد اكتشفت

وجود اللاندروفر . ويبدو أن الاسرائيليين قرروا التخلص من الفهد . ثم بعد ذلك يمكن مهاجمة مقر « باروخ » .

وعلى مسافة ثلاثة أمتار من مائدة جاستون رين . كان رجل فارع الطول . نحيف الجسم كما لو كان يعانى من مجاعة خاصة . يتحدث الى فتاة اثيوبية سمراء ينسدل شعرها على كتفيها بنعومة غير مألوفة في افريقيا الجنوبية . ولم تلحظ الفتاة أبدا . أن محدثها الذى يزعم أنه منتج سينمائى من أمريكا اللاتينية . يختلس النظر الى المائدة القريبة . وعلى باب هيلتون . كانت عربة صغيرة « فولكس واجن » . مؤجره من مكتب لتأجير السيارات . تقف بأنفها المقوسة وكأنها نائمة في سبات عميق . وعلى عجلة القيادة . كان أحد المصريين يقرأ في جريدة اثيوبية . رغم أنه لا يعرف من اللغة الأمهرية سوى اسمها .

وعلى مسافة بعيدة من اديس ابابا . وبحذاء الشاطىء الافريقى . كان ضباط الغواصة ٦١٢ يتأهبون لتناول طعام العشاء . وكان القبطان في غرفة القيادة أمام خريطة ملاحية للقرن الأفريقى . وفي غرفة الماكينات سأل مهندس شاب زميله عن المسافة بين كيب تاون ونيويورك . ولما أجابه بأن المسافة ستة آلاف وثمانمائة ميلا بحريا . قطب جبينه وقال أنه يتمنى أن يذهب في رحلة سياحية الى الولايات المتحدة الأمريكية .

وفي السادسة وخمسين دقيقة . أمر القبطان بأن تنحرف الغواصة عشرين درجة في اتجاه الشرق . وكانت خطته أن يدور حول جزيرة مدغشقر حتى يتجنب المرور في بوغاز موزمبيق . وفي نفس الوقت ابطأت الغواصة وأشارت عدادات السرعة الى انها تسير بسرعة اثنى عشر عقدة في الساعة . وعلى شاشة الرادار . ظهرت وحدة بحرية ضخمة على مسافة ميلين في اتجاه الشمال الغربى . ويبدو أن هذه الوحدة كانت في طريقها الى البوغاز .

وعندما اشرفت الساعة على السابعة والربع ، غادر جاستون رين بار هيلتون وهو بادى الاكتئاب وفي نفس الوقت قالت الحسناء الاثيوبية للمنتج السينمائى النحيل أنها تود أن تأكل شيئا ، ولدهشتها الشديدة ، اعتذر مضيفها بأدب وزعم أنه تذكر موعدا عاجلا ، وبينما كان يغادر المكان وهو يتأبط ذراعها ، ضغط على جيب سترته الأيمن وكأنه يستوثق من وجود علبة لفائقه ، وعلى الفور انبعث أزيز متقطع في « الفولكس فاجن » ، ولاحظ السائق أن الضوء المنبعث من واجهة الهيلتون لا يكفى لكى يستمتع بقراءة الجريدة ، وما أن نحاها جانبا حتى ظهر « جاستون رين على باب الفندق وأشار لعربة التاكسى التى تقف في مقدمة عربات الانتظار ٠ وفيما كانت عربة التاكسى المقلة لضابط المخابرات الاسرائيلى ، في اديس ابابا ، تنطلق بسرعة صوب السفارة الاسرائيلية ، كانت الفولكس هى الأخرى تتابعها من بعيد ، وعندما هبط « جاستون رين » أمام السفارة ، لم يلاحظ ان شابا أسمر البشرة ، يرتدى زى عمال اصلاح السيارات يتسكع على الجانب الاخر من الشارع ، وكان منتج السينما المزيف ، وسائق الفولكس ، والميكانيكى المتعطل ، هم أهم ثلاثة أشخاص في جماعة العمل التى أوفدتها المخابرات المصرية الى أديس ابابا ٠

وفي صنعاء ، وبينما الفهد يتبادل احاديثه المتعة مع « باروخ » ، كان رجلان آخران يتبادلان حديثا بالغ الخطورة ، فقد استدعى القاضى عبد الرحمن الايريانى ، وزير داخليته ، وأبلغه أن الرئيس السادات قد اتصل به ، طالبا تسليم « الجاسوس » الاسرائيلى بسرعة الى مصر ، وفي هذه المقابلة ، قال على سيف الخولانى ، وزير داخلية اليمن ، أنه لا يمانع في تسليم « باروخ » ، ولكن بشرط أن يحاكم أولا في صنعاء ٠

وفي مبنى رئاسة اركان الجيش اليمنى ، كان ضابط شاب برتبة عقيد ، متوسط الطول متين البنية ذا عينين لا معتين تنمان عن خط هائل من الذكاء ، يناقش لأول مرة قضية « جاسوس » الحديدة ، وكان حادث اطلاق النار على عربة الفهد قد شد انتباهه بشكل جدى ، ولم يكن هذا الضابط الشاب ، سوى نائب قائد جيش اليمن ، الذى أصبح فيما بعد ، رئيس مجلس قيادة الثورة ابراهيم الحمدى .

وكان رأى الرئيس الحمدى أن الاحتفاظ بالجاسوس لن يفيد اليمن في شيء ، ورغم ما في محاكمته في صنعاء من مكاسب دعائية . الا أنه لم يوافق مطلقا على وجهة نظر وزير الداخلية ، ولأن « الحمدى » كان الرجل القوى في حكومة اليمن ، ازداد موقف أنصار تسليم الجاسوس لمصر ، في مواجهة المنادين بالاحتفاظ به ، قوة وبأسا شديدين .

وفي الساعة الثامنة والنصف من مساء نفس اليوم الجمعة ، أقدم « جاستون رين » على حماقة جديدة ، فقد أرسل رسالة بالشفرة ، عن طريق جهاز السفارة الاسرائيلية في أديس ابابا ، والتقطت أجهزة الاستماع في القاهرة ، ضمن برامج الأستماع العادية هذه الرسالة . ولدهشة الضباط الفنيين الشديدة ، اتضح أن ضابط المخابرات الاسرائيلى النابغة ، يستخدم نفس شفرة الخارجية الاسرائيلية ، ومن غير أن يكلف نفسه عناء اجراء أى تعديل عليها .

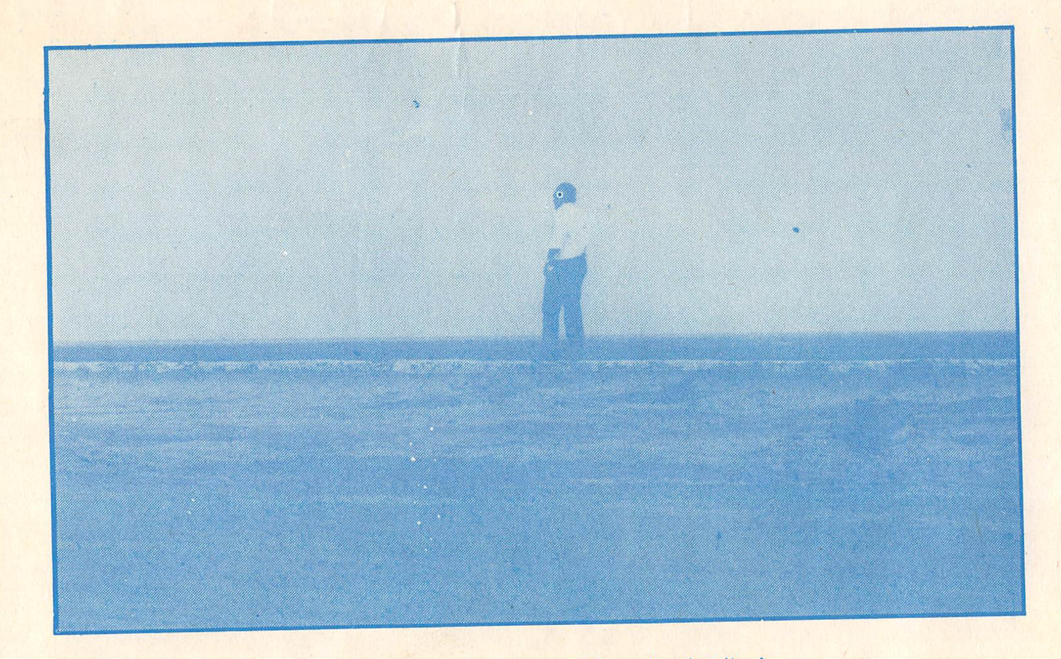
وبعد حل الشفرة ، عرض نص الرسالة على مدير منظمة مقاومة الجاسوسية ، وجاء هذا النص مطابقا لما لدى المدير من معلومات سابقة ، كما كان باعثا على الطمأنينة . فقد أفاد « رين » تل أبيب بأن جماعة من الكوماندوز الأولى التى أقلعت من الشاطىء الآثيوبى مساء الأربعاء ، والجماعة الثانية التى أبحرت عند منتصف الليل ، لم تفيدا بأى نبأ حتى الآن .

وكان معنى هذه الرسالة أن الكوماندوز الاسرائيليين . الذين أرسلوا الى اليمن ، كانوا يملكون وسيلة للاتصال بأديس ابابا . واستنتج المصريون أن هذه الوسيلة لا بد أن تكون المحامى الاثيوبى الذى لم يكف عن المطالبة بالافراج عن السجين . والذى كان يتصل بمكتبه في أديس ابابا بمعدل يكاد أن يكون يوميا عن طريق التليفون .

وعلى الفور ، أرسلت الى القاهرة برقية الى « الفهد » . تطلب منه فيها أن يتولى بنفسه مراقبة المحامى صالح عبد القادر كبير . وكان عليه أن يتابع كل من يتصل بهذا المحامى بشكل سرى ، وأن يتولى اخطار السلطات اليمنية لكى تتحقق من شخصيته . وبالفعل تمكنت اجهزة الأمن اليمنية ، من القبض على أحد اليهود اليمنين الذى أرشد عن مخبأ سبعة من زملائه . وصدر بيان فيما بعد ، صباح السبت التاسع والعشرين من يوليو . بأن ثمانية من اليمنين قد أعدموا . ولم يوضح البيان أية تفاصيل اضافية .

وقبل أن ينتصف ليل الجمعة ، حدث أمر لم تكن القاهرة تتوقعه في ذلك الوقت . فقد استدعت وزارة الداخلية اليمنية . السفير المصرى في صنعاء ، لمقابلة عاجلة مع الوزير . وفي هذه المقابلة . أعلن الوزير أن حكومته ، بعد أن بحثت قضية الجاسوس الاسرائيلى بحثا وافيا ، قررت تسليمه لمصر . ولهذا السبب ، فان حكومة اليمن سوف تسلم الجاسوس لأى مندوب يرى السفير تكليفه بهذه المهمة .

كان هذا القرار مثيرا للارتباك بقدر ما كان باعثا على البهجة ، فقد كان معنى تسليم مصر للجاسوس ، أن الحكومة اليمنية سوف تتخلى عن مهمة حراسته ، وعندما ابلغ الفهد بالقرار في منتصف الليل ، انتابه شعور من يسبح في بحر متلاطم وهو يحمل على ظهره غريقا ثقيل الوزن ،



من هذه النقطة بالضبط كان « باروخ » يلتقط صور الميناء

وهكذا ، جاء القرار الذى سعت من أجل صدوره السلطات في القاهرة ، لكل ما لديها من طاقة ، ليشكل عبئا مرهقا على الضابط المصرى الذى كان يخوض المعركة وحده في صنعاء ٠

وفي الساعة الثالثة صباح السبت ، الثانى والعشرين من يوليو ، تمت عملية تسليم « باروخ » بهدوء ودون أية مراسم رسمية ، وقد وقع ضابط المخابرات المصرى ، الذى زودته السفارة المصرية بوثيقة اعتماد ، على ايصال باستلام « الجاسوس » ، وبعد ذلك بنصف ساعة ، اقتاد الفهد أسيره الى اللاندروفر ، وفي هذه المرة ، اضطر الى اجراء غير ودى ، فقد أمره أن يستدير ثم قيد يديه وراء ظهره ٠

وتسببت هذه الرحلة المباغته ، في الظلام الدامس ، في اصابة الاسرائيلى بالهلع ، وكان المسكين يعتقد أنه ساق الى حيث يلقى نهايته المحتومة جزاء الشرور التى ارتكبها ، وعندما استقر في آخر المطاف في شقة الفهد الصغيرة عند باب اليمن طلب أن يشرب وقد جرع ثلاثة أكواب كبيرة من الماء المثلج ، وطبقا لقواعد المهنة ، لم يفصح له الفهد عن التطورات الجديدة التى طرأت على موقفه ٠

وفي الساعة الرابعة وعشرة دقائق كان « باروخ » يغط في نوم عميق ، بينما استرخى الفهد على مقعد من القماش في نفس الغرفة ، وكانت اللاندروفر في شارع جانبى ، على مسيرة خمسة دقائق من البيت ، وفي هذا الوقت كان ضابط الصف المختص بالارسال اللاسلكى في الغواصة رقم ٦١٢ يغالب النعاس وهو يراقب اجهزته ، وفتح الرجل عينيه على اتساعهما وهو لا يصدق نفسه ، فقد أضاءت في لوحة جهاز الطوارىء بقعة حمراء ، وأخذت ترسل وميضا متقطعا بينما انبعث أزيز حاد من مكبر الصوت ، وكان معنى هذا النشاط المفاجىء أن قيادة السلاح البحرى لديها رسالة عمليات ...

وفي الرابعة واربعة عشر دقيقة ، التقط جهاز الارسال نداء القاهرة . الذى كان يتردد بانتظام ، ولأن الغواصة ٦١٢ ، كانت تحمل الاسم الكودى « القرش » كان النداء اللاسلكى عبارة عن جملة مختصرة تتكون من ثلاث كلمات ، القاهرة تنادى القرش ..

وفي غضون سبع دقائق . كان ضابط الصف المذهول قد استقبل الرسالة كاملة ، وكان عليه أن يعرضها كما هى على القبطان الذى يحتفظ بمفتاح الشفرة . وعندما تسلل الرجل في جوف الغواصة ، وصعد الدرج المؤدى الى غرفة القيادة . كان القبطان يغط في النوم ..

استيقظ القبطان وهو بادى الضيق واخذ يفرك عينه ، ورمق ضابط الصف بنظرة حانقة ولكنه انتبه عندما لاحظ في يده الرسالة اللاسلكية ، وفيما كان ضابط الصف عائدا الى غرفة اللاسلكى ، دوى في أذنيه صوت أجهزة الانذار الذى يشبه صوت الحية ذات الجرس . وعلى الفور استيقظ جميع البحارة والضباط الذين كانوا في الراحة ووقف الجميع في حالة تأهب انتظارا للأوامر .

وهكذا . لحقت استعدادات المخابرات المصرية . بأخر مجموعة من المصريين . يمكن أن يخطر على البال أنهم سيكلفون بأى دور . في عملية باروخ ، وكانت بداية الاحداث بالنسبة لهم ، تلك البرقية المقتضبة التى تسلمتها الغواصة عند خط الأستواء : القاهرة تنادى القرش ....

الفصل السابع

« حوار الثعالب »

أصدر القبطان أوامره فأنفتحت على الفور ثمانية عيون على كلا جانبى الغواصة ، واندفعت الى البحر خمسمائة طن من المياه على شكل ستة عشر شلال لتطفو الغواصة نحو السطح . وكانت الأوامر تتوالى عبر الميكروفونات المثبتة في الأسقف ، لتدور الغواصة دورة كاملة ، ولتصل الى سرعتها القصوى ، سبعة عشر عقدة في الساعة ، فقد كانت برقية قيادة السلاح البحرى المصرى . تنص على أن يسرع القبطان بالعودة الى خليج عدن ، وان يواصل التقدم حتى ميناء الحديدة .

ان إلقاء الضوء على بعض ما يجرى ، في هذه الدنيا . في لحظة محددة ، كفيل بأن يولد في النفس شعوراً مروعا بضآلة أفق الإنسان العادى ، الإنسان البسيط المسالم الذى لا يرى من الحياة سوى القطاع الذى يحيا في بؤرته ، ففى تمام الساعة السابعة من صباح السبت الثانى والعشرين من يوليو وبينما كانت غواصة مصرية تشق الموج في اتجاه

جزيرة « سقطرى » . كان ضابط مخابرات بدين ينتظر في عدن ومعه عربة لاندروفر بيضاء لا يعرف وجهتها . وعلى الناحية الأخرى من البحر الأحمر ، كان ضابط مخابرات اسرائيلى يحلق ذقنه في الحمام الملحق بغرفته في فندق هيلتون أديس ابابا . وفي القاهرة كان ضابط مخابرات يشبه السنجاب . قابعا في صالة السفر بمطار القاهرة الدولى . قبل أن يقلع الى باريس . وفي باريس كانت فتاة جميلة وفاتنة . ترقد في شقة وردية أهدتها لها المخابرات الاسرائيلية . أما في صنعاء . فكان اثنان من ضباط المخابرات . أحدهما مصرى والآخر اسرائيلى . يتناولان افطارا خفيفا وسط جو من الألفة . في شقة صغيرة عند باب اليمن .

كان الاسرائيلى يزدرد طعامه ويرمق الفهد من آن لآخر بطرف عينه . وكان الرجلان قد قضيا معا اثنين وثلاثين يوما . واستمر الحوار بينهما متصلا لستة وعشرين يوما . وهذا الحوار يختلف عن جلسات التحقيق التى أسفرت في النهاية عن اعتراف الاسرائيلى بأنه ضابط من ضباط المخابرات . وليس لدى أى شك . في أن أجزاء كبيرة من هذا الحوار . لن تنشر تحت أية ظروف على الرأى العام .

واذا ما صرفنا النظر عن الأجزاء التى تتضمن معلومات مفرطة في السرية . فأننا نستطيع أن نتعرض بحرية كبيرة للنقاش السياسى والعسكرى بين الضابطين . وأعتقد أن هذا الحوار كان أول حوار يجرى بين مصر واسرائيل . اذا تجاوزنا عن الظروف الصعبة التى كان فيها ممثل اسرائيل وقت اجراء الحوار .

ورغم أن القلق الغامر كان يسيطر على الرجلين . الا أنهما حرصا على أن يقتربا من بعضهما الى أقصى حد ممكن . وقد كان الاسرائيلى يعتقد اعتقاداً راسخاً بأنه سيلقى نهاية محزنة على يد اليمنيين . وكان طوق النجاة الوحيد يتمثل أمام عينيه في شخصية الفهد . وكان الفهد قلقا أيما

قلق خوفا من أن يفلت الصيد الدسم من بين أصابعه .وعندما كانت الأمور تتعقد لأى سبب · كان يخفى الحقيقة عن « باروخ » . وفي بعض الأحيان . وعندما كان التجهم يبدوا واضحا على ملامحه . كان « باروخ » يطيب خاطره بمودة صادقة . ويتحدث عن متاعب « المهنة » . دون أن يتجاسر على توجيه أية اسئلة ·

وليس غريبا . أن أيام « باروخ » الأخيرة في صنعاء . شهدت أطول جلسات للحوار كما كانت أكثرها ثراء . فعندما وجد الرجلان أنهما مجبران على البقاء معا في شقة « باب اليمن » الصغيرة . اضطرا الى أن يتعايش معا دون اثارة أية متاعب . وكان الفهد كريما الى حد لا يصدق مع غريمه . فقد سمح له أن يتحرك بحرية . وأشركه في اعداد الطعام . وقد حدث ذات ليلة ان ارتفعت حرارة « باروخ » بشكل خطر . فقام الفهد برعايته على خير وجه . وسهر بجوار عدوه المريض حتى مشرق الشمس ·

ومن المؤكد . ان ضابط المخابرات المصرى . استخدم في استدراج زميله الاسرائيلى . ثلاثة أوتار عزف عليها ببراعة فائقة . اذ استغل عقدة « باروخ » التى أورثتها له الصدمة النفسية التى تخلفت عن تجربة الرفض . تلك التجربة القاسية التى ذاق مرارتها مع « فورتينيه » . كما أذكى في نفس غريمه الشعور بالهوان بوصفه واحدا من يهود الشرق . وفي النهاية . دفعه الى أن يفتح له قلبه . كنتيجة حتمية للمعاملة الإنسانية المبنية على الاحترام التى أسرت الأسير بصورة مذهلة ·

كانت بداية الحوار بين الضابطين . بعد أن انتهى استجواب « باروخ » يوم السبت الثامن من يوليو . على أثر ملاحظة أبداها « باروخ » عن جدوى الصراع بين مصر واسرائيل وبعد ذلك استطرد الى القول « بأن أى ثمن في مقابل السلام » لن يكون مبالغا فيه واشار الى

أنه يفضل لو سمحت له الظروف بالبقاء الى جوار زوجته الحامل، وولديه، .وأضاف أنه واثق من أنه « السيد » ـ وهذا هو الأسم الذى ظل ينادى به الفهد ـ لديه في القاهرة ما هو أمتع من مواصلة القتال، خصوصا وان هذا القتال، لن يجد نصيبه من الاطراء العلنى ·

وقال ضابط المخابرات المصرى، أنه يفضل هو الآخر دون أدنى قدر من الجدال الحياة الهادئة بعيداً عن متاعب الحرب « سواء كانت علنية أو سرية » ولكنه أضاف أن المفاضلة بين السلام والحرب قائمة على مغالطة مفرطة في السذاجة فلابد من القضاء أولا على مسببات العداء وبعد ذلك لن يكون أى من الجانبين في حاجة الى مجرد اقناع الطرف الآخر، بالفوائد الكامنة في السلام ·

وعلى الفور أجاب « باروخ » بأنه يقتنع تماما بمنطق محدثه الا أنه هناك حقيقة يجب أن توضع في الاعتبار، وتتلخص تلك الحقيقة في أن الشعوب هى التى تدفع وتتحمل أعباء الحرب بينما القدرة على ازالة مسببات العداء مقصورة على الصفوة الحاكمة سواء في مصر أو اسرائيل « وأنه يرى » استناداً الى تلك الحقيقة ان خطوات السلام الأولى لابد وأن تترك انطباعا لدى أى طرف من الطرفين بأنه قدم تنازلات جوهرية وعلق ضابط المخابرات المصرى « بأن هذا القول ينطبق على اسرائيل وحدها » أما في مصر فان الأمور تتخذ وضعاً عكسياً، اذ ان الصفوة الحاكمة، تجد نفسها مضطرة في أحيان كثيرة الى التشدد تحت ضغط الرأى العام وحتى عندما تكون الحسابات المجردة في صالح المرونة السياسية · وينطبق ذلك على كل الدول العربية وبرر الشعور بالكراهية الذى يسود الشعوب العربية تجاه اسرائيل، بأنه وليد الشعور بالظلم من ناحية · ومن ناحية أخرى بسبب الاعتقاد بان دعاوى السلام ليست صادقة ·

وقال ضابط المخابرات الاسرائيلي « ان الجانبين تقاتلا بالاسلحة البيضاء سنة ١٩٤٨ » وفي سنة ١٩٥٦ استخدم السلاح الجوى والدبابات، وفي سنة ١٩٦٧ تطورت الاسلحة تطوراً مخيفاً. وتساءل عما اذا كان من المفيد ان ننتظر الى ان يتقاتل الطرفان بالاسلحة النووية وأجاب ضابط المخابرات المصرى. بأن ذلك لا يشكل أى تهديد للشعب العربى « لاننا لن نكون الطرف الذى سيفنى في هذه الحالة » وأضاف ان مأساة اسرائيل تكمن في أنها لم تتحمس لدعوى السلام الا عندما فشلت في تحقيق أهدافها عن طريق الحرب.

وقال الاسرائيلى أنه يتعجب للموقف المصرى المغرق في المثالية وسأل عما اذا كان في الإمكان تحمل النتائج التى تنجم عن تحالف مصر واسرائيل في منطقة غنية بشكل خرافى وأجاب المصرى بأن المشكلة تنحصر في اختلاف نظرة الجانبين الى الأمور ومرد ذلك الى طبيعة الشخصية اليهودية التى تختلف اختلافاً بيناً عن الشخصية المصرية، وأضاف ان الاسرائيلى يشعر بالقلق ويتوجس خيفة من المستقبل رغم أنه انتصر في ثلاث حروب وسأل، هل تعتقد ان شعبا تعانى غالبيته العظمى من الأحساس بالتخلف، ازاء اقلية وفدت من الغرب، يمكن أن يقيم علاقات متزنة مع جيرانه.

وأقر باروخ بأن يهود الشرق يلاقون معاملة من الدرجة الثانية بالفعل، ولكنه قال ان هذه التفرقة سوف تذوب بمرور الوقت، عندما يصبح كل الاسرائيليين « سابرا »، وعندما يصبح الوطن الأصلى مجرد ذكرى تحتفظ بها الأسرة. وقال ان العرب ينظرون الى اسرائيل كما لو كانت كلها بن جوريون وشاريت، مع ان جيلا فتيا قد حل محل « الحرس القديم » ولدى هذا الجيل مفاهيم تختلف تماما عن المفاهيم التى كانت سائدة وقت حرب سنة ١٩٤٨.

وقال « الفهد » ان الجيل الذى خلف « الحرس القديم » يضمر العداء للعرب ربما أكثر من القدامى « الست تقصد دايان واللون وبيريز . يجب ان يختفى هؤلاء أولا من فوق المسرح ويجب أن يتصرف من يأتى بعدهم بشكل مغاير . لقد تبنوا نظرية تهدف الى ابادة الشعب الفلسطينى » لكى يقفوا ويصرخوا في وجه العالم . اذا كان علينا ان نعيد الأراضى ، فلمن نفيدها ؟! وعلى من يحل محلهم ان يعى سقوط هذه النظرية ، وان يكون على استعداد للتعايش مع الفلسطينيين داخل الدولة . ومع العرب في المنطقة كلها ·

وقال « باروخ » أنه يقصد الجيل الجديد في الشارع قبل الحكومة . وان الشبان والشابات في الكيبوتز وفي المستوطنة وعلى الجدود يريدون ان يعيشوا في سلام · يريدون ان يتزوجوا كما فعلنا نحن . اننى اعتقد أنك متزوج ايها السيد . ان مسقبل هؤلاء بما فيهم ولدى يبدو كئيبا ·

وقال « الفهد » أن اغرب تناقض يكمن في مثل هذا القول · فأنتم الذين بدأتم بصرف النظر عن مدى عدالة مطلبكم في اقامة الدولة . شىء منفر ان تبدأ بالقدوم الى المنطقة ليس بدعاوى السلام كما تفعلون الآن . ولكن بعصابات منظمة لقد انتصرتم ومع ذلك تتشككون في المستقبل . هل تعرف معنى ذلك ؟ معناه ان الانتصار لم يكن محصلة قدراتكم وحدكم . ثم انكم جلبتم الاستقطاب الى هذه المنطقة ·

وقال « باروخ » ان اسرائيل بطبيعتها ليست من انصار الاستقطاب . وأنها وجدت نتيجة جهود الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة معا . اننا نختلف عن مصر ايها السيد فنحن في حاجة الى الولايات المتحدة من أجل السلاح والمال . هناك سندات لليهود الامريكيين ايضا · ونحن في حاجة الى الاتحاد السوفيتى لان المخزون البشرى فيه هو امل اسرائيل . ان أكبر جاليتين يهوديتين تعيشان في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى .

وهؤلاء الذين استقروا في الولايات المتحدة لن يهاجروا ابدا الى اسرائيل . هناك يتمتعون بمستوى لا نستطيع ان نحققه لهم . ولا يبقى لنا سوى الذين يعيشون في الدول الاشتراكية .

وقال ضابط المخابرات المصرى . أليست الشخصية اليهودية بطبيعتها التى تتميز بانعدام التراث الحضارى . والانتهازية الشديدة . هى المسئولة عن ان اسرائيل منحازة الآن للولايات المتحدة . دعنا ننظر الى القادة في اسرائيل لنكتشف هويتهم الاصلية . بن جوريون وهوروتيز وشابيرا ولافون وسابير وجاليلى وبيريز جاءوا من بولندا . كابلان وشاريت واشكول ومائير وآران جاءوا من روسيا . حتى الذين ولدوا في اسرائيل معظمهم من أصل روسى . ايجال آللون جاء أبوه رويفين بيكوفيتش من روسيا . ودايان جاء أبوه شموائيل دايان من روسيا أيضا .....

وقال « باروخ » مقاطعا . أنه لم يكن يعتقد ان شيمون بيريز بولندى . بل كان يظنه مسابرا . فهو يتحدث العبرية بطلاقة كما أنه نجح في اقامة علاقات وثيقة مع فرنسا .

وقال الفهد ان بيريز ولد في بلدة « فولوزن » بروسيا البيضاء سنة ١٩٢٣ وأن اجادته العبرية ترجع إلى ألف أسرة يهودية كانت تعيش في مسقط رأسه وكانت تتحدث العبرية كما أنه وصل الى اسرائيل في سن مبكر اذ كان في العاشرة من عمره .

وابدى « باروخ » دهشته لان أحد المصريين يعرف مثل هذه التفاصيل عن حياة رجل من الصف الثانى في اسرائيل . وبعد ذلك قال ان اسرائيل كانت تخنقها ازمة اقتصادية سنة ١٩٥٠ فطلبت عون أصدقائها السوفييت . ولكنهم تباطؤوا ثم رفضوا في النهاية . كان موقفهم مثيرا للفزع فقد امدونا بالاسلحة التى مكنتنا من النصر في حرب سنة ١٩٤٨ . وكانت نواة سلاحنا الجوى من تشيكوسلوفاكيا ومع ذلك رفضوا ان

ينقذونا وقت الشدة . ولذلك اتجهنا الى الولايات المتحدة وفيما بعد تمكن بيريز من تغيير موقف الفرنسيين . ان فرنسا اتخذت موقفا غير ودى أثناء مناقشات سنة ١٩٤٧ في الأمم المتحدة . ومع ذلك . نجح بيريز في أن يحصل على السلاح الفرنسى لمدة اثنتى عشر سنة . ومن المؤسف ان ديجول عاد الى معاداة اسرائيل سنة ١٩٦٧ .

وقال ضابط المخابرات المصرى ان الاعتماد على الولايات المتحدة مرهون بمصالح الولايات المتحدة نفسها . « لقد كنتم الورقة الرابحة عندما كان المد الشيوعى يزحف في آسيا . ولكننا نعتقد أن الموقف سوف يتغير بحدة . فقد وصل الشيوعيون الى نوع من التوازن في آسيا وهذه القارة محصورة بين الصين والاتحاد السوفيتى . بالإضافة الى ثورة اللاعنف التى قادتها الهند ولاشك أن قارات العالم معروفة لى ولك . فما هو ميدان نشاطهم المقبل ؟! لقد وصلوا الى نوع من التوازن ايضا في أوربا وجربوا الاقتراب من امريكا اللاتينية ولكن الأمريكيين واجهوا الموقف بشى من التهور . لم يبق أمامهم سوى أفريقيا . وعندما يبدأ الزحف الشيوعى على أفريقيا لن تكون اسرائيل ـ باى حال ـ هى الورقة الرابحة !! » .

وعلق « باروخ » بأنه يوافق تماما على هذا التحليل . مع ما يحمله في طياته من تنبؤ بالمستقبل . وفي نفس الوقت كشف سرا كان طى الكتمان فقد اضاف ان المخابرات الاسرائيلية . أجرت بحثا مستفيضا عن التغيرات المحتملة في المنطقة بمجرد ان تولى السادات زمام الأمور في مصر وان هذا البحث اسفر عن الاقتناع بان السادات سوف يشن حربا شرسة ضد اسرائيل وان هذا الاقتناع بنى على دراسة شخصية السادات منذ أن كان ضابطا في الجيش . ولكنه أضاف ان تقدير الباحثين يؤكد ان مصر لن تستطيع الهجوم قبل عشر سنوات . وتساءل « باروخ » اننا نخشى ـ

بل اننا نرتجف ـ من مجرد التفكير في تصور الموقف لو ان مصر . وهى أقوى دولة عربية عسكريا تحالفت مع السعودية صاحبة أقوى مركز بترولى ليس في العالم العربى فقط بل في العالم كله أيضا ·

ويسأل ضابط المخابرات المصرى هل تعتقد ان اسرائيل تستطيع تحمل هزيمة عسكرية ؟! وأجاب « باروخ » بأن اسرائيل تستطيع تحمل الهزيمة اذا وقفت معها دولة كبرى لقد وجدنا من العدم وبإمكانهم ان يعيدوا الدولة الى الوجود مهما كان حجم الهزيمة · وعلق الفهد على هذه الإجابة بأنها أشبه بأحلام اليقظة ان الهزيمة الأولى لن تكون سوى مقدمة . ألم تقرأ ما كتبه أنبياؤكم ـ أقصد زعماءكم الذين يدعون أنهم ملهمون ـ لقد أكدوا جميعا ان نهاية اسرائيل تكمن في أول انتصار محدود يحرزه العرب ·

وسأل « باروخ » عن حجم اطلاع « السيد » على ما يكتبه القادة في اسرائيل . واجاب ضابط المخابرات المصرى ـ في محاولة لابهار خصمه على ما اعتقد ـ بأنه قرأ كتابين لليفى اشكول أحدهما بعنوان « على الطريق » والآخر بعنوان « آلام الاستيطان » وقرأ لهوروتيز كتاب « اقتصاديات اسرائيل » وقرأ لشاريف كتاب « أيام ثلاثة » الذى يعد بمثابة تقرير مفصل عن المرحلة السابقة لاعلان الاستقلال . وقرأ لديان « يوميات سيناء » و« الخريطة الجديدة » و« علاقات أخرى » وقرأ لايبان كتاب صوت اسرائيل وكتاب « تيار القومية ثم شعبى : قصة اليهود » . وقرأ ليادين كتاب « الماسادا بين الماضى والحاضر » . وقرأ لآللون « ستار من الرمال » و« درع داوود » وقرأ لبيريز كتاب « المرحلة القادمة » ·

وقال « باروخ » ان اعجابه لاحد له لسعة اطلاع « السيد » . وسأل عن الشخصية التى تركت كتاباتها اثرا طيبا في نفسه . واجاب الفهد

بأنهم جميعا متساويين من حيث النظرة العنصرية والتعصب والعداء السافر للعرب . ثم سأل اذا حدث وحلت الهزيمة باسرائيل فمن الذى سيقفز الى السلطة ؟!

وأجاب « باروخ » ان هزيمة واحدة لا تكفى للاطاحة بمائير أو دايان . الا اذا دخل الجيش المصرى تل أبيب . واشار الى ان عبد الناصر هزم مرتين في سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ ومع ذلك بقى على رأس الدولة . وقال الفهد أنه يعتقد ان بيريز اورابين لابد لن يخلفا دايان ومائير . ان بيريز هو أقرب الاسرائيليين الى دايان كما أنهما أصدقاء . ومع ذلك فان دايان اختار زفى تسور بدلا من بيريز عندما تقلد وزارة الدفاع أما رابين فتربطه أوثق العرى بالولايات المتحدة . لذلك سيكون منطقيا ان يجىء به الاسرائيليون الى السلطة . ولكن المشكلة أننا لا نثق في الاثنين .

والتقط ضابطا المخابرات الاسرائيلى الخيط وسأل باقتضاب : بمن تثقون اذن ؟!!

وأجاب ضابط المخابرات المصرى وهو يبتسم : بالطرف الذى سييأس من الحرب .

وقال « باروخ » أنه يعتقد ان أى حرب قادمة ستسفر عن آلام اشد قسوة من أية آلام سابقة وأضاف أنه يعتقد ان اسلوب السادات يختلف اختلافا جوهريا عن اسلوب عبد الناصر . لأنه من النوع الذى يقاتل بعد ان يتأكد من ان ذيل عدوه في فمه !

وسأل الفهد باندهاش عن معنى عبارة « باروخ » الأخيرة فأجابه بأن شخصية السادات وقدرته الفائقة على المناورة . ستفرض على اسرائيل مشقة التنبؤ بخطوته المقبلة « لقد اغلق عبد الناصر خليج العقبة سنة

١٩٦٧ ووضع جيشه كله في الصحراء . ولكن السادات سيتصرف بأسلوب مغاير » .

وقال ضابط المخابرات المصرى . ان اغلاق خليج العقبة جاء في اعقاب الحشود الاسرائيلية على الحدود السورية وعلق « باروخ » بأن الاتحاد السوفيتى هو الذى جر عبد الناصر الى معركة خاسرة !! وكشف سرا جديدا عندما قال ان ايجال آللون زار موسكو قبل حرب سنة ١٩٦٧ وبقى هناك الى ان التقى بكوسيجين . وانه عاد من موسكو في اول يونيو وذهب مباشرة الى فندق الملك داوود . وهناك التقى بأشكول . وأبلغه بضرورة شن الحرب !!

وقال « باروخ » أنه يعتقد ان الاتحاد السوفيتى كان يأمل في هزيمة عبد الناصر ـ ليربط مصر بعجلة السياسة السوفيتية من ناحية . وليقضى على أى أمل في الوحدة العربية من ناحية أخرى وسأل عما اذا كان « السيد » قد قرأ لينين ثم استطرد لقد قال لينين ان الشيوعين عندما يصبحون قوة فان أى نزاع محلى ينشب بين دولتين صغيرتين سوف يؤدى الى ان تلجأ الأمة المقهورة الى الشيوعيين طلبا للمساعدة وان على الشيوعيين ألا يناصروا الأمة المقهورة ضد الأمة القاهرة . لان النزاع بين الدولتين ليس سوى نزاع بين البرجوازية في كل منهما على الأسواق ويجب ان يكون واجب الشيوعيين ان ينصروا « البروليتاريا » في الدولتين . لتستولى على السلطة من يد البورجوازية الحاكمة !!

وقال « باروخ » أنه سمع القصص التى ترددت بعد الحرب والتى تدور كلها حول ان الاتحاد السوفيتى ارتضى هزيمة مصر في مقابل الحصول على صور التقدم الذرى وصناعة الصواريخ الصينية وقال الفهد ان من الصعب تصور شكل الحرب القادمة بين مصر واسرائيل فرد « باروخ » بأنه يعتقد ان السادات سوف يعمل على زيادة قواته الجوية

بأى ثمن . وان هذه الزيادة ستقترن بزيادة مماثلة في حجم قواته الخاصة . ولأنه يملك سلاحا بحريا متفوقا . فان من المتوقع ان يهاجم ساحل سيناء الشمالى بعد ان يلقى وراء خط التحصينات الاسرائيلى بأكبر عدد من قوات المظلات .

وسأله الفهد عما اذا كان هذا التصور وليد الاستنتاج الشخصى . أو نتيجة لفكرة تعتنقها المخابرات الاسرائيلية فأجاب « باروخ » : الأثنين معا .

وسئل « باروخ » عما اذا كان يعتقد بأن مواقف الدول الكبرى ستتغير في حالة نشوب حرب جديدة . فأجاب بأنه يتوقع مثل هذا التغيير لأن السادات تربطه صداقات حميمة بفرنسا وألمانيا وهو محبوب في أفريقيا . وقد تمكن من اقامة روابط وثيقة مع الدول العربية ذات التأثير . وليس بمقدور أى من الدول الكبرى . سواء الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفيتى أو الصين ان يتجاهلوا زعيما له مثل هذا الوزن . وفي نفس الوقت . فان التشدد الاسرائيلى ونغمة احتضان العالم التى بدأت تتردد بشكل علنى لابد وان تسفر عن فتور في حماس أصدقائنا التقليديين .

وقال « باروخ » ان المشكلة الوحيدة التى تبعث الأمل في قلوب الاسرائيليين . والتى تواجه السادات بحده . هى مشكلة الأسلحة « لأن الاتحاد السوفيتى ينظر اليه بارتياب . كما أن الغرب لن يقدم له الأسلحة ليبيد اسرائيل » . وعن علاقة الولايات المتحدة باسرائيل قال « باروخ » أنها كانت مثبطة للآمال في الاربعينات . ولكن الرئيس ترومان بدأ في التحول تحت ضغط أحد اصدقائه اليهود .

قال الفهد مقاطعا : أيدى جاكبسون ــ لقد كان زميلا سابقا لترومان من كنساس سيتى وقد ألح عليه ان يلتقى بوايزمان وعندما اجتمعا في

ربيع سنة ١٩٤٨ تمكن وايزمان من اقناع ترومان باقامة الدولة اليهودية ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت جماعات الضغط اليهودية تعمل في الولايات المتحدة لعرقلة سياسة وزارة الخارجية الامريكية الموالية للعرب ٠ وقد حصلت على أول قرض من الولايات المتحدة سنة ١٩٤٩ وكان مائة مليون دولار . وفي يناير سنة ١٩٥١ حصلنا على قرض قيمته ٣٥ مليون دولار ٠ وفي يونيو سنة ١٩٥١ ويونيو ١٩٥٢ حصلنا على منحتين الأولى قيمتها ٦٣,٥ مليون دولار والثانية ٧٠ مليون دولار ٠ وقال « باروخ » ان الجهود الاسرائيلية لم تنجح رغم مساندة اليهود الامريكيين في الحصول على الاسلحة طوال الخمسينات من الولايات المتحدة ٠ كما فشلت كل الضغوط التى بذلك لتستخدم الولايات المتحدة نفوذها لضمان حرية مرور السفن الاسرائيلية في قناة السويس ٠

وقال « باروخ » ان الضغط اليهودى يتخذ شكل احتجاجات واجتماعات ومظاهرات وبيانات في الصحف الكبرى . وبالإضافة الى رسائل الى أعضاء الكونجرس ٠ كما أننا نحرص على وضع البيت الأبيض تحت أعنف تيار ممكن من الدعاية !

واعترف « باروخ » بأن التأثير اليهودى قد تقلص بشكل فعال في ظل حكومة نيكسون . وقال ان المظاهرات الضخمة التى قامت بها المنظمات الصيهونية في امريكا أثناء زيارة ديجول سنة ١٩٧٠ لم تمنع الرئيس نيكسون من اتخاذ قرار بارجاء صفقة طائرات كانت اسرائيل تلح من أجل عقدها ٠

وقال « باروخ » ان نيكسون سلم البيان الخاص بارجاء الصفقة الى « ماكس فيش » احد الدعاة الاقوياء لصالح اسرائيل . وطلب منه ان يشرح الأسباب التى حدت به ـ أى نيكسون ـ الى اتخاذ هذا القرار للاصدقاء الاسرائيليين وتساءل « باروخ » عن العواقب الوخيمة التى قد

تنجم عن تحول سياسة الولايات المتحدة لأى سبب . وقال ان اسرائيل سوف تجد نفسها في موقف لا تحسد عليه . وردد ضابط المخابرات الإسرائيلى قوله موشى دايان الشهيرة : « ان مفتاح الحرب في يد الاتحاد السوفيتى . أما مفتاح السلام ففى يد الولايات المتحدة الامريكية !

وسئل « باروخ » سؤالا مباشرا عما اذا كان قد زار جبهة القناة فأجاب بالإيجاب . وقال أن مشكلة اسرائيل الرئيسية تكمن في خط بارليف لقد تحولنا من الهجوم الى الدفاع الثابت . ورغم أننا نثق ثقة كاملة في قوة تحصيناتنا الا أننا نعتقد ان من المستحيل مواجهة المصريين في مواقع ثابتة . واذا نشبت الحرب من جديد فلا بد ان نهاجم بقوة .

وفي اجابته على سؤال مباشر عن الحالة المعنوية لجنود الجيش الاسرائيلى في تحصينات سيناء قال « باروخ » : أنك لا تستطيع أن تأمر الجيش بالبقاء الى الابد على حافة الصحراء . كما ان وضع هذه الصحراء متميع للغاية . فنحن لا نستطيع أن نقول لهم هذه ارضكم . وفي نفس الوقت لا نستطيع التقليل من أهميتها . لذلك تنحصر جهود الجيش من الناحية السيكلوجية في مطالبة الجنود بالدفاع بقوة عن مواقعهم .

وفي فقرات الحوار التى تناولت شخص « باروخ » قال أنه يتوقع أن تجرى محاكمته في اليمن وان كان يعتقد أنكم سوف تعملون على نقلى الى القاهرة فهناك يمكن المساومة بى . كما ان استجوابى سوف يكون مفيداً .

وقال « باروخ » ان المخابرات الاسرائيلية سوف تسلك كل السبل لاطلاق سراحه أما اذا فشلت . فأنه يتوقع أن تلجأ الى المساومة . وسأله الفهد : الا تتوقع أن يحاولوا التخلص منك ؟! وأجاب بأن ذلك ليس

مستبعدا وان كان مجرد احتمال خصوصا وأنهم لا يعرفون اين هو بالتحديد ٠

وأبدى « باروخ » في مواضع عدة أسفه البالغ لأنه سقط على أيدى اليمنيين ، وأضاف أن حادثته تحمل في طياتها دلالة بالغة الخطورة على صدق النظرية التى تقول ان العرب سوف تتوفر لهم المعرفة وان تفوقهم البشرى سوف يكون في هذه الحالة كفيلا بالقضاء على اسرائيل ٠
وأثناء جلسات الحوار أفصح « باروخ » عن قلقه البالغ على أسرته ، وكان ملهوفا على معرفة أنباء زوجته الحامل ، وفي بعض المواضع توضح فقرات الحوار أنه كان على استعداد لأن يقدم أى مقابل في سبيل السماح له بأرسال خطاب لزوجته ٠

وفي الأيام الثلاثة التى مرض فيها « باروخ » وارتفعت حرارته بشكل ملحوظ ، كان الحوار كله حول متاعب المهنة ، وحجم التعويضات التى تدفعها المخابرات الاسرائيلية في مثل هذه الحالات ، وبمجرد تماثله للشفاء عاد الحوار بين الرجلين من جديد ، وتكشف يوميات الفهد عن تدفق مثير في معلومات « باروخ » ٠

وكانت أهم فقرة في هذه المعلومات خاصة بمهمة « باروخ » الحقيقة في اليمن ، وقد نفى بشدة أن تكون المخابرات الاسرائيلية قد أوفدته الى اليمن لمجرد القيام بعمل تافه يستطيع أى عميل أن يقوم به ، وبعد مزيد من الحوار اعترف بأنه زار الجزر التى تقع عند مدخل البحر الأحمر ، وسأل الفهد ضابط المخابرات الاسرائيلى الذى كان منهارا بشكل لا يوصف عن فائدة جمع المعلومات عن مثل هذه الجزر ، فأجاب بأن المخابرات الاسرائيلية تعتقد ان المصريين سوف يغلقون خليج العقبة

من أبعد نقطة في البحر الأحمر عند باب المندب في حالة نشوب حرب جديدة .

وكان هذا أول اعتراف صريح من باروخ بأهمية باب المندب . وفي نفس الوقت . كان هذا هو آخر جزء من أجزاء الحوار الذى دار بين الرجلين طوال المدة التى قضياها في اليمن معا . فالذى حدث بعد ذلك ان السنجاب ضابط مقاومة الجاسوسية العتيد . ظهر فجأة في صنعاء .

« الفصل الثامن »

« السنجاب يقفز فوق المسرح »

كان وصول السنجاب الى صنعاء . بمثابة مفاجأة مذهلة . لكل الأطراف بلا أى استثناء . فمنذ أن حصل ذلك الضابط المتمرس على موافقة المشير أحمد اسماعيل . بأن يتوجه الى اليمن . وضباط رئاسة المخابرات والرؤساء في منظمة مقاومة الجاسوسية . يتوقعون أن يعود السنجاب من باريس . يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من يوليو . ثم يقلع بعد ذلك نحو الجنوب .

ولكن ما أقدم عليه السنجاب كان عملا فريدا بكل المقاييس . فقد تصرف الرجل وفق تقديره الشخصى . ودون أن يرجع الى رئاسته . ومن وجهة نظره . كانت « حالة » باريس لا تستحق أى تعجل. لذلك اكتفى بقضاء ساعة واحدة في العاصمة الفرنسية . ثم استقل الطائرة في رحلة طويلة . مرورا بلندن . الى أن هبط في صنعاء .

كانت الساعة تقترب من العاشرة مساء الأحد الثالث والعشرين من يوليو . عندما طرق السنجاب باب الشقة التى كان يقيم فيها ضابط

المخابرات المصرى . ومعه أسيره . في حى باب اليمن . وكان الانسان الوحيد في هذا العالم . الذى يعرف الطريق الى هذه الشقة . هو الدبلوماسى المصرى الذى كان همزة الوصل بين الفهد والسفارة المصرية في صنعاء . ولم يكن الفهد يتوقع صديقه في ذلك الوقت . لذلك أمر « باروخ » بأن يختفى في المطبخ . ثم فتح الباب ويده فوق مسدسه .

وأمام الباب . كان السنجاب يقف بوداعة . وهو يبتسم . وكانت ملامحه تنم عن توقع اندهاش تلميذه الذكى . وعلى الأرض . كانت ترقد « هاندباج » صغيرة هى كل ما جاء به معه من متاع . وتزاحمت كلمات الترحيب على شفتى الفهد وهو يدعو معلمه القديم الى الدخول .

كان السنجاب يرتدى فانلة رمادية فوق بنطلون أزرق . ورغم أنه تجاوز الخمسين . الإ أنه كان يبدو كشاب عائد لتوه من أحد الأندية الرياضية . وقد انحنى برشاقة وحمل حقيبته ثم دخل الى الصالة بخطوات تنم عن الثقة المفرطة بالنفس . وبنظرة خاطفة مسح المكان بعينه . ثم رمق مضيفة بنظرة تساؤل صامته .

وليس ثمة شك في أن الفهد كان يقطر سعادة وهو يستقبل السنجاب . فقد كان يعرف قبل أى مخلوق آخر مغزى قدومه الى صنعاء . وبينما كان السنجاب يلقى حقيبته فوق مائدة تتوسط الصالة . أشار الفهد بذقنه في اتجاه باب المطبخ . حيث كان يختفى ضابط المخابرات الاسرائيلي . وعلى الفور . أصدر السنجاب أمرا قصيرا . وبصوت هامس . لكى يحضر الفهد أسيره .

ومن المؤكد أن « باروخ » . كان أشد من الفهد احساسا بالدهشة . لظهور السنجاب فقد كانت هذه أول مرة . يسمح له فيها بأن يرى زائرا . ومنذ اللحظة الأولى للقاء . وتصرفات الضابط الاسرائيلى تكشف عن ادراكه . لحقيقة ان هذا الكهل . الاحمر الوجه الهادىء الملامح . ليس

سوى ضابط مخابرات لا يمكن تجاهل خطورته . ولعل هذا هو سبب ارتباكه في البداية . وان كان قد تمكن من أن يتمالك نفسه بسرعة . وأحنى رأسه بالتحية ٠

أجاب السنجاب بإيماءة خفيفة وازدادت ابتسامة اتساعا ٠ وسأل الأسير عن أحواله على سبيل المجاملة . ولأن المائدة لم يكن بجوارها سوى مقعدين . احتل هو أحدهما . فقد أمر « باروخ » أن يجلس على المقعد الخالى . وبقى الفهد واقفا !!

كان المشهد رهيبا بدرجة غير عادية . وقد شد « باروخ » نفسه بأدب جم فوق طرف مقعده . بينما كان السنجاب يفحصه بعينيه اللامعتين من وراء عدسات نظارته . أما الفهد فقد ظل جامدا للحظات ثم دخل الى غرفة وعاد بمقعد من الصاج . وجلس هو الآخر بين الرجلين ٠ ٠

ولأن « باروخ » كان يرتدى « بيجامة » واحدة . منذ أكثر من عشرة أيام . كما أن لحيته كانت نابته . سال السنجاب الفهد عن سبب عدم العناية بمظهر أسيره . وأجاب الفهد بأنه أمره منذ أن جاءا الى الشقة بأن يغسل ثيابه . وأنه غسلها بالفعل . ولكنها لم تجف بعد . أما ذقنه . فقد أعلن أنه يفضل تركها دون حلاقة . ولم يجد الفهد ضرورة لأن يجبره على شيء لا يروق له ٠

ـ لقد جئتك بأنباء سارة ٠

هكذا هتف السنجاب وهو ينزع نظارته من فوق عينيه . ورغم أن هذه العبارة كانت موجهه « لباروخ » . الا أنه لم يعلق بل أرسل بصره الى الفهد . فواصل السنجاب حديثه : ـ كانت زوجتك في « ايخيلوف » ٠

اخترقت كلمة « ايخيليوف » سمع « باروخ » فانتبه . ومرت ثوانى بدا عليه خلالها انطباعه يوحى بالأرتياب . ثم تقلصت سحنته كما لو أن

تيارا كهربيا سرى في جسده بقوة . بعد ذلك تدلت شفته السفلى ببلاهة وأسرع صوت تنفسة ثم سأل بصوت متحشرج :

- هل تعنى زجتى يا سيدى ؟!

- زوجة من اذن . نعم زوجتك .

- هل رأيتها يا سيدى ؟!

لم يكن من المقبول أن يوجه « باروخ » الأسئلة . لذلك أشاح السنجاب بوجهه ثم واصل الحديث . وعرف « الأسير » أن زوجته أجرت بعض التحاليل الطبية في مستشفى ايخيليوف وأن ولديه بصحة جيدة . وقال السنجاب أن الاطباء يتوقعون أن تلد « مارجريت » - زوجة « باروخ » - في الأيام الأولى من أغسطس .

كذلك ذكر السنجاب أن أخت « باروخ » وأخاه في حالة طيبة . وأن غيابه كل هذا الوقت قد آثار قلق الاسرة . ولكن المخابرات الاسرئيلية اتصلت بالاسرة وطمأنتهم . وكانت كلمات السنجاب تشكف عن الدقة الفائقة التى كانت أجهزة المعلومات تقدم بها المعلومات الخاصة بأقارب الضابط الأسير .

- أن ذراعك طويلة أيها السيد .

ابتسم السنجاب وهو يستمع الى تقريظ خصمه . وبهدوء قائل استرسل في سرد ما لديه من أنباء دون أن يبدو عليه أى شعور بالزهو . وقال السنجاب أن اسحق ابن « باروخ » يبدو وكأنه لم يفتقد والده أما آشير فكان مكتئنا الى أن طمأنته أمه .

- هل تستدعى هذه المعلومات ذراعا طويلة يا بنى .

هكذا سأل السنجاب باستنكار وكأنه يسأل واحدا من تلاميذه . التلميذ هذه المرة من معسكر العدو ولكنه مجرد ضابط مبتدىء . عندما

يجمع جهاز للمخابرات معلومات عن المدنيين . في أى بقعة في العالم . فان ذلك ليس عملا صعبا كما لا يعد باعثا على الفخر .

وعندما جاء دور الفهد لكى يتكلم قال أن « باروخ » تعاون معه بشكل فعال وعدد المعلومات التى أفضى بها . ولما ذكر أسماء الضباط التى أولى بها التفت السنجاب نحو « باروخ » وهو يبتسم . ولكنه أطرق برأسه فجأة وأخذ يحك أنفه بباطن يده مثل أى سنجاب حقيقى .

ـ ولكنه لم يذكر شيئا عن يونس ؟!

همس السنجاب بهذه الكلمات ولكن الغضب كان واضحا في نبراته . ورغم أنه كان يوجه الحديث الى الفهد الا أن « باروخ » كان يرتجف . وبعد أن نقل بصره أكثر من مرة بين الرجلين سأل بصوت مرتعش :

ـ يونس ؟! من يونس ؟!

ـ يونا بندمان ... !!

سقطت الكلمة الاخيرة كالقذيفة وأحدثت دويا مكتوما فوق المائدة . فضابط المخابرات الثلاثة . الجالسون في مواجهة بعضهم . يعرفون أن يونا بندمان ـ ويونا تعنى يونس في اللغة العبرية ـ هو المسئول عن النشاط المصرى في المخابرات الاسرائيلية . ولم يكن « باروخ » قد أشار اليه من قريب أو بعيد .

لم أتعمد اخفاء اسمه أيها السيد ... يجب أن تصدقنى .

خرجت الكلمات من جوف « باروخ » وكأنها تنبعث من قاع بئر . وكان وجهه ممتقعا بشكل ملحوظ . وكان ينظر الى السنجاب بتوسل . ولكن ضابط مقاومة الجاسوسية الصلب ظل جامدا . وكان وجهه قد اكتسى بقناع بارد ترتسم عليه مشاعر الاحتقار والاشمئزاز والغضب . ولكنه عاد الى الابتسامة بهدوء واستطرد :

ـ ودافيد جيداليا ؟!

وبدلا من أن يرتعد ماروخ أبتسم . وأعلن أنه لم يسمع هذا الاسم من قبل . ولكن السنجاب ظل يتأمله بتشكك . فأقسم « باروخ » أن هذه أول مرة يسمع فيها إسم داڤيد الملعون هذا . واتجه نحو الفهد وكأنه يستنجد به .

وفي هذه اللحظة مال الفهد برأسه نحو السنجاب . ودار بين الرجلين حديث هامس لم يسمع منه « باروخ » الذى كانت أذنه على مسافة سنتمترات . حرفا واحدا منه . وانقشع الغضب غن ملامح السنجاب وحل محله شعور بالارتياح . وكان الفهد قد أسر اليه بأن دافيد جيداليا هو المسئول عن الجبهة الجنوبية في المخابرات العسكرية . وأن « باروخ » لم يكن على صلة به .

وأدرك الضابط الاسرائيلى أن الفهد تدخل لصالحة فبدت في عينه نظره امتنان عميقة . وسأله السنجاب عن توقعاته بالنسبة للمستقبل فأجاب بأنه في موقفه لا يشجع على التنبؤ . وإن كان يعتقد انه سوف يلقى جزاء قاسيا على يد اليمنين . ومن هذه الاجابة . ادرك الضابطان المصريان أن الاسرائيلى ما زال يعتقد أنه في قبضة السلطات اليمينيه . وعلى الفور . بدأ الفهد في الشكوى :

ـ لقد جئت لأقدم لهم المشورة . ولكنهم أجبرونى على البقاء معه دون أن يوضحوا لى أفكارهم . وقلت لهم أكثر من مرة أننى أرغب في العودة الى مصر . ولكنهم لجأوا الى التسويف . وعندما زاد إلحاحى لم يعيرونى أى التفات وقد سئمت البقاء هنا أيها الرئيس .. !!

عرض الفهد موقفة بنبرات صادقة ولهجة تكشف عن السخط . وكانت هذه أول مرة يقال فيها « باروخ » أن الفهد كان مقيدا الحركة في صنعاء . ولم يتصور أن الثعلبين المراوغين قد بدآ المباراة . أما السنجاب فكان يستمع وهو يبتسم .

- يجب أن نخرج من هنا ... !!

أن يحدث زلزال أو أن ينهار سقف الصالة أهون من وقع هذه العبارة التى تفوه بها السنجاب . فقد اكتشف الاسرائيلى بغتة أنه مع هذين المصريين في جانب واحد . وفي نفس الوقت . فهم الفهد أن السنجاب يبدأ واحد من الاعيبه التى اشتهر بها .

- ولكنهم يحرسون المبنى .

كانت هذه ملاحظة « باروخ » . وقد أبداها وأسند ظهره على مسند معقده . كان يمارس حقة في تقرير مصير المجموعة التى أصبح واحدا منها . وعلق الفهد بأن الحراس ليسوا منتبهين طول الوقت . وأنهم لن يعترضوا الا على خروج « باروخ » واقترح ان يتم تهريبه في وقت متأخر من الليل .

- كم عدد الحراس ؟!

وجه السنجاب هذا السؤال بلهجة تنم عن اللا مبالاة . وأجاب الفهد بأنهم ثلاثة جنود يتناوبون الحراسة عند مدخل المبنى . فرد كل ساعتين . كما أن هناك ضابط صف ينام على الدرج . وبينما كان الفهد يشرح نظام الحراسة . كان السنجاب يواصل الابتسام بسعادة حقيقية . وسرى الأمل الى نفس « باروخ » ولم يكن يعرف أنه ضحية خديعة محكمة النسج . وأن ابتسامة السنجاب ليس لها من سبب سوى أن تلميذه كان يكذب ببراعة فائقة . فلم تكن هناك أية حراسة ظاهرة على الاطلاق !!

وقال « باروخ » أن اليمنيين لو ضبطوه فلا بد أن يسرعوا باعدامه . وأنه يعتقد أن من الأفضل البقاء الى أن تتضح الأمور . بدلا من ضياع الأمل الوحيد في أن يستحوز على عطفهم . وأجاب السنجاب بأن من السخف التفكير في هذا الاحتمال . لأن عملية التسلل من المبنى لن

تستغرق سوى دقائق . وأضاف أن من المستحيل ضبط « باروخ » مادام على استعداد لتنفيذ الأوامر دون ابطاء .

وأمام اللهجة الواثقة التى كان يتحدث بها السنجاب ، لم يجد « باروخ » مناصا فأعلن موافقته . ولكنه سأل عما اذا كان سيقدم الى المحاكمة في مصر .

وقال السنجاب بأن الموقف سوف يتغير بمجرد وصولهم الى القاهرة . لأن القرار لن يكون في يد أى منهما . ولكنه نصح « باروخ » بأن يتعاون باخلاص مع جهاز المخابرات المصرى وفي هذه الحالة . فانه سوف يتلقى مساعدة ما .

وعاد « باروخ » الى الاستفسار عما اذا كان من المحتمل اطلاق سراحه . اذا أفرغ كل ما في جمجمته من معلومات . وأجاب السنجاب بأن الافراج عنه ليس سوى ضرب من المستحيل . ولكن المؤكد أنه سوف يقضى « بعض الوقت » في السجن . وأضاف أن ذلك أفضل كثيرمن الموت شنقا ..

هل هذا وعد يا سيدى ؟ !

وجه « باروخ » سؤاله بصوت مبحوح وتعلقت عيناه بشفتى السنجاب الذى أطرق برأسه وبدا مستغرقا في التفكير . وكان « باروخ » بحكم كونه ضابط مخابرات محترف ، يعرف أن أجهزة المخابرات لديها أساليبها الخاصة . التى تمكنها من التصرف رغم كل القوانين المعمول بها في أنحاء الأرض . فحتى لو أصدرت المحكمة حكمها باعدامه فأن المخابرات المصرية تستطيع إنقاذه . وهناك تعريف عالمى سائد للمخابرات . ضمن كثير من التعاريف التى تتردد في العالم السرى . وهذا التعريف ينص على أن المخابرات هى تنفيذ القوانين عن طريق خرقها ! !

وقبل أن يجيب « السنجاب » على سؤال « باروخ » تدخل الفهد قائلا . أن « باروخ » حاول جاهدا أن يخدعه . وقال أنه رغم اقتناعه بأن هذا لا يثير غضبه . لأن واجب « باروخ » يحتم عليه أن يكتم ما لديه . إلا أنه يعتقد . أن من الأفضل ترك مصير « باروخ » . ليقرره الرؤساء في القاهرة .. بعد أن تتضح حقيقة نواياه . وبعد أن يثبت إخلاصه وصدقه أو العكس .

نعم ... هذا وعد يا بنى .

ورغم خطورة هذه الكلمات إلا أن السنجاب همس بها دون أى قدر من التحفظ . ورفع الفهد عينيه إلى أستاذه القديم وبدا عليه احساس بالضيق ثم هز رأسه . أما « باروخ » فقد تهللت أساريره وتدفقت من فمه عبارات الشكر وهو يتأرجح في مقعده مثل طفل .

وكان من الضرورى أن يتبع الوعد تحذير له نفس الخطورة . فقد قال السنجاب أن عملية الخروج من اليمن ليست نزهة . فهناك مصاعب جمة تعترض الطريق . وأن أى محاولة من جانب « باروخ » لاثارة المتاعب . سوف تواجه على الفور بسرعة وحزم . وقال أنه يتصرف في مثل هذه المواقف بقسوة . وقد يضطر الى أن ينزع جلد الاسرائيلى . خلية خلية .

ورغم ما في تصور سلخ جلده بهذه الطريقة من بشاعة . الا أن « باروخ » ظل متهللاً . وقد تذكر فجأة « أنهما » لم يقدما شيئا « للضيف » . فأسرع الى المطبخ من غير استئذان . ولكنه ما لبث أن عاد بشكل مضحك ليسأل السنجاب عما اذا كان يفضل الشاى أو القهوة . . وقال السنجاب أنه تعود أن يتناول الشاى مع شىء من الجبن لأنه يشعر بالجوع . وبينما كان « باروخ » يتقهقر نحو المطبخ . رمق السنجاب الفهد بنظرة اعجاب . وكأنه يمتدح قدرته على ترويض ضابط

مخابرات معادى الى حد أنه يعتبر نفسه صاحب البيت !!

وأثناء انشغال « باروخ » باعداد الطعام . دار حديث هامس بين الضابطين المصريين . واطلع السنجاب الفهد على الموقف بدقة . وعرف الفهد لأول مرة . أن غواصة مصرية سوف تتولى نقلهم الى ميناء الغردقة على ساحل البحر الأحمر . وبعد أن استمع الى تفاصيل الحصار الجوى الذى فرضته اسرائيل . وافق على أن الغواصة هى الوسيلة الوحيدة المأمونة للوصول الى مصر . ولكنه أبدى تخوفه من الرحلة البرية من صنعاء الى الحديدة .

كانت المشكلة أمام الضابطين تكمن في أن المخابرات الاسرائيلية قد عرفت بسقوط رجلها . وأنها توقعت أن تسعى القاهرة للحصول عليه . وكان حادث اطلاق النار على الفهد في صنعاء . دليلا لا يقبل الجدل على ضراوة المعركة . وكان من المستحيل على أى طائرة أن تقترب من السماء المصرية دون أن تتعرض لها المقاتلات الاسرائلية . كما أن الكوماندوز كانوا يرابطون على الشاطىء الاثيوبى استعدادا للحظة الحاسمة .

وكانت خطة السنجاب تعتمد على التضليل بشكل أساسى . كان يرى أن يتحرك الثلاثة نحو الحديدية بمنتهى السرية . وهناك يستأجرون قاربا ليلحقوا بالغواصة في عرض البحر . وفي هذه الحالة . تستطيع الغواصة أن تقذفهم على الشاطىء المصرى دون التقيد بميناء محدد . وقد أوضح أن أية مشقة . تهون أمام أهمية القصوى التى يعلقها المشير أحمد اسماعيل على العملية . كما أن المخابرات الاسرائيلية سوف تمنى بهزيمة منكرة . لا يجب أن تفلت منها .

وكانت ركيزة السنجاب في تضليل الاسرائيلية تنحصر في خدعتين . الأولى أن تتحرك الوحدة البحرية الراسية في ميناء الحديدة متجهة

جنوبا . لتدور حول رأس الرجاء الصالح . حتى يظن الاسرائيليون أن الأسير قد نقل على ظهرها . والثانية أن تذيع القاهرة أن « باروخ » قد وصل اليها .

وفي منتصف الليل أعد « باروخ » مائدة العشاء . وقد جاء بيض مقلى تفوح منه رائحة الزبد . وبعض المشهيات . وعندما جلس الضباط الثلاثة ليأكلوا معا . أعلن السنجاب أنه يكتفى عادة بالجبن . وقد أخرج من حقيبته علبة جبن مصرية تناول منها قطعة وفك غلافها المفضض بأظافره . ولاحظ الفهد أن أسيره يأكل بشهية لأول مرة . ولم يكن أحد في الدنيا يتصور . أن جهاز المخابرات الاسرائيلى . وجهاز المخابرات المصرى . يتناولان الطعام معا في صنعاء !!

اتضح بعد أن فرغ السنجاب من طعامه . أن « باروخ » يدرك أنه أقدمهم وأعلاهم من حيث الرتبة . كما أنه يحتل موقعا يمكنه من اتخاذ القرارات المتعلقة بمصيره فقد أسرع وراءه الى الحمام . ووقف ينتظره الى أن يفرغ من غسل يديه وفوق ذراعه منشفة نظيفة . ورغم أنه اسرائيلى . الا أن السنجاب شعر بالحرج وهو يرى أحد الضباط يسلك سلوكا مهينا . وبينما كان يجفف يديه . أطلق دعابة مرحة . اذ قال أن الحياة تبدو جميلة في هذه الشقة . ولأول مرة سمح « باروخ » لنفسه بأن يضحك بصوت مرتفع . ولكنه توقف عن الضحك فجأة وبدا عليه شعور بالخجل .

وبعد العشاء جلس الرجال الثلاثة ودار بينهم حديث ممتع أشبه بأحاديث الأصدقاء . وكان واضحا بعد الوعد الذى قطعه السنجاب على نفسه . أن باروخ اختار الجانب الذى يكفل له السلامة الشخصية . وقد سأله السنجاب عن نظم الترقى في المخابرات الاسرائيلية . وحجم المكافآت والتعويضات التى تصرف للضباط . والتسهيلات التى تقدم لهم عند

تكليفهم بالمهام . ومستويات اتخاذ القرار في الحالات المختلفة · ومن المدهش . أن « باروخ » أجاب بصدق على كل هذه الأسئلة !!

ونتيجة لجو الالفة التى غمرت المجتمعين . سأل « باروخ » بأدب عما اذا كان الضباط المصريين يعانون من البيروقراطية . « مثلما نعانى نحن في الموسادا » . وأجاب السنجاب بأن البيروقراطية تنشأ دائما مادام هناك ورق ومذكرات وتقارير تعرض على الرئاسات الأعلى . وأضاف أنه يؤمن بامكانية التغلب على البيروقراطية . والحد من تفشيها . عن طريق عدم السماح بالعمل المكتبى الا لفترات محددة . كما أن كل ضابط يجب أن يتحمل المسئولية كاملة . وأن يكون قادرا على اتخاذ القرارات في الميدان ·

ولما أشار الفهد الى أن « باروخ » كشف له عن سر اهتمام المخابرات الاسرائيلية . بمضيق باب المندب . ضاقت عينا السنجاب واستغرق في تأمل علبة سجائرة ثم رفع رأسه وحدق في وجه « باروخ » وسأله ان كان هذا الزعم صحيحا فأجاب بالايجاب . وعندئذ قال السنجاب بلهجة ساخرة . أن هذه واحدة من الأفكار الخاطئة التى أدت الى جهود عقيمة وعرضت حياة ضابط « مبرر » للخطر دون أى بدر . وفي النهاية سأل . كيف يمكن اغلاق المضيق دون أن تحتل مصر الشواطىء المطلة عليه ؟!

وأجاب « باروخ » بأن الممر الملاحى لا يزيد عرضه على تسعة كيلو مترات . وأن بمقدور مدمرة مصرية واحدة أن تمنع المرور في الاتجاهين . ولكن السنجاب قال أن غواصة واحدة تستطيع اغراق المدمرة . كما أن متاعب سياسية كثيرة سوف تنجم عن اغلاق المضيق . لأن العالم يفضل أن تبقى الممرات البحرية آسنة ·

وعاد « باروخ » الى شرح وجهة نظر جهاز المخابرات الاسرائيلى . فقال أن اغلاق المضيق يمكن أن يتم بحراسة طرفه الجنوبى أو الشمالى .

مع وضع عدد مناسب من الألغام . البحرية في المجرى الذى يقع بين الجزر وبين الشاطىء الاثيوبى . وفي هذه الحالة ستمنع السفن الاسرائيلية وحدها من المرور . مما يجنب مصر أية تعقيدات سياسية ولكن السنجاب هز رأسه مخادعا . وقال أن الأفضل لمصر . اذا أرادت أن تخوض معركة بحرية مع اسرائيل . أن تنشب هذه المعركة بالقرب من شواطئها ٠

وللرد على وجهة نظر السنجاب . قال « باروخ » أن المضيق بعيد عن مدى الطائرات الاسرائيلية . مما يحرم اسرائيل من ميزة التفوق الجوى التى تتمتع بها . وقال أن اغلاق المضيق سوف يخنق اسرائيل التى لا تستطيع أن تتحمل طويلا . قطع الشريان الوحيد الذى يربطها بنصف العالم . وأضاف أن اسرائيل أخطأت خطأ فادحا عندما سمحت لمصر بأن تتفوق عليها في القوة البحرية . « لاننا وان كنا نطير في سماء واحدة الا اننا نطل على نفس البحرين » ٠

ولم يصل النقاش حول باب المندب الى نتيجة حاسمة ٠ وكان واضحا أن السنجاب غير مقتنع بفاعلية حصار المضيق . بل وبقدرة مصر على احكام هذا الحصار . وفي النهاية أشار الى أن الاجراء الأسهل هو تدمير ميناء ايلات نفسه . وذكر أن المخابرات البحرية المصرية هاجمت ايلات قبل ذلك بثلاث سنوات . وأن باستطاعتنا اختراق الميناء من جديد ٠

وفي الساعة الثالثه صباحا قال السنجاب وهو يتثاءب أنه يشعر بالتعب . وسأل الرجلين عن الكيفية التى ينامان بها . وأجاب الفهد انهما يكتفيان باغفاءات متقطعة فوق مقعديهما نظرا لحرارة الجو . ولكن السنجاب أمر بأن يكون هناك نظام صارم للراحة واقترح أن ينام باروخ في الغرفة الداخلية . وأن ينام هو في الغرفة المؤدية الى الصالة أما الفهد فكان سريره المفضل . مقعد وراء باب الشقة مباشرة وهكذا نام الضباط الثلاثة بينما كانت هناك أعين ساهرة ٠

قبل أن يخلد الرجال الثلاثة للنوم . كانت الغواصة ٦١٢ قد وصلت الى مسافة مائتين وسته عشر ميلا من ميناء الحديدة . وعندما عبرت بالقرب من جزيرة سقطرى أفادت بأنها تشاهد حاملة طائرات تتجه هى الأخرى بسرعة نحو خليج عدن . وبعد ساعتين . شاهدت الغواصة سفينه روسية من حاملات الصواريخ الموجهة . وبعد خمس دقائق . ظهرت على نفس مسار حاملة الصواريخ سفينه ورشة .

وفي الساعة الرابعة صباحا أجرى جهاز المخابرات في القاهرة . اتصالا تليفونيا بضابط المخابرات البدين في عدن . وقيل للبدين . الذى قضى بضعة أيام في حالة بطالة دائمة . أن يقود العربة اللاندروفر ويتجه بأقصى سرعة الى صنعاء . وهناك . كان عليه أن يقدم نفسه للفهد . وأن يضع نفسه تحت تصرفه .

وفي نفس الوقت أرسلت مجموعة المراقبة من أديس أبابا . برقية عاجلة . تقول فيها أن ثلاثه طيارين اسرائيليين وصلوا الى أديس أبابا . وبعد أربعين دقيقة . أبرقت المجموعة ببرقية عاجلة أخرى . وفي هذه المرة . قالت أن جماعة من الكوماندوز . قد وصلوا أيضا الى أديس أبابا .

وبينما كان التوتر يتصاعد بحدة في البحر والجو . كان الرئيس المصرى أنور السادات . يدرس النتائج التى استخلصها بنفسه من المناورة العسكرية التى حضرها في الصحراء . والتى أستمرت طوال نهار الأحد . وحتى ساعة متأخرة من الليل . وكانت المناورة قد اشتملت على عمليات اسقاط بالمظلات . وابرار جوى ضخم . ولم يكن أحد يعرف أن هذه

المناورة الواسعة النطاق . لم تكن سوى استعراض للقوة . في مواجهة احتمال قائم بالحرب ·

وفي صباح الأثنين . الرابع والعشرين من يوليو . نشرت صحيفة الأهرام القاهرية في ذيل صفحتها الاولى . نبأ يقول أن اليمن سلمت « الجاسوس الاسرائيلى » لمصر . وأن هذا « الجاسوس » قد وصل بالفعل الى القاهرة ·

وكان هذا النبأ كاذبا ·

« الفصل التاسع »

« الهروب نحو البحر الأحمر »

بعد أن نشرت صحيفة الأهرام . على صفحتها الأولى ، صباح الاثنين الرابع والعشرين من يوليو ، نبأ وصول « باروخ » الى القاهرة . كان من المؤكد ، وفق تقدير المخابرات المصرية ، أن الاسرائيليين سوف يقرءون هذا النبأ قبل غروب شمس نفس اليوم . وقد بنى هذا التقدير على المعلومات التى لا يرقى اليها شك . عن أسلوب الاسرائيليين في نقل الصحف المصرية من القاهرة الى تل آبيب عبر مراكز محددة على ساحل أوربا الجنوبى .

فمن الأنشطة التى لم تعد سرا . في عالم المخابرات . أن كل طرف يضع نظاما دقيقا ومحكما ، ليكفل تدفق مطبوعات الطرف الآخر العلنية . بطرق ملتوية . الى المختصين بدراسة « العدو » والى الحاسبات الالكترونية التى تختزن في ذاكرتها المعقدة ، كل شذرة من المعلومات . حتى لو كانت معلومات تافهة !! وإمعانا في الخداع ، كان نشر النبأ في

صحيفة واحدة من الصحف اليومية الثلاث التى تصدر في مصر . محاولة ذكية للإيحاء بأن هذا النبأ لم يوزع رسميا كما يحدث عادة . وإنما حصلت عليه الأهرام بواسائلها الخاصة . وهى الصحيفة التى تمتعت بشهرة عريضة لسنين طويلة . بأنها وثيقة الصلة بأعلى مستويات القيادة في مصر . كما أنها واسعة الاطلاع .

وكانت منظمة مقاومة الجاسوسية في القاهرة . تأمل في أن تنطلى هذه الخدعة على الاسرائيليين . وعلى هذا الأساس واعتبارا من بعد ظهر الاثنين . كانت آذان المخابرات المصرية تتصنت بأقصى ما لديها من طاقة . لعلها تتلقى ما يفيد أن الاسرائيليين قد نفضوا يدهم من مسألة ضابطهم الأسير . وكان هذا الاحتمال . يداعب بقوة خيال رجال المخابرات المصريين .

وبينما كانت أعداد صحيفة الأهرام تتكدس في الطائرات المتجهة الى عواصم العالم . كان ضابط المخابرات البدين ينطلق بسرعة محمومة من عدن الى تعز . ورغم أنه كان وحده هذه المرة . إلا أنه لم يسمح لنفسه بلحظة راحة . وعند مدينة « إب » كان الارهاق قد تملك منه وانتابه إحساس قاهر بالجوع . فقرر أن يتوقف ليتناول شيئا من الطعام .

كان البدين يرتدى بنطلونا كالحا يتهدل فوقه قميص مفتوح . وقد انتعل حذاء متواضعا من القماش . ولأنه كان يضع على عينيه نظارة شمس رخيصة . بدا كما لو كان أحد سائقى الشاحنات . أو عربات الأجرة . وقد أوقف اللاندروفر على جانب الطريق . وتدحرج منها كالكرة . وما أن عثر على مطعم صغير حتى دخل من الباب . وألقى نفسه على أقرب مقعد وطلب من أول إنسان وقع عليه بصره أن يأتيه بشىء يأكله . كان المطعم اليمنى قد فرغ من تقديم وجبة الطعام لزبائنه . وقيل للبدين أن الطبق الوحيد الذى يمكن تقديمه له . طبق

يدعى « زوربيان » . وقبل أن يشرح له آلخادم مكونات هذا الطبق . طلب أن يقدموه له على وجه السرعة . وأضاف . أنه لا بد أن يأكله حتى لو كان خلاصة الثعابين !! ·

وأتضح أن « الزوربيان » ليس سوى أرز مطبوخ بصلصة الطماطم . مع لحم محفوظ . والتهم البدين كمية من هذا الأرز تكفى أسرة كبيرة . وجرع جالونا من الماء البارد . وملأ زمزميته ثم قفز الى اللاندروفر من جديد ·

كان البدين يتصبب عرقا من كل ثنية في جلده المكتنز . ومن آن لآخر . كان يتناول زمزميته ويرفعها الى فمه . ولم يكنْ يضايقه سوى مقعد اللاندروفر الصلب . وحرارة الجو الخانقة . وعندما مرق أمام علامة الكيلو ١٥٥ ابتسم ابتسامة شاحبة . ففى هذه البقعة من العالم . كان من المحتمل أن يذهب الى الآخرة . وهو يغط في النوم ·

وفي النهاية وصل البدين الى صنعاء . ولأنه لم يكن يعرف عنوان شقة حى باب اليمن . اتجه الى السفارة المصرية . وهناك بذل جهده لاقناع الدبلوماسى الذى كان على صلة بالفهد . بأنه مكلف بلقائه . وفي البداية . لم يصدق الدبلوماسى الأنيق أن هذا الرجل البدين . المتسخ الثياب . بهيئة الزرية وعينيه المحمرتين من أثر التعب . يمكن أن يكون مكلفا بعمل ما ·

وفي الساعة الحادية عشرة مساء الثلاثاء الخامس والعشرين من يوليو . طرق البدين باب الشقة . ومضت ستة دقائق قبل أن يفتح الباب بحذر شديد . وفي الداخل . كان « باروخ » في موقعه المعتاد عند الطوارىء . وراء باب المطبخ . وكان الفهد ممسكا بقبضة مسدسه . أما السنجاب فكان جالسا الى المائدة بلا اكتراث · وأحدث ظهور البدين

عاصفة هوجاء في الصالة . فقد احتضن الضابطان زميلهما الذى حذرهما وهو يضحك من لزوجة جلده بسبب العرق والغبار ومشقة السفر . وجلس الضباط الثلاثة حول المائدة . وسأل الفهد عما اذا كان البدين يود أن يأكل شيئا . فأجاب بأنه سوف يختصر الطريق ويذهب بنفسه إلى المطبخ . ولكن السنجاب أشار بيده معترضا . فلم يكن هناك أى مبرر لكى يرى « باروخ » مزيدا من الضباط المصريين .

وأثناء إعداد طعام العشاء . كان البدين يجلس وحده أمام السنجاب . بعد أن اغتسل وبدل ثيابه . وبينما كان السنجاب يتحدث اليه بصوت هامس . لاحظ أنه كان يكتفى بإيماءة خفيفة من آن لآخر . ولما عاد الفهد من المطبخ بأطباق الطعام . انفجر الضابطان بالضحك . فقد اكتشفا أن البدين استغرق في نوم عميق !! .

لم يشعر البدين بأى حرج عندما أيقظه الفهد . بل سارع بمجرد أن فتح عينيه الى ازدراء الطعام وكأنه منخرط في مطاردة . وبعد أن ملأ معدته . قال السنجاب أنه يستطيع أن يحتل سريره في الغرفة الداخلية . وفور إغلاق باب هذه الغرفة على البدين . هرع الفهد الى المطبخ ليطلق سراح « باروخ » الذى قضى هناك ساعتين كاملتين وفي الساعة الواحدة صباحا . وبينما كان الضباط الثلاثة يتأهبون للنوم . عاد الطرق على باب الشقة من جديد . وتسلل « باروخ » بسرعة الى المطبخ دون أن يأمره أحد . وعندئذ فتح الفهد الباب . ولدهشته الشديدة . وجد صديقه الدبلوماسى واقفا وقد بدا عليه الاجهاد . وفي يده اليمنى رسالة مكتوبة بالشفرة .

ودعا الضابطان صديقهم ليدخل . لكنه رفض بأدب وقال أنه في عجلة من أمره . ولم يكن من اللائق . أن يعود الرجل . الذى تحمل

عناء كثيرا لا يدخل في نطاق مهنته . من أمام الباب كسعاة البريد . لذلك أصر الفهد أن يدخل . وأجاب الدبلوماسى بأن لديه بعض الأعمال الهامة . ولكن السنجاب ابتسم وألقى نظرة على ساعة يده . وسأل عن الأعمال العاجلة في هذا الوقت المتأخر من الليل . فهمس الدبلوماسى للضابطين بمفاجأة جديدة . اذ قال أنه محمود رياض أمين عام الجامعة العربية قد وصل الليلة الى صنعاء .. !!

وبعد انصراف الدبلوماسى . قام الفهد بحل شفرة الرسالة . واتضح أنها ذات أهمية قصوى . فقد تضمنت الأوامر في عملية نقل « باروخ » . وكان ملخصها . أن يصحب الضابطان الأسير من صنعاء الى الحديدة ، على أن يصلا الى الميناء قبل الساعة الثالثة بعد ظهر الأربعاء السادس والعشرين من يوليو . وأن يحصلا بأى شكل على قارب يتسع لثلاثتهم . وبعد الغروب . يتجهان بالقارب نحو الشمال . مسافة خمسة كيلو مترات . ثم ينحرفان غربا . فمنذ الغروب وحتى الساعة العاشرة والنصف . وفي نقطة محددة على مسافة ثمانية كيلو مترات من الشاطىء . كانت الغواصة ٦١٢ تنتظر لتحملهم معها الى مصر . أما البدين . فقد قالت الرسالة أن عليه مغادرة صنعاء بأقصى سرعة . قاصدا أديس أبابا . وأن يبقى هناك . في العاصمة الاثيوبية . الى أن يتلقى أوامر جديدة . !!

وفي غضون ساعة كان الضابطان قد درسا الوقت دراسة مستفيضة . واستقر رأيهما على أن يبدآ الحركة في الخامسة صباحا ليصلا الى الحديدة قبل الموعد المحدد في الرسالة . وكان رأى السنجاب أن « باروخ » مقتنع الآن بأن من مصلحته الخروج من اليمن . لذلك اقترح أن يركب معهما في اللاندروفر كأى مسافر عادى . ولكن الفهد كانت له وجهة نظر مختلفة . اذ كان مصرا على أن « باروخ » . رغم كل بوادر حسن النية

التى أظهرها . ليس سوى اسرائيلى مراوغ . واقترح تقييده أثناء الرحلة . الا أن رأى السنجاب كان الأعلى . بحكم رتبته .

وفي الثانية صباحا أحدث البدين صخبا عاليا عندما أيقظه الفهد . ولكن ثورته هدأت بمجرد أن وقع بصره على السنجاب . الذى كان يتأمله بعينين قاسيتين . واعتذز البدين بأنه قضى ثمان وأربعين ساعة دون نوم .

وفي ظلمة الليل هبط الفهد الدرج يتبعه البدين . وقام الفهد بنزع اللوحة المعدنية الأمامية من عربته وثبتها في مقدمة اللاندروفر التى جاء بها البدين . ثم قاد إحدى العربتين ودس أنفها تحت جدار البيت . أما الثانية فكانت تقف أما الباب استعدادا للرحيل . وهكذا . كانت عربتان لاندروفر . لونهما ابيض . تحملان رقما واحدا !! . ولم يكن هناك أى اختلاف بين العربتين باستثناء ثقوب طلقات الرصاص التى كانت تزين عربة الفهد .

وكان لابد من دراسة تفاصيل الرحلة المرتقبة . لذلك قضى الضباط الساعات الباقية على موعد الرحيل ساهرين . واتفقوا على أن يهبط الفهد والسنجاب أولا . بدعوى جذب الحارس بعيدا عن المبنى . وبعد ذلك يقتاد البدين « باروخ » بسرعة الى الخارج . وكان على البدين أن يقضى وقته بعد رحيل اللاندروفر . ثم يغلق الشقة ويسلم المفتاح للدبلوماسى المصرى . وفي النهاية يقلع الى الحبشة !!

كان البدين يغالب النعاس وهو يستمع الى توجيهات السنجاب . ولانه لم يكن يعرف شيئا عن الحصار الاسرائيلى المفروض حول « باروخ » . كانت ملامحه تحمل مشاعر الاستخفاف . بهذه المغالاه المفرطة في المبالغة . التى تميز خطوات جهاز المخابرات المصرى . عندما يتعلق الأمر بالأمن !!

وفي الخامسة إلا خمس دقائق حمل الضابطان حقائبهما وهبطا الى الشارع . وبعد خمسة دقائق . عاد الفهد ليقتاد باروخ؛ وكان الفهد مغيظا من هذا الجاسوس الذى تسبب في كل هذه المتاعب . لذلك لاحظ « باروخ » أنه ينظر اليه شذرا . مما اجبره على إطاعة أوامره كأفضل ما تكون الطاعة العمياء ٠

وفي الخامسة ودقيقتين بالضبط انطلقت اللاندروفر . الفهد على عجلة القيادة . وخلفه « باروخ » والى جواره السنجاب . ولاحظ الفهد أن اصفرارا مخيفاً يكسو وجه الأسير . فسأله وهو ينظر في المرآة الداخلية عما اذا كان بخير . وأجاب « باروخ » أنه على ما يرام . ومن المؤكد . أن الاسرائيلى كان يشعر بالخوف . وهو في قبضة ضابطين من ضباط العدو . لا يعرف نواياهما على وجه الدقة !!

وقبل أن تخرج العربة من صنعاء . قال « باروخ » أنه يشعر بالظمأ . فدار الفهد في شوارع المدينة بحثا عن متجر يبيع أية مشروبات . وبعد جولة سريعة توقفت العربة أمام فندق المخا . وهبط الفهد ليملأ زمزميته بالماء البارد . كما اشترى بعض المعلبات التى تحتوى على عصير الفاكهة . وفي هذه الأثناء . قال « باروخ » أنه نزل في هذا الفندق . قبل أن يسقط . وأضاف أنه لم يفكر لحظة واحدة في المصير الأسود الذى قاده اليه القدر . ولاحظ السنجاب أن الدموع تترقرق في عينى الاسرائيلى . فأشاح بوجهه بعيدا ولزم الصمت ٠

وعند مشارف صنعاء . وعلى أول طريق الحديدة . صادفت المجموعة عقبة لم تكن في الحساب . فقد لاحظ الفهد أن أربعة براميل حمراء تعترض الطريق . فلفت نظر السنجاب . ولم تكن أربعة براميل لتعترض طريق ضابطين من ضباط المخابرات . ولكن لأنهما في أرض صديقة . أمره السنجاب بالتوقف ٠

كانت سدادة الطريق خاصة بنقطة شرطة عسكرية يمنية . وبمجرد أن توقفت اللاندروفر تقدم منها جندى يمنى يحمل في يده رشاشا قصيرًا . بينما وقف جنديان آخران بسلاحهما على جانب الطريق . وبعد أن دار الجندى حول العربة . توقف أمام النافذة التى يجلس الى جوارها السنجاب . الذى أدرك أن وجهه الأحمر . قد أثار ريبة الحارس اليمنى بقوة .

تهللت أسارير جندى الشرطة العسكرية اليمنى بمجرد أن قال له السنجاب أنهم مصريون . ولكن عبارات الترحيب التى تتابعت على شفتيه لم تمنعه من أن يطلب الأطلاع على جوازات السفر . وبدت على وجه الفهد الذى كان يراقب الموقف من فوق كتفه . أمارات التحفز . ومد السنجاب يده الى الفهد . فناوله جواز سفره . وفي نفس الوقت . دس السنجاب يده في جيبة الخلفى وأخرج جوازين . ثم سلم الجوازات الثلاثة للشرطى .

أخذ اليمنى في مراجعة الجوازات واحدا بعد الآخر . فكان يطلع على الصورة والبيانات ثم يرفع رأسه الى صاحب الجواز ويسلمه له . وعندما جاء دور « باروخ » . دهش بشدة وهو يرى صورته في جواز سفر مصرى . ولما أعيدت الجوازات الى أصحابها . مد السنجاب يده الى « باروخ » واستعاد جوازه بهدوء . وما أن استأنفت اللاندروفر في السير حتى همس « باروخ » قائلا أن السيد لا ينسى شيئا . وكان يقصد جواز السفر المزيف . واكتفى السنجاب بالابتسام . أما الفهد فقد علق قائلا أن أجهزة المخابرات القوية . لا يجب أن تغفل أى احتمال . وأضاف . أن جهاز المخابرات الاسرائيلى . لو لم يغفل احتمال سقوطه « باروخ » لأى سبب . لما كان بمقدور أحد أن يكتشف حقيقته . ولم يحاول « باروخ » أن يرد على ملاحظة الفهد المهينة . بل أرسل بصره من النافذة وعزق في تأملاته الخاصة .

كان النهار حارا ودرجة الحرارة ترتفع كلما أوغلوا في الطريق. وكانت مقاعد اللاندروفر الصلبة . تسبب للركاب الثلاثة مضايقة شديدة ، وفي المناطق الشديدة الخطورة . التى يلتوى فيها الطريق بحدة ، وتبدو على جانبه الأعماق السحيقة . كان « باروخ » يمد عنقه وهو يتوجس شرًا . أما افهد فكان يندفع بمهارة كأنه عفريت من الجن . تنكر في شكل آدمى ، واحترف قيادة العربات !!

وفوق هضبة مرتفعة تدعى « بوعان » . اقترح « باروخ » أن يتوقفوا قليلا بقصد الراحة . ولكن أحدا لم يرد على الاقتراح ، لذلك أعلن أنه شرب كمية كبيرة من السوائل وأن لن يستطيع الاحتفاظ بهذه السوائل في جوفه طول الوقت . وعلى الفور . أوقف الفهد العربة على جانب الطريق ، وسمح « لباروخ » بأن يهبط وحده . وعندما عاد بعد دقائق . استأنف الفهد اندفاعه دون إبطاء .

وفي العاشرة وخمسة وعشرين دقيقة ، كانت اللاندروفر قد أمضت خمس ساعات ونصف دون توقف . باستثناء الدقائق التى ضاعت في « بوعان » . وللمرة الثانية طلب « باروخ » أن يسمح له بالهبوط . ولكن السنجاب زمجر بوحشية . وسأل الاسرائيلى عما اذا كان قد تعود من قبل المشاق . وبعد ذلك ألقى نظرة على ساعة يده . وهتف بارتياح وهو يوجه الحديث للفهد . أن الساعة الآن العاشرة والنصف !!.

كانت اللحظات بالغة الخطورة رغم أنها كانت تبدو عادية . ففى هذا الوقت بالضبط . برقت في سماء القنطرة طائرة ميج ٢١ . تابعة لسلاح الجو السورى . واندفعت هذه الطائرة بسرعة البرق في دائرة واسعة فوق المستعمرات الاسرائيلية . وبعد عشر ثوان . ظهرت في الجو طائرتان

اتخذتا نفس مسار الطائرة الأولى . وأرسل الاسرائيليون طائراتهم المقاتلة لاعتراض الطائرات المغيرة . وفي نفس اليوم قدمت اسرائيل شكوى لمنظمة الرقابة على الهدنة في القدس .

وبالطبع . لم يكن معروفا على نطاق واسع . أن الغارة السورية المفاجئة . كانت ضمن الخطط المشتركة التى وضعها السوريون مع المصريين . وكان الهدف من الغارة . هو التعرف على حجم دفاع اسرائيل الجوى . في المنطقتين الوسطى والشمالية . وقد أيقنت القاهرة في ذلك اليوم . وبناء على تقارير الطيارين السورين . أن أعدادا كبيرة من التشكيلات المقاتلة الاسرائيلية . قد نقلت الى مطارات سيناء بالفعل . وأنها مازالت هناك .

وبعد نصف ساعة وصلت اللاندروفر الى نقطة على طريق الحديدة . كان من المحتم التوقف فيها . ففى هذه البقعة . صنعت الطبيعة ما يشبه « الرست هاوس » . بئر عذب تتدفق منه المياه الباردة بشكل خلاب . وتنساب مياه البئر الى جوار الطريق مسافة عشر كيلو مترات . وقد صنعت لنفسها واديا صغيرا يتزايد فيه الاخضرار . وعلى مسافة كيلو مترين من البئر . تنحدر الصخور بشكل مفاجىء . فتتدفق المياه على شكل شلال . وعلى جانبيه تقف صخرتان بركانيتان . لذلك يبدو المكان أشبه بغرفة تتدفق المياه من سقفها . أما أرضيتها . فعبارة عن صخرة ملساء ناصعة البياض . مما يغرى أى انسان بأن يستحم في بطن الطبيعة بعيدا عن الأعين .

هبط الضباط الثلاثة وجلسوا متباعدين فوق الصخور . وقد اختار السنجاب مرتفعا صخريا واضطجع على مرفقه . وانهمك الفهد في ملء زمزميته المياه . أما باروخ فأخذ يتجول في المنطقة . وهو يبدى دهشة لروعة الطبيعة . كان واضحا أنه يتتبع مجرى الماء وفجأة فر هاربا !!

قطب الفهد جبينه وتحفرت كل خلاياه وبدا القلق على ملامحه .
ولكن السنجاب لم يكن قلقا . إذ كان يعتقد أن « الأسير » . اذا كان
يفكر في الهرب . فإنه لن يستطيع الذهاب بعيدا . وبعد أن تبادلا
الصياح بصوت عال . اقترح السنجاب أن يضغط الفهد نفير السيارة .
ولكن حتى صوت بوق اللاندروفر المزعج . لم يسفر عن أية نتيجة !!
لأن الوادى محصور بين الطريق ومرتفع جبلى وعر . ألقى السنجاب

نظرة على الجبل وقال أن « باروخ » لا بد أن يكون مختفيا في الوادى .
وقد بحث الضابطان بعناية وسط أغصان الأشجار المتشابكة . ووراء
الصخور البركانية المتناثرة . والنتوءات الضخمة . ولكن الهارب لم يظهر
له أى أثر .

وعلى الفور . انطلق الفهد الى اللاندروفر وقادها بسرعة الى أن وصل
الى أقصى نقطة يمكن أن يكون « باروخ » قد وصل اليها على قدميه .
بعد ذلك ترجل وقفز الى الوادى واتخذ طريقه في الاتجاه العكسى .

كانت خطواته تتعثر فوق الحجارة الزلقة المغطاه بالطحالب . ولكنه
واصل التقدم وعيناه تلمعان بحدة . وعندما انزلقت قدمه اليمنى
وانحشرت في شق ضيق وسط كتلة من الحجر الصلب . انتزعها بقسوة
وطفح الغضب فوق ملامحه . وكان واثقا من أنه سيعثر على الاسرائيلى
الذى نكص بكل العهود التى قطعها على نفسه . ولكنه كان قلقا خوفا
من أن يفوته اللحاق بالغواصة التى يعرف أنها لن تنتظره الى الأبد .
وبين أغصان وغل كثيف من الشوك . لمح الفهد ثعبانا أسود ينسل
بعيدا عن طريقه . ولكنه لم يعره التفاتا . فقد كان هدفه « باروخ » .
ودار بخلده أن يحطم رأسه بمجرد أن يعثر عليه . ولكنه كتم غيظه
وهز رأسه نفيا وكأنه يحدث نفسه . وجرحت يده اليمنى عندما أراد أن

يزيح شجرة شوك كانت تسد الطريق . فمال نحو جدول المياه المنحدر تحت قدمه وغسل الجرح ثم قفز بخفة وهو يرتجف من الحقد .

ورددت جنبات الوادى صدى صوت السنجاب وهو ينادى عليه ، وأجاب بنداء ممدود أشبه بنداءات الرعاة ، وسمع بالقرب منه هدير المياه فألقى نظرة . وهناك وراء صخرة ، بالقرب من شلال المياه ، عثر على « باروخ » .

كان الموقف مرعبا يشد الانفاس . فقد تضاءل « باروخ » وانكمش مثل أرنب . وكان ظل الفهد على الصخرة قصيرا ولكنه يوحى بالقوة ، وقد تلاحقت أنفاسه بتأثير الجهد الذى بذله ، الجهد الممزوج بالقلق . ولاحظ الاسرائيلى امارات الغضب العارم على وجه غريمه فغاصت رأسه بين كتفيه . وفجأة هب واقفا ولاذ بالفرار في اتجاه البئر !!

وفوق المرتفع المجاور للبئر كان السنجاب يبتسم وهو يرى « باروخ » مندفعا في اتجاهه والفهد يجد في أثره . وبمجرد أن وصل « باروخ » الى مكانه ألقى بنفسه عند قدميه طالبا الحماية . ولكن الفهد التقطه بسرعة البرق وضربه بقسوة في معدته ، وانحنى الاسرائيلى وهو يتلوى من الألم . وسدد الفهد لكمة مكتوبة الى فك غريمه ، فتحطمت أسنانه واندفع الدم من فمه . أما السنجاب فقد قفز محاولا أن يمنع الفهد من قتل الأسير . وطارت نظارته وهوت بعيدا وسط الحشائش . وفي تلك اللحظة صرخ السنجاب بأعلى صوته . وانتبه الفهد فوقف منتصبا كتمثال من الحجر .

ولست أعتقد أن هناك انسانا أصيب بالذعر مثل « باروخ » . فقد كان الاسرائيلى ملقى على الأرض والدماء تنزف منه بغزارة . ومن بين أقدام الضابطين كان بمقدوره أن يراهما وقد وقفا في مواجهة بعضهما . كان وجه السنجاب الأحمر قد اكتسى بزرقة قاتمة وعيناه تقدح

بالشرر . أما الفهد . فكان صدره يعلو ويهبط بعنف وهو يحاول جاهدا أن يكبت مشاعره . وعندما تكلم السنجاب جاء صوته قويا وكأنه ينبعث من مكبر صوت . وقد قال أن هذا « الجبان » لابد أن يصل حيا الى القاهرة . وأن هذه هى مسئولية الفهد . قبل أى انسان آخر .

وتمتتم الفهد معتذرا لأستاذه الذى استشاط غضبا . وقال أن الاسرائيلى لم يحترم المعاملة الحسنة التى عومل بها . وأنه ضابط بلا شرف . وفي النهاية فإن كل القوانين تبيح قتله جزاء هروبه . وبعد أن هدأت ثورة السنجاب . قفز الفهد بخفة نحو النظارة الطبية التى كانت تلمع وسط الحشائش في ضوء الشمس . أما الاسرائيلى فكان على يقين من أن أيامه المقبلة أصبحت سوداء .

وتحرك الضابط الثلاثة نحو اللاندروفر في هيئة « طابور » السنجاب في المقدمة ووراءه الاسرائيلى وبعده الفهد . وبعد أن جلس في مقعده . ذهب الفهد الى مؤخرة اللاندروفر وعاد بقطعة من السلك الرفيع . وكان واضحا أنه ينوى تقييد الاسرائيلى حتى لايكرر فعلته الشائنة مرة أخرى . ولكن السنجاب أمره أن يتركه حرا . وعلق ضاحكا أن لن يستطيع الهرب الا بعد أن يراه الطبيب !!

وطوال الطريق كان الاسرائيلى مطرقا بمذلة وهو يتحسس فكه . ولم يكن يجرؤ على رفع بصره الى السنجاب الذى كان يجلس بجواره . كذلك لم يحاول النظر في المرآة التى كانت تظهر جبهة الفهد وعيناه . وعندما كان الفهد يتناول علب العصير كان يكتفى بتقديم واحدة للسنجاب ثم يرمق الاسرائيلى بنظرة حانقة . فقد إنتهى العهد الذى كان يعد فيه زميل رغم أنه عدو .

وتسببت الأورام التى كانت أصابت فكه . والآلام القاتلة

التى كانت تنتاب معدته . في شعور الاسرائيلى بالظمأ . وقد تمتم بصوت خاشع بدون أن يرفع رأسه طالبا جرعة ماء . ويبدو أن السنجاب لم يسمع لذلك سأله عما يريد . وكرر الاسرائيلى طلب الماء بصوت متقطع . وكانت الزمزمية ترقد جوار الفهد على المقعد الأمامى . وفي اللحظة التى مد فيها السنجاب يده اليها . كان الفهد يناولها له . وحاول « باروخ » أن يشرب دون أن تلمس فوهة الزمزمية فمه . الا أن يده كانت ترتعش وانساب الماء فوق ذقنه وصدره . فناوله الفهد علبه عصير فارغة ليستعملها بدلا من الكوب .

وجاء أول اعتذار من « باروخ » عند أول السهل الصحراوى الذى يمتد بعد مدينة « مناخة » وحتى ساحل البحر . وهو سهل فسيح قاحل يرسل شواظ من اللهب في الصيف . ففى أول هذا السهل ينساب جدول من الماء يشبه الجدول الذى حاول من قبل . ان يختفى عنده . وكان منظر الماء وهو يترقرق بين الصخور مغريا بشكل لا يقاوم . وكان الجلوس لفترة طويلة مع وعورة الطريق قد سبب له آلاما في مؤخرته . ويبدو أنه كان يأمل في استراحة قصيرة .

ورغم أن كلمات الاعتذار التى نطق بها كانت تعبر عن شعوره العميق بالندم . إلا أن أيا من الضابطين المصريين لم يرد . واسترسل هو بصوت واهن شارحا موقفه . وعزا سوء تصرفه إلى الارهاق العصبى الذى سببه له الحبس لمدة تقارب الشهرين . وأجاب الفهد بأن أمره أن يكف عن الكلام .

وقبل أن يصل الركب الى مدينة الحديدة أوقف الفهد العربة ثم استدار في مقعده . كان وجهه يكاد يلامس وجه « باروخ » الذى توجس شرا فتراجع دفعة واحدة إلى الوراء . وقال الفهد موجها حديثه للأسير .

أن أحدا لن ينقذه من يده إذا فكر في إثارة المتاعب . وقال السنجاب أنه يتعهد بعدم التدخل في المرة القادمة .

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعشرين دقيقة عندما مرقت اللاندروفر في شارع صنعاء . وعندما ظهر الميناء من بعيد همس السنجاب بأن تصوير الموانى ليس لعبة يقدم عليها « الأولاد » . وقبل مدخل الميناء انحرف الفهد بشدة وانطلق بحذاء البحر . وفي نقطة منعزله على الشاطىء أوقف العربة وهبط منها بسرعة . وبعد أن تبادل حديثا سريعا مع السنجاب ، هبط هو الآخر واحتل الفهد مقعده . وبخطى وئيده مضى السنجاب في شارع ضيق من شوارع المؤدية إلى الطريق المحازى للشاطىء وأصبح « باروخ » وحده إلى جوار الفهد .

كان وجه الفهد يحمل علامات الحنق ولكنه ظل صامتا . وكان الاسرائيلى ينظر إليه باستجداء وهو يرتعد . وبعد فترة صمت قصيرة مرت ثقيلة ، تمتم الاسرائيلى محاولا استرضاء آسيره . ولكن الفهد رمقه بنظرة ساخرة وقال له أن أفضل مايمكن عمله هو أن يبقى لسانه في فمه . ولم يكن في وسع « باروخ » سوى أن يطيع دون مناقشة . فعلى مسافة سنتيمترات من مكانه . كانت قبضة الفهد اليسرى تمسك بسند المقعد الأمامى . وكان « باروخ » خير من يعرف وقع هذه القبضة جيدا .

غاب السنجاب في المدينة زهاء ساعة وعاد محملا بالأطعمة . ورغم أن أسنان الاسرائيلى كانت تؤلمه إلا أنه التهم طعامه بسرعة . وقد حرص السنجاب على أن يجلب خبزا طريا وجبنا ومربى لكى تكون سهلة البلع . ولم يعترض الفهد مطلقا على اشراك الاسرائيلى في الطعام . ولكنه علق قائلا أن من المؤسف أن يأكل هذا المخلوق طعاما يدفع ثمنه دافعى الضرائب في مصر !!

وبعد أن فرغ الثلاثة من تناول طعامهم انصرف السنجاب مرة أخرى ، ولم يكن في حاجة إلى أن ينبه على ضرورة عدم إلحاق الأذى بالأسير . وفي هذه المرة غاب السنجاب إلى أن حل الظلام . وعندما عاد صحب الفهد بعيدا عن العربة ووقفا على الشاطىء الرملي ، وكان بمقدور « باروخ » أن يراهما أما هما فلم يغب لحظة عن عيونهما التى كانت تومض في الظلام .

وبعد مشاورات قصيرة عاد المصريان إلى اللاندروفر ، وانطلقا بها نحو الميناء . حتى إذا ماتجاوزاه عبروا منطقة تملؤها أكواخ من القش على النمط الحبشى . وبعد دقائق توقفت اللاندروفر وأمر « باروخ » بأن يهبط بسرعة . ولدهشته الشديدة اكتشف وجود قارب مستطيل أجرب اللون تحت قدمية .

وفي سرعة وحذق دفع السنجاب والفهد القارب إلى الماء ، وقفز الضابطان وهما يدفعان « باروخ » كغرارة من الأسمنت . وقبل أن تحل الساعة العاشرة كان القارب قد توغل في البحر حتى النقطة التى حددتها رسالة القاهرة . وأخرج السنجاب مصباحا كهربائيا من جيبه وأخذ يرسل إشارات متقطعة . ومضت عشرون دقيقة دون أن يظهر في الموج أى أثر للغواصة ، واضطر الفهد الذى كان يمسك بمجداف ضخم إلى أن يدور دورة كاملة وهو يحدق في كل اتجاه . وعندما حلت الساعة الحادية عشرة كانت يداه قد أصيبتا بالتسلخ . وفي الحادية عشرة والربع أصدر السنجاب أمره بالعودة ؛

فالغواصة المصرية لم تكن هناك .

« الفصل العاشر »

« حادث في منتصف الليل »

وسط الموج المتلاطم كان الزورق الذى يقل ضباط المخابرات الثلاثة يبدو كنقطة معتمة لا وزن لها ولا تساوى شيئا . وفوق الذيل . كان الفهد يقف منتصب القامة عارى الصدر رغم أنه كان منهكا . وكانت أصابعه تؤلمه وقد تورم جلد كفيه بعد أن أجبر على الدوران في البحر زهاء ساعتين . وكان الاسرائيلى مكوما في القاع كأنه قنفد أحاط به الخطر . أما السنجاب . فكان يجلس هادئا عند المقدمة وهو يحدق في السماء وكأنه راهب بوذى استغرق في التأمل .

كان عقل السنجاب قد تحول إلى ما يشبه ماكينة صهر الصلب . فمنذ عشرين سنة . لم يحدث أن رؤساءه أخلفوا موعدا . كما أنه حرص على أن يكون موجودا في المكان والوقت الذى يحدده لمرؤوسيه . وفي مرات كثيرة . كانت مهام اللقاء أشد صعوبة . يكتنفها الخطر . ومع ذلك . لم يحدث قط أن ترك أحد الرجال لشأنه .

مرات كثيرة انتظرت الطائرات الرجال وراء خطوط العدو. وطافت سفن الصيد بالقرب من الشواطىء المهجورة تبحث دون هوادة عن المسافرين المجهولين الذين لا يحملون سوى عبارات التعارف وحتى عندما لا يكون هناك موعد، وكان أحد الرجال يجد نفسه في موقف لا يحسد عليه. كانت ذراع المخابرات تصل إليه. في اللحظة التى يكاد فيها أن يستسلم لليأس.

كان الزورق يقترب ببطء في اتجاه الشاطىء. وكانت ثياب الضباط الثلاثة مبللة. وكان الفهد يحدق في الظلام محاولا التعرف على البقعة التى نزلوا منها إلى البحر. ولم يكن الظلام والاجهاد والبلل سبب شعور المصريين بقسوة الموقف. وإنما كانت المأساه تتلخص في الاجابة على سؤال واحد هو : ما الذى حدث ؟!

أما الاسرائيلى فكانت مشكلته مختلفة. فلأنه لم يطلع على أية تفاصيل اعتقد التعس أنه تسبب. عندما حاول الهرب. في تأخير المجموعة وأن عبء فشل الرحلة كلها يقع فوق رأسه وحده. وكان عقله يعمل جاهدا في محاولة التنبؤ بالجزاء الذى سوف يواجهه. وعندما كانت قمم الموج الرغوية البيضاء تعلو حافة الزورق. كان جسده ينكمش بقوة وهو يرتجف من الذعر.

كان الصمت يخيم فوق رؤوس الأشباح الثلاثة وهدير البحر يختلط بضربات المجداف المتتالية على الجانبين. وبالقرب من الشاطىء. انزلق الزورق فوق بقعة هائلة من الزيت. المتخلف عن محركات السفن. ولمح الفهد في الأفق الأسود ضوءا هزيلا فأشار بيده. وألتفت السنجاب ولكنه لم ينطق وفي تلك اللحظة. رفع « باروخ » رأسه ليلقى نظره. وارتفعت مقدمة الزورق فحجبت الشاطىء عن عينيه. ولما استدار إلى الفهد اكتشف أنه يبتسم. نفس الابتسامة الواسعة التى تكشف عن أنيابه

وتنذر بالشر. وبدا الفهد في عينه. بقامته المديدة ووجهه المطموس الملامح. وزراعيه القويتين. وكأنه مارد أسطورى يتربص به ويضمر له أشد العداء. وفجأة وقف « باروخ » واختل توازنه ثم صرخ: أيها القتله ... يجب أن ينتهى هذا كله !!

كان الاسرائيلى قد فقد أعصابه وأفلت منه الزمام نهائيا. وبعد عدة قفزات عشوائية في بطن الزورق وضع قدمه فوق حاجز خشبى وهم بالقفز إلى البحر. ولكن الفهد عاجله بضربة من مجدافه فسقط ونو يتلوى. وكان السنجاب يراقب الموقف وقد كسا الامتعاض ملامحه. فلم يعد هناك مجال لمزيد من المشاكل. وعندما انساب بخفه نحو الاسرائيلى الذى كان راقدا في القاع. وجد أنه يخفى وجهه بيديه ويتأوه بقوة.

كان نبض « باروخ » أسرع من المعتاد. وقد علا الزبد شفتيه. وكان جسده يتقلص ويتمدد في موجات متتالية كأن به مسا من الجن. وكانت التأوهات تنبعث من جوفه على شكل حشرجة غير منتظمة. وعندما انحنى السنجاب فوقه وأخذ رأسه بين راحتيه. هتف الفهد. الذى كان يعتقد أن هذا الاسرائيلى خلق ليراوغ. مستفسرا بسخرية عما إذا كان السنجاب سيقرأ آيات القرآن في أذنيه ؟!!

ومن جديد ظهرت الشخصيات الثلاثة على طبيعتها. الحكمة في مواجهة الحماس الزائد وبينهما التخازل والضعف مجسدا في « باروخ ». فبكل حكمة الشيوخ همس السنجاب بأن الأسير غاب عن الوعى بالفعل. وارتفعت ضحكة مكتومة من الفهد وقال أنه يقترح. طبقا لقانون البحار. القاء الجثة للأسماك. وعندئذ. هدأ « باروخ » واختفت التأوهات التى كان يطلقها بقوة. واحتك قاع الزورق باليابسة.

ترك الفهد المجداف وقفز إلى الماء وأخذ يدفع الزورق أمامه. وأراد السنجاب أن ينضم إليه ولكنه رفض بحزم. وحتى عندما طفا الزورق

فوق منطقة عميقة نسبيا لم يحاول أن يستنجد بالسنجاب . وكان يغوص في الماء إلى أن تلمس قدماه الأرض ثم يقفز كالضفدع . وفي أعمق أعماقه . كان السنجاب يشعر بالفخر لأن هذا الضابط الجسور ليس سوى واحد من ضباطه .

وعندما استقر الزورق على الشاطىء وجد الفهد أن السنجاب قد شغل بالاسرائيلى فهمس أن دعه لى . ولم يكن الوقت يسمح بالتباطؤ . لذلك جذب « باروخ » بشدة وأوقفه على قدميه . ورغم أن الاسرائيلى كان زائغ البصر الا أن وجه الفهد الجامد كان حافزا قويا لأن يتقدم .

وعلى الشاطىء المقفر تحركت الأشباح الثلاثة نحو اللاندروفر . وكان الزورق قد أخطأ مكانها بحوالى ألف متر . وقال السنجاب وهو ينقل قدميه بصعوبة أن الفهد ملاح ردىء . وأجاب الفهد ضاحكا أن ذلك أفضل مما لو أنه خرج بهم على شاطىء الحبشة . وعندما وصلوا إلى اللاندروفر وجدوا زجاجها مغطى بالرذاذ وقد غاصت عجلاتها في الرمال الرطبة . وفي غضون دقائق تحولت العربة الشقية إلى سجن صغير . فبعد أن حشو « باروخ » في المقعد الخلفى أغلقت الأبواب وابتعد الضابطان حتى حافة المياه ليتشاوروا فيما بينهما . وكان منظر السنجاب مضحكا والماء يقطر من ثيابه وسراويله ملتصقة بساقيه . وكانت نظارته التى غطتها الأبخرة تحجب الرؤية بدلا من أن توضحها . وفي العربة . كان « باروخ » يحدق من وراء النافذة وهو يحاول عبثا أن يستشف مضمون النقاش من حركات الأيدى وإيماءات الرأسين . وغدا وعندما عاد الضابطان إلى العربة اكتشف « باروخ » أن الفهد يبتسم في حين كان السنجاب مقطبا . فانخرط في البكاء بحرقة .

تحركت اللاندروفر صوب المدينة النائمة ببطء . وحاول السنجاب أن يهدىء من روع الاسرائيلى بعبارات تحمل معنى الاشمئزاز أكثر من

العطف . أما الفهد فكان مشغولا بمتابعة الطريق في الظلام الدامس . اذ كان حريصا على ألا يضيء مصابيح العربة الأمامية . حتى لا يلفت الأنظار إليها .

لاحظ « باروخ » أن العربة . بعد أن اخترقت المدينة . مضت بحذاء الشاطيء صوب الصحراء . وبمجرد أن اختفت أضواء الميناء . انحرف الفهد إلى اليسار وأوغل في منطقة رملية شديدة الوعورة . وفي منخفض تحيط به الكثبان الرملية . توقف الفهد وأطفأ المحرك ثم استدار إلى الاسرائيلي وأمره أن يهبط إلى الأرض .

كانت الحوادث منذ محاولة الهروب عند البئر . قد ولدت في نفس « باروخ » انطباعا ترسخ باطراد . بأن الفهد قد قرر التخلص منه . لذلك ظن أن نهايته قد حلت . عندما أمره الفهد بأن يتقدم أمامه في الصحراء . وأثناء ارتقاء تل رملي صغير . تعثرت قدما « باروخ » وسقط وأمره الفهد بصوت خافت أن يتماسك كرجل . ولكنه مالبث أن تهاوى بمجرد أن نهض . وبصعوبة بالغة تمكن « باروخ » من الوصول إلى الناحية الأخرى من التل . وقد أمره الفهد أن يرقد !!

كان ضابط المخابرات المصرى يحتل قمة المرتفع . وكان بمقدوره أن يراقب اللاندروفر . بينما رقد الاسرائيلي على مسافة أمتار من قدميه . وكانت أنفاسه تتلاحق بعنف بتأثير الاجهاد والسهر والخوف . وعندما ألقى نظره من مكانه . وجد حذاء الفهد وراءه كتفيه العريضين . ولما أمعن البصر . اكتشف أن المصرى ينظف مسدسه . الذى أصابه البلل من مياه البحر !!

زحف الاسرائيلي فوق الرمال والدموع تنهمر من عينيه . وانتبه الضابط المصرى عندما لمس وجه « باروخ » حذاءه . وكان الأخير يتوسل بتوجع وبكلمات مضغمة غير مفهومة . وأدرك المصرى أن أسيره يعتقد أنه

سوف يقضى عليه . ورغم أنه أطلق قهقهة عالية . إلا أنه شعر بالرثاء لتهالك هذا الضابط . الذى ينتمى إلى جهاز مخابرات . واضطر إلى أن يطيب خاطره . ثم أمره أن يخلد للنوم .

كان الضباط الثلاثة قد قضوا أكثر من أربع وعشرين ساعة دون نوم . وقد اتفق المصريان على أن يتناوبا النوم حتى الحادية عشر صباحا . لكى يحصلا على قسط من الراحة . ولكى يقطعا النهار في رحلة العودة الى صنعاء . وبذلك يصلا إلى العاصمة اليمنية بعد غروب الشمس .

وفي الثانية صباحا . يوم الخميس السابع والعشرين من يوليو . جاء دور السنجاب في حراسة الأسير . وكان « باروخ » مستغرقا في النوم . ولكنه كان يفزع من حين لآخر كما لو كان تحت وطأة كابوس مخيف . وكان السنجاب يعانى من رشح أصاب أنفه بتأثير الليلة القاسية التى قضاها في البحر . ولكن هذا الرجل . كان محتفظا برباطة جأشه وكأنه يقضى نزهة خلوية في يوم عطلة .

وقبل أن تبدأ اللاندروفر رحلة العودة . أخرج الفهد من مواخرتها حقيبته وناول السنجاب قميصا نظيفا . ودهش « باروخ » عندما بدأ الضابطان في حلاقة ذقنيهما دون استخدام معجون الحلاقة . وبعد أن تبادلا صب الماء وغسلا رأسيهما . أمرا الأسير أن يحذو حذوهما . وكانت هذه أول مرة يحلق فيها « باروخ » ذقنه . منذ أن قبض عليه .

وفي العربه . وزع الفهد وجبة طعام جافة . وحاول « باروخ » في البداية أن يمتنع عن تناول نصيبه . ولكن السنجاب سأله عما اذا كان يفكر في الاضراب عن الطعام . وفي نفس الوقت . كشر الفهد عن أنيابه وهو يزمجر . فأسرع « باروخ » إلى تناول طعامه وهو مغمض العينين .

وطوال المسافة بين « الحديدة » ومدينة « مناخة » كان « باروخ » هادئا . وقد استغرق في تأملاته الخاصة . ولكن حدث أثناء تزويد

اللاندروفر بالوقود . أنه بدأ في الارتعاد وأطبق أسنانه . ثم أخذ في الصراخ بأعلى صوته . وبعد خمسة عشر دقيقة عاد الهدوء من جديد . وأدرك الضابطان المصريان أن الأسير سوف يتسبب في مزيد من المتاعب . وكان كل منهما ينظر إلى ما يجرى نظرة مختلفة .

كان السنجاب يعتقد أن « باروخ » يعانى من نوبا عصبية حادة . نتيجة فقدانه الثقة بنفسه . ولخوفه من المجهول الذى يساق إليه . بعد فترة حبس طويلة . وكان الفهد تقنعا بأن « باروخ » يمثل مسرحية هو بطلها الوحيد . وأنه وإن كان مريضا بالفعل إلا أنه يغالى في إظهار الخلل الذى أصاب أعصابه .

ونوقشت مسألة مرض الأسير لأول مرة . عندما توقفت العربة في نفس المنطقة التى حاول فيها « باروخ » أن يهرب . فبعد أن اغتسل الضابطان أمرا الأسير أن يجلس على مرمى حجر من مكانهما . وأخذا في الحديث همسا . وقال الفهد أنه يعرف « باروخ » أكثر من نفسه . وحذر بشدة من مغبة تركه ليسترسل في أداء الدور الذى يمثله .

وفجأة . استدعى السنجاب الأسير . وأمره أن يجلس أمامه . وبعد أن تفرس في وجهه قال له بصوت هادىء النبرات . أن مشكلة مهينة قد طرأت على الموقف . وأن عملية نقله الى القاهرة قد اكتنفتها المصاعب . كما أنه أصبح مصدراً للقلق نتيجة لمرضه الذى سوف يؤدى إلى افتضاح أمرهم . لذلك استقر الرأى على التخلص منه ! ! !

أنتبهت حواس الآسرائيلى وفتح عينيه على اتساعهما . وكان وجه ضابط المخابرات المحنك الجالس في مواجهته . ينم عن صدق كل كلمة تفوه بها . وبعد فترة صمت ساد خلالها جو من الحزن . المشوب بالانقباض . قال السنجاب أن زميله هو صاحب القرار . وأنه حاول

جاهدا أن ينقذ رأس المسكين الذى يشترك معها في نفس الحرفة . رغم أنه في صفوف العدو . ولكن جهوده ضاعت هباء !!

نقل « باروخ » بصره بين السنجاب والفهد . الذى كان يرمقه بنظرات عدائية تثير الرعب . ويبدو أنه فكر في مواصلة دوره . إذا ارتعشت شفته السفلى واختلجت عضلات عنقه . ولكن الدموع انهمرت بغزارة من عينيه . وقال بصوت واهن أنه يتعهد بألا يثير أية مشاكل بعد الآن . وأنه على استعداد لأن يفعل أى شىء مقابل الابقاء على حياته .

وعلى الفور . انضم السنجاب إلى « باروخ » . وقال أنه يضمن تنفيذ هذا التعهد وأفاض في وصف حالة الأسير النفسية . وأشار الى أن له أسرة تنتظر عودته . وأن كونه ضابط مخابرات يمنحه الحق في أن يعامل معاملة خاصة وأضاف « باروخ » أنه تعاون باخلاص وأنه أدلى بمعلومات لا تقدر بثمن ولكن الفهد كان يبدو وكأنه لا يسمع !!

كانت الشمس تغيب وراء قمم الجبال الشاهقه . وكان « باروخ » جالس القرفصاء، ووراءه نفس المنحدر الأخضر الذى اختفى فيه من قبل . وكان صوت ترقرق الماء من البئر أشبه بموسيقى تصويرية لمشهد جبائزى بشع . وازداد المشهد بشاعة عندما قال الفهد وهو يضغط الكلمات بقسوة . وان الخيار الوحيد المطروح الآن . هو طريقه إنهاء المسألة بهدوء . ومن غير مزيد من الآلم !!

اندفع الاسرائيلى في موجة بكاء عارمة . وكان نشيجه يعبر عن مدى الرعب الذى سيطر عليه ولكنه واصل التوسل . وأقسم بالتوراة . وحاول أن يقبل قدمى الضابط المصرى الذى كان ينظر إليه بسخرية مريرة . والذى كان دراية تامة بألاعيبه . وفي النهاية . اتجه بتوسلاته الى

السنجاب ، الذى كان يبدو متعاطفا معه . كما كانت ملامحه تنم عن أن قلبه يتمزق !!

وأمام ضغوط السنجاب ، وتوسلات الاسرائيلى ، ارتضى الفهد أن يتخذ قراره بالعفو . ولكنه اشترط أن يعترف « باروخ » بأن أعصابه على مايرام ، وأن يمتنع عن عرض مسرحيته الهزلية مستقبلا ، وحذر بحزم من أن أية مراوغة قادمة ، سوف تكون الأخيرة .

واعترف « باروخ » صراحة أنه لجأ إلى هذه التصرفات ليستدر العطف . ولكنه أصر على أن الضعف قد بدأ يزحف إلى عقله بالتدريج . وادعى أنه يعانى من صداع حاد في مؤخرة رأسه . وعندئذ ، أمره الفهد أن يتجه الى العربة وأن ينتظر هناك .

وقف المصريان معا فوق صخرة على حافة البئر . وهنأ السنجاب تلميذه بحرارة . وقال الفهد أن الاسرائيلى رغم كل هذه الدموع سوف يلجأ في أول فرصة الى الخداع . وكان السنجاب يتعجل الوصول الى صنعاء ، ليعرف السر في فشل رحلة الغواصة . وليتصل بالقاهرة لينسق معها خططه ، وبجوار اللاندروفر كان « باروخ » ينتظر هذا القرار ، الذى كان بالنسبة له ، مسألة حياة أو موت ، دون أى قدر من المبالغة .

وبانتهاء المشاورات نادى الفهد على « باروخ » . فأسرع إليه ووقف أمامه وقفة عسكرية - وأعلن الفهد بصوت تشوبه نبرة أسف أنه قرر الابقاء على حياته ، وقال أن هذا القرار اتخذ تقديرا لظروفه الشخصية . ومن جديد ، انهمرت دموع الاسرائيلى وتمتم بكلمات الشكر ، وتحرك الضباط الثلاثة إلى العربة .

ساد جو من المودة بعد هذه المحاكمة السريعة ، التى كانت صورية بالطبع ، ودار حديث ضاحك بين السنجاب وباروخ ، أما الفهد فكان يتطلع إلى المرآة من آن لآخر ويبتسم ، وعلى الجانبين ، كان الرعاة

اليمنيون يظهرون بين الصخور وهم يدفعون قطعانهم . صاعدين في الممرات الجبلية الوعرة . نحو القرى المبنية فوق السحب .

ومع انسدال ظلمة الليل . ضغط الفهد زر الراديو . وبحث عن صوت مصر . وتوقف المؤشر أمام محطة « كول كاهير » وهى إذاعة باللغة العبرية بثتها القاهرة . وقال « باروخ » ضاحكا أنه كان يفضل الأستماع إلى هذه الاذاعة . ولكن المصريين لم يعلقا . وعندما جاء صوت إذاعة القاهرة . كان المذيع يقرأ نشرة أخبار . ودهش الضباط الثلاثة . عندما قال المذيع . أن أمين الجامعة العربية . محمود رياض قد قطع زيارته لصنعاء فجأة . وعاد إلى القاهرة !!

وبعد إغلاق الراديو ساد الصمت جو العربة . التى كانت مندفعة بأقصى سرعتها على الطريق . وكانت أنوارها الأمامية ترسم في المنحنيات ظلالا وحشية لمعالم الأرض . وكان السنجاب يدخن ويتأمل وميض سيجارته في الزجاج . وبعد منطقة موحشة ترقد فيها دبابة محطمة في منخفض على يمين الطريق مباشرة . شاهد الفهد عربة صغيرة تقف إلى اليسار وثمة رجل يلوح بمنديل أبيض . أحدث صرير فرامل اللاندروفر دويا عاليا وسط سكون الجبال . وآفاق السنجاب وهرش في مؤخرة رأسه . أما « باروخ » الذى كان نائما . فقد ذعر بشدة وكاد أن يرتطم بمسند الفهد . وسأله عما يجرى ولكن الفهد لم يرد بل فتح باب اللاندروفر وقفز إلى الأرض .

اتضح أن العربة المعطلة تقل أسرة عدنية . وقد تطوع الفهد لمساعدة رب الأسرة الذى راح يثرثر مستفسرا عن سبب وجود مصريين على هذا الطريق في وقت متأخر من الليل . وقال الفهد أنه وزميلين من التجار وأنهم استطعوا أسواق الجديدة وسوف يقضون أسبوعا في صنعاء .

واكتشف الفهد أن العربة ليس فيها وقود فعاد إلى اللاندروفر وأحضر وعاء وسأل العدنى عما اذا كان لدية « خرطوم » فأجاب بالنفى . واضطر ضابط المخابرات المصرى الىَ فك ماسورة البنزين في اللاندروفر وبعد أن امتص بفمه كمية مناسبة من السائل اللاذع . تدفق البنزين بقوة :

انتهز السنجاب فرصة التوقف وتسلق مرتفعا صخريا ثم أختفى وراءه . وبعد دقائق عاد وهو يمسح رأسه بمنديله وقال « باروخ » أنه يود أن يهبط ليتخلص من فضلات جسده : فأذن له السنجاب . وعندما عاد الفهد الى اللاندروفر سأل بلهفة عن « باروخ » وقبل أن ينطلق بحثا عنه ظهر شبحه فوق قمة المرتفع .

ومن المؤكد أن « باروخ » عانى من آلام نفسية مروعة . بعد تلك الحادثة . فقد اكتشف أن المصريين يضمان جوانحها على مشاعر إنسانية نبيلة . كذلك كانت اللحظات التى انهار فيها وظهر ضعفه بشكل قبيح . تؤرقه وتترك في نفسه إحساسا بالصفة . وكان وجوده مع اثنين من الضابط المصريين . قد ولد لديه شعورا طاغيا بضآلة قدراته . كان قزما يتجول مع أنثين من العمالقة .

فبعد مضى ساعة من هذه الحادثة . لاحظ السنجاب أن « باروخ » أطلق آهة مكتومة . وعندما ألقى نظرة . وجد جاره متكئا على النافذه وقد طرح رأسه على مسند مقعده . فسأله عما اذا كان بخير ولم يتلق أية إجابة . وعندئذ مد يده وأدار ذقن الأسير بحدة . وفي تلك اللحظة رأى سيالا من الدم ينساب فوق قميص . فصاح طالبا من الفهد أن يتوقف ويضىء أنوار العربة الداخلية .

توقفت اللاندروفر واكتشف الضابطان أن « باروخ » قطع شرايين يده اليسرى . مستخدما قطعة معدنية رقيقة من النوع الذى ينتزع من

سطح علب العصير لفتحها ، وكانت الدماء تتدفق بشكل مخيف من معصمه ، وأضطر الفهد إلى إيقاف النزيف بوضع شريط لاصق ـ من الأشرطة التى تستخدم في لحام الأسلاك الكهربائية ـ ثم ربط المعصم بقطعة من القماش .

كان تلك الاسرائيلى في شبه غيبوبة بعد أن نزف كمية كبيرة من الدم ، ولم تكن محاولة الأنتحار تدخل ضمن تعهداته بألا يثير المتاعب ، ومن الغريب أن قلب الفهد رق له بعد أنتحاره ، فقد كان هذا هو أمل عمل يتسم بالشجاعة ، يقدم عليه الاسرائيلى منذ أن التقيا معا .

من الغريب أيضا أن « باروخ » اعتذر بمجرد أن أفاق من غيبوبته عن هذه الفعلة النكراء ، وقال له الفهد أنه ليس غاضبا عليه ، لأن هذا هو التصرف الأمثل عندما يسقط ضابط المخابرات . ولكنه شفع هذا الاطراء بقوله ، بأن مشكلة « باروخ » أنه لم ينتحر منذ أو لحظة سقط فيها ، لأن انتحاره الآن ، لن يجدى شيئا وحرص السنجاب من جانبن على تغذية « باروخ » ، فزادت جرعات عصير الفواكه التى كان يبتلعها ، وسمح له بالهبوط من العربة أكثر من مرة ، ليستلقى على الأرض ، عندما كان يشعر بضيق فى نفسه ، بل ان السنجاب تخلى له عن المقعد الخلفى ، وجلس بجوار الفهد .

وخلال ساعتين كان « الاسرائيلى » قد تمالك نفسه ، ولكنه كان يبكى بحرارة ويتأمل ذراعه المخضبة بالدماء ورسغه المربوط ، وقد اعترف بأنه يشعر بجرم كبير بسبب خداعه المتواصل للمصريين ، الذين كانا كريمين معه للغاية وقال أنه لم يكن في كامل وعيه عندما مزق جلد معصمه ، ولكن بمجرد أن رأى الدم ، انتابته رغبه عارمة لكى يزيد من عمق جروحه .

واطلع الاسرائيلى على أول معلومة بشأن الرحلة التى كان من المقرر أن يقوم بها . الى القاهرة . عندما شكا السنجاب من الارهاق الناجم عن السفر المتواصل . فقد أجاب الفهد بأنه كان سيعود في نفس الطريق حتى لو لم تفشل خططهما . وأدرك « باروخ » أنه كان سيصحب هذا السنجاب الطيب القلب . وتمنى في قرارة نفسه لو أن هذا الحلم تحقق .

ومن الأمور التى تدفع على التأمل . تلك العلاقة العجيبة التى نمت بين « باروخ » . وضابط المخابرات المصرى القديم . فقد بلغ من تأثير السنجاب ، أن « باروخ » كان يشعر بالسعادة عندما يقع بصره عليه . وفيما بعد . كان السنجاب هو الوحيد من بين ضباط المخابرات المصريين . الذى يحرص على قضاء أطول وقت ممكن مع « باروخ »كما كان دائب الاستفسار عنه عندما يتغيب .

وفي نفس الوقت . لم يحاول « الاسرائيلى » أبدا أن يرفع عينيه الى الفهد . فقد كان هذا الضابط الذى عامل « باروخ » بشهامة في البداية يمقت ألعابه الساذجة ومحاولاته الدائبة للافلات . وقد حرص على أن يظهر له مقته لكى يسقط الاسرائيلى أسير عطف السنجاب . وكان ذلك منطقيا . لأن « باروخ » كان يشعر بالتفاوت الشديد بينه وبين الفهد من حيث القوة البدنية . لذلك فضل مصادقة السنجاب الذى كان أقرب إليه . بحكم سنه على الأقل .

وكان لا بد لمحاولة الأنتحار أن تترك أثرها على جو العربة . طوال الرحلة نحو صنعاء . وكان « باروخ » يشرد عن أفكاره ولا ينتبه إلا عندما يناوله السنجاب علبة عصير أو بعض الطعام . وكان السنجاب حزينا بسبب فشل عملية نقل الأسير عن طريق البحر . أما الفهد فكان مشغولا بمتابعة الطريق وهو يندفع بسرعة رهيبة حتى في المنحنيات الخطرة .

وفي الحادية عشره والنصف . ظهرت أضواء صنعاء ، واندفعت العربه في منحدر حاد وهنأ الفهد رفاقه بسلامة الوصول . لكن « باروخ » الذى كان يعرف أن الوصول الى صنعاء ليس خاتمة المطاف . ظل مستغرقا في شروده وقد اتكأ بذارع الجريمة على النافذة .

ومرة أخرى وقفت اللاندروفر أمام سدادة الطريق ، التى تقع عندها نقطة الشرطة العسكرية ، عند مدخل المدينة ، واقترب جندى الشرطة ليلقى نظره فناوله السنجاب جوازات السفر . وعلى ضوء مصباح يدوى ، راجع الجندى بيانات جواز السنجاب وسلم له . ودار الى الناحية الأخرى ليسلم الفهد جوازه ، وعندما وقف تحت نافذة السيارة التى يجلس بجوارها « باروخ » رفع رأسه نحوه فوجد ذراعا مخضبة بالدم فوقه مباشرة .

وكان مشهد الدم مثيرا بدرجة أكثر حدة عندما أمر الجندى الركاب الثلاثة أن ينزلوا من العزبة . فقد كان قميص « باروخ » ملطخا ببقعة دم غطت نصف صدره وعلى الفور انضم اثنان من الجنود الى زميلهم ، وأحاطوا بالضباط الثلاثة وقد صوبوا نحو صدورهم فوهات البنادق ، ثم أمروهم أن يدخلوا الى مقر نقطة الشرطة وأصدروا الباب باحكام .

وعندما دقت الساعة معلنة منتصف الليل ، كان اثنان من ضباط المخابرات المصرية ، ومعهم ضابط مخابرات اسرائيلى غارق في دمائه ، مسجونين في غرفة صغيرة من الأسمنت ، تحت حراسة الشرطة العسكرية اليمنية !!

الفصــــل الحـادى عشر

« الاستعدادات تبلغ ذروتها »

بينما كان أثنان من ضباط المخابرات المصريين . ومعهما ضابط المخابرات الأسرائيلى . باروخ مزراحى . محتجزين في غرفة صغيرة من الأسمنت . عند مشارف صنعاء . كانت استعدادات المخابرات الاسرائلية . قد بلغت أقصى ذروتها . وكان واضحا . أن الاسرائيلين قد قرروا أن يحضروا الى آخر الشوط . حتى لا يصل ضابطهم الأسير حيا الى القاهرة .

ففى صباح الأربعاء السادس والعشرين من يوليو . وصلت الى رئاسة المخابرات المصرية . معلومة على جانب كبير من الخطورة . وكان ملخصى التقرير الذى عرض على المشير أحمد اسماعيل في الساعة الثامنة صباحا . أن القوات الجوية الاسرائيلية . نقلت الى مطار إيلات . في النقب الجنوبى . سريا من طائرات الهيليوكبتر . المجهزة للعمل ضد الغواصات !!

وعلى الفور أجرت المخابرات اتصالا سريعا بقيادة السلاح البحرى . وأرسلت برقية عاجلة الى الغواصة ٦١٢ ، التى كانت مكلفة بنقل الأسير . وكان محتوى البرقية أمرا الى القبطان . بأن يبحر عائدا الى خط سيره الأصلى . وهكذا . اختفت الغواصة قبل أن يصل ضباط المخابرات الثلاثة . الى مكانها الذى سبق تحديده في البحر .

والى الشمال من ميناء إيلات في صحراء النقب . اكتشفت عيون المخابرات المصرية معسكرا أقيم على عجل لتدريب مجموعات من اليهود اليمنيين على عمليات الاغارة . وكانت الوجوه التى تختفى من هذا المعسكر تظهر في أديس أبابا . وأوضحت هذه المعلومات أن الاسرائيلين يستعدون لتوجيه ضربة قاصمة . بمجرد أكتشاف مكان « باروخ » . ومع هذه المعلومات تدفقت بشكل منتظم البيانات الخاصة بالدوريات الجوية فوق البحر الأحمر . وظهرت على خرائط غرف العمليات . في رئاسة المخابرات المصرية خطوط حمراء متشابكة توضح مسار طائرات العدو . ولوحظ مرات عديدة أن العدو يكثف نشاطه الجوى في الجنوب بمجرد اقتراب أية طائرة من المجال الجوى المصرى .

ومن الاستعدادات الاسرائيلية . اكتشف المصريون أن النبأ الذى نشرته صحيفة الأهرام عن وصول « باروخ » الى القاهرة . صباح الاثنين الرابع والعشرين من يوليو . لم يحدث أى أثر . وانقسم الضباط المصريون الى فريقين . فريق يعتقد أن الخدعة لم تنطل على الاسرائيليين . وفريق يؤكد بقوة أن الأسرائيليين لم يقرءوا هذا النبأ أصلا .

ويبدو أن جهاز المخابرات في القاهرة . كان ينوى نقل « باروخ » ، عبر أراضى دولة أو دول أخرى . فبعد أن فشلت خطة نقله عن طريق البحر . تقدمت وزارة الداخلية المصرية . بمشروع قانون جديد للجنسية .

ونص هذا القانون الذى صدر بسرعة غريبة . على أن المصرى هو من كان متمتعا بالجنسية المصرية . في الثانى والعشريين من فبراير سنة ١٩٥٨ .

ومما يلفت النظر . أن الجنسية المصرية أسقطت عن « باروخ » في الثالث والعشرين من فبراير من نفس السنة . أى بعد التاريخ الذى حدده القانون الجديد بيوم واحد !!

ولا شك أن التفسير الوحيد . لهذا الاجراء المفاجىء . هو أن المصريين عمدوا الى هذه الخطوة . حتى يتجنبوا حدوث أية تعقيدات . اذا اكتشف « باروخ » أثناء نقله في أراضى اجنبية . اذ اصبح بمقدور الحكومة المصرية أن تزعم . أن الضباط الثلاثة . بما فيهم الضابط الأسرائيلى . يتمتعون بالجنسية المصرية ! !

ولعل أغرب ما حدث . في غمار الحوادث المتلاحقة . هو ما جرى في باريس . في الثامن والعشرين من يوليو . فقد تعرض موكب الملك الحسن ملك المغرب . أثناء عودته من اقليم « بورجيه » في شمال فرنسا . لوابل من طلقات الرصاص . وأصيب في الحادث بعض مرافقى الملك . ولكنه شخصيا لم يصب بأى أذى !!

وفي نفس الوقت . وصل الى مبنى السفارة المصرية . الكائن في شارع « دى بينا » . رجل فرنسى طويل القامة . يغطى عينيه بنظارة قاتمة . ويحمل في يده حقيبة أوراق منتفخه . وقال هذا الرجل . أنه يرغب في التحدث الى شخص مسئول . في مسألة على أقصى درجة من الأهمية . وأضاف . أن من الافضل ان يلتقى بالسفير نفسه !!

كان اليوم جمعة . وكانت موظفة الاستعلامات مشغولة باتصال تليفونى مع السفارة المغربية . وقد ظل الرجل الطويل واقفا والقلق يغمر ملامحه . وعندما طلبت منه بأدب جم أن يجلس . قال أنه في عجلة من أمره . وأنه لن يستطيع البقاء لأكثر من ربع ساعة . فاذا كان هناك

مايبرر التأخير، فإنه يفضل الحصول على موعد عاجل بعد ظهر نفس اليوم .

تحدثت موظفة الاستعلامات في التليفون . ورجت الفرنسى القلق أن ينتظر . وبعد ثلاث دقائق . وصل الى مكتبها شاب طويل القامة أشبه بنجوم السينما . وقد اتجه مباشرة الى الضيف الفرنسى وطلب منه أن يتبعه .

دخل الرجلان معا الى غرفة صغيرة رمادية اللون . في الطابق الأرضى . ولاحظ الضيف أن الشاب يتفرس في وجهه وكأنه ينتظر منه أن يبدأ الحديث . فأجال بصره في الغرفة . ورفع ذقنه بحدة ثم هتف .

ـ حسنا . اننى موفد من قبل الاسرائيليين .

ـ الاسرائيليين ؟!

ـ نعم . هذا هو ماقلته بالضبط .

كان الشاب المصرى يبتسم . ولكنه قطب جبينه . ولاحظ الضيف أنه يجيد الحديث بالفرنسية . وبعد فترة ساد فيها الصمت عاد الفرنسى الى الحديث :

ـ ان لدى رسالة ... أعنى ... هم يعرضون صفقة .

ـ إننى أنصت ... استمر .

ـ إننى محامى . اسمى جاك مرسيه .

ـ أهلا بك .

ـ لقد وكلونى للدفاع عن شخص ما ... شخص في حوزتكم .

ـ آه .... اننى أدرك مثل هذه المسائل . تقصد « متهم » .

ـ لست أعرف وجه الدقة ... ولكنى أود أن أناقش الأمر مع مسئول مفوض .

ـ لا ... ان هذه المشاكل لا تحل على هذا النحو .... أود أن أعرف التفاصيل .

ـ ليس لدى تفاصيل كثيرة . يا سيدى . كل ما لدى أنهم يعرضون الأفراج عن أربع فتيات مقابل « المتهم » .

ـ فتيات ؟!

ـ نعم ... هذا هو ما دفعنى الى الحضور . الفتيات موجودات الآن في السجن . وقد قبض عليهن في عملية من عمليات المقاومة ....

كان المصري ينصت باهتمام . وفجأة . استدار الى جهاز تليفون موضوع فوق مائدة صغيرة وبعد أن تحدث بصوت هامس لمدة دقيقة واحدة . عاد إلى محدثه وقد بدا الجد على تقاطعيه وواصل المحامى حديثه :

ـ إن الفتيات فرنسيات ياسيدى . وقد تحمست كثيرا لأداء هذه المهمة . أنت تقدر طبعا مثل هذه المواقف أليس كذلك ؟!

ـ بكل تأكيد ... ومن المتهم ؟!

ـ باروخ مزراحى ...!!

ـ آه . يبدو أنه اسرائيلى .

ـ نعم ... بالطبع ... لذلك عرضوا عرضا مغريا .

واتفق الرجلان على أن يلتقيا . في نفس الموعد بعد أربع وعشرين ساعة . ووعد المصرى بعرض الأمر على السلطات في القاهرة .

وبعد انصراف المحامى جاك مرسيه من مبنى السفارة . أرسلت برقية عاجلة الى وزارة الخارجية . بالقصة كلها . وعندما عرضت البرقية على المخابرات . دهش الضباط المضريون أيا دهشة . فقد كان معنى الصفقة المقترحة . أن الاسرائيلين ليسوا واثقين من وجود « باروخ » في اليمن . ورأى المشير أحمد أسماعيل . أن الهدف من العرض الاسرائيلى . قد يكون

محاولة بارعة لاستكشاف الموقف . وعلى هذا الاساس . تقرر مواصلة المحادثات مع جاك مرسيه . على أن تدار هذه المحادثات . بحيث يمكن الاستفادة منها . في استطلاع معلومات المخابرات الاسرائيلية عن الموضوع برمته .

كانت اسرائيل تخشى أن يكون المصريون قد نجحوا في نقل « باروخ » . في غفلة من عيونها التى أنتشرت في المنطقة . ولم يكن مستبعدا . أن ينقل المصريون الأسير عن طريق رأس الرجاء الصالح . وفي هذه الحالة . كان من الضرورى مراقبة الوحدات البحرية المصرية في البحر المتوسط . فإذا ما تأكد أن « باروخ » موجود على ظهر أى منها . يمكن اتخاذ إجراء حاسم . مهما كانت العواقب .

وقبل الموعد المحدد لوصول « جاك مرسيه » الى السفارة . بساعة ونصف ساعة . اتصل شخص مجهول بالسفارة عن طريق التليفون . وقال أن لديه رسالة هامة . ورفض أن يفصح عن أسمه أو هويته. ثم قال أن من الأفضل . أنهاء موضوع « المتهم » الاسرائيلى لأن اسرائيل . لن تتورع عن الهجوم بالقوة المسلحة . لأستعادة الأسير وعندما حاول المصريون إطالة زمن المحادثة . وضع المتحدث سماعة التليفون !!

وفي نفس الغرفة الرمادية . التى شهدت اللقاء الأول . اجتمع المحامى الفرنسى مع « الدبلوماسى » المصرى الذى كان منشرح الصدر . وقد رحب بضيفه بحرارة . وأبلغه أن القاهرة لم ترد بعد على الرسالة العاجلة التى أرسلها . والتى تتضمن العرض الاسرائيلى . وأنه يرى أن يرسل الى القاهرة مزيدا من التفاصيل . وقال « جاك مرسيه » أن « باروخ » مواطن اسرائيلى ضبط في اليمن وهو يلتقط عددا من الصور السياحية !! . وأضاف أن اسرائيل لديها معلومات مؤكدة بأن « باروخ » قد سلم الى السلطات المصرية .

وقال « الدبلوماسى » المصرى أن هذه المعلومات . لو كانت دقيقة . فإن « المتهم » لابد أن يقوم للمحاكمة . أمام المحاكم المصرية . وفي هذه الحالة . يستطيع جاك مرسيه أن يسافر ليترافع في القضية . طبقا للقانون . أما اذا تعذر عليه السفر . فإن بمقدوره أن يوكل محاميا مصريا . ليقوم بالمهة نيابة عنه .

وعقب جاك مرسيه بأن المشكلة أن السلطات المصرية لم تعلن عن تقديم المتهم للمحاكمة . كما يحدث عادة . وأن اسرائيل تخشى أن يتعرض « للاجراءات المعروفة » عندما تحاط الأمور بالسرية المطلقة . واستطرد أن الرجل فيما يبدو يتمتع بأهمية بالغة في نظر الاسرائيليين . وذلك على هذا الاعتقاد بأن الاسرائيليين عاودوا الاتصال به . وعرضوا أن يفرجوا فورا عن مجموعة من الاسرى المصريين . الذين وقعوا في قبضة الجيش الاسرائيلى أثناء الغارات التى يتبادلها الجانبان . ويتكتمان أنباءها .

وسأله « الدبلوماسى » المصرى عما إذا كان العرض الجديد يتضمن أيضا الافراج عن الفرنسيات الأربع . فأجاب بالايجاب . ولكن المصرى اقترح أن يستوثق المحامى الفرنسى من هذه النقطة . لأن القاهرة تهتم بالرعايا الفرنسيين . ولأن وجود أربع فتيات في قبضة السلطات الاسرائيلية ليس من الأمور التى تبعث على البهجة .

وفيما يتعلق بالدفاع عن المتهم . قال المحامى الفرنسى . أنه يتخذ الاجراءات القانونية ليوكل أحد المحامين المصريين . لكى يتولى هذه المهمة . أمام المحاكم المصرية . اذا فشلت الجهود المبذولة للافراج عنه .

وتعددت الاتصالات بين المحامى الفرنسى . والسفارة المصرية في باريس . وقد طالبت القاهرة ببعض الايضاحات الضرورية . قبل أن ترد على عرض المحامى الفرنسى . وكان على المحامى الفرنسى أن يتصل

بالاسرائيليين . ليسألهم عن اسم المتهم بالكامل . ورقم جواز سفره . والجهة التى أصدرت هذا الجواز . ثم . جاء أهم سؤال في قائمة الأسئلة التى طلب المصريون الاجابة عليها . وهو . كيف وصل هذا المواطن الاسرائيلى الى اليمن ؟!!

أسقط في يد الاسرائيليين عندما اطلعوا على هذا السيل من الاستفسارات . وأدركوا أن المصريين يقودونهم الى شرك بالغ الغرابة . فبدلا من أن يحصلوا على معلومات عن موقف ضابطهم . كان عليهم أن يتطوعوا بتقديم المعلومات للمصريين . وفي محاولة يائسة للتملص من هذا الشرك . أرسل الاسرائيليون بأنهم لا يرغبون في مناقشة التفاصيل . ولكنهم يرغبون في معرفة رأى القاهرة . في الصفقة التى يقترحونها .

كان المحامى الفرنسى هو همزة الوصل . بين المصريين والاسرائيليين . في تلك المفاوضات البالغة السرية . والتى لم يعلن عنها قبل الآن . وقد لاحظ الفرنسى المهذب .أن الاسرائيليين يتعنتون بشكل غير مقبول ، فرغم انهم هم الذين طلبوا الاتصال بالسلطات المصرية . الا انهم يرفضون معاونته لكى ينجز مهمته .

وكما كان الاسرائيليون متعنتين اتخذ المصريون موقفا متشددا الى أقصى حد . فقد رفضوا مناقشة أى جانب من المسألة قبل الاجابة على اسئلتهم . وكان منطقهم صائبا يتسم بالقدرة على الاقناع . فقد سألوا المحامى الفرنسى عما اذا كان يوافق على أن يتوسط للافراج عن شخص مجهول . وأضافوا . أن البيانات المطلوبة ضرورية تماما ، فمن غير هذه البيانات . تصبح العملية أشبه بالبحث عن سمكة سردين في المحيط !!

وإزاء تصلب المصريين . وافق الاسرائيليون على أن يقدموا المعلومات المطلوبة . ولكنهم لم يرسلوا سوى اسم المتهم ورقم جواز سفره . أما بقية

البيانات فرفضوا تقديمها وبرروا هذا الرفض . بأنهم لا يستطيعون تقديم الدليل . على قيام هذا المواطن بعمل غير مشروع في أراضى دولة عربية !!

واضطر المصريون الى اعلان عزمهم على نسيان الموضوع نهائيا . كنوع من العقاب على المراوغة الاسرائيلية المتواصلة . وعندما أبلغ هذا القرار الى الاسرائيليين . عادوا وأبدوا استعدادهم لتحقيق رغبة القاهرة . بشرط أن يتلقوا ما يفيد بشكل قاطع أن « باروخ » موجود بالفعل في قبضة المصريين .

ومن جديد لجأ المصريون الى اتخاذ موقف عنيف . فأجابوا بأنهم يطلبون بيانات عن المتهم . لكى يبدأوا التفاوض بشأن الافراج عنه . اذا كان موجودا بالفعل . ولكنهم ألمحوا الى ان العرض الاسرائيلى ليس مغريا . وقالوا أنهم يفضلون في حالة الوصول الى اتفاق . أن يكتبوا قائمة بأسماء الاشخاص الذين يرغبون في مبادلتهم بالمتهم !!

ولم تسفر المفاوضات التى جرت في باريس . عن أية نتائج . وان كانت هذه المفاوضات قد حققت فائدة عظمى للمصريين فيما بعد . فقد قدروا مدى لهفة اعدائهم للحصول على « باروخ » وأصبحت في حوزتهم قائمة ثمينة بأسماء السجناء في اسرائيل . الذين يمكن استعادتهم في الوقت المناسب .

ومن الغريب أن محور هذه المفاوضات المرهقة . كان موجودا في اليمن وليس في القاهرة . فمنذ منتصف ليل الخميس السابع والعشرين من يوليو . عندما أمرت الشرطة العسكرية اليمنية الضباط الثلاثة بأن يدخلوا الى غرفة الحراسة . أصبح « باروخ » تحت تصرف السلطات اليمنية من جديد !!

كان الفهد مكتئبا بعد أن انتهت جهوده الى فشل ذريع . وكان « باروخ » جالسا القرفصاء وقد اكتشف ملامحه باللا مبالاة . ومن المؤكد أن الاجهاد والرحلة الرهيبة التى عاشها بكل تفاصيلها قد أدت الى اصابته بالبلادة . فاستسلم لمصيره استسلاما كاملا .

وطول الليل كان السنجاب يطل بوجهه الهادىء من وراء قضبان غرفة الشرطة . وهو غارق في التفكير . وعندما كان الفهد يقترب ويقف بجواره . كان النقاش يدور همسا بينهما حول نقطة واحدة . فرضت نفسها على الرجلين . فقد كانا قلقين من أن تقرر الحكومة اليمنية . محاكمة « باروخ » في صنعاء . مادام المصريون قد عجزوا عن نقله إلى القاهرة .

وقبل الفجر حمل اليهم جندى الشرطة نبأ مقبضا . فقد فتح الباب بعنف وسأل عمن يكون صاحب اللاندروفر . وأجاب السنجاب بأنه هو . فسأله عن السبب في أن عربته تحمل لوحة معدنية واحدة . ولما لم يتلقى

أية اجابة . أعلن أن هذه المخالفة تستوجب تسليمه لادارة الامن العام . لتتولى التحقيق معه .

كانت التعقيدات تتفاقم باضطراد . وكان السنجاب يأمل في أن يبقى الضباط الثلاثة معا حتى يتمكن من التصرف . وبعد تشاور مع زميله . الذى كان يبدو مثل أسد حبيس جائع . استقر رأيهما على أن يبذلا كل جهدهما حتى لا يجرى تسليمهم للسلطات المدنية . وكان السنجاب مصرا بقوة على الا يطلب عون السفارة المصرية . مهما كانت الظروف !! وقد طلب أن يعرض موضوعهم على رئيس الاركان بأقصى سرعة .

وفي الصباح الباكر حضر الى مقر الضباط الثلاثة . أحد ضباط الشرطة العسكرية . واطلع على جوازات السفر . ثم سأل عن سبب احتجازهم . وأجاب جنود الحراسة بأنهم لا حظوا الدماء النازفة من المدعو « موسى » وكان جواز سفر باروخ يحمل اسم موسى زكى سلامه !!

ووجه ضابط الشرطة أسئلة الى « باروخ » . الذى كان زائغ البصر واهنا . ولكنه أجاب بأن يده جرحت عفوا عندما كان يحاول فتح علبة تونة مستخدما مدية حادة . ولكن ضابط الشرطة لاحظ أن « باروخ » ينظر بخوف الى الفهد . كما أنه كان يرتعد بشدة دون سبب ظاهر .

وجاء دور السنجاب الذي كان يرقب الموقف من مكانه بجوار النافذة . ولما سئل عن سبب قيادته لسيارة تحمل لوحة معدنية واحدة . أجاب بأن من المحتمل أن تكون اللوحة الخلفية قد سقطت في الطريق . من الحديدة الى صنعاء . وحدثت الكارثة المتوقعة عندما طلب ضابط الشرطة من السنجاب أن يطلعه على « ترخيص » اللاندروفر . ولم تفلح كل المحاولات التى بذلها السنجاب . للتخلص من المأذق ، فقد كانت العربة واقفة تحت النافذة . ولأول مرة بدا منظرها مثيرا للكراهية . وكان على السنجاب الذى اعترف بأنه صاحبها . أن يبرر قيادته لها بدون ترخيص . وفي نفس الوقت . كان « باروخ » يثير الريبة بهيئته التى تدفع على الرثاء . وبقميصه الملطخ بالدم . ونظراته الوجلة التى تنم عن خوف دفين .

وبعد انصراف ضابط الشرطة . الذى صارحهم بأن موقفهم ليس سهلا . انهمك السنجاب وزميله في مناقشة هامة . وكان رأى الفهد . الا مخرج من هذه الورطة الا بالاتصال بالسفارة . التى تستطيع أن تبذل مساعيها للافراج عنهم . ولكن السنجاب كان متشبثا برأيه . ففضلا عن

رغبته في تجنيب السفارة أية مشاكل . كان يعتقد اعتقادا راسخا في ضرورة ابقاء الامر سرا وفي أضيق نطاق .

وفي السفارة المصرية كان الدبلوماسى الذى يتلقى برقيات القاهرة . المرسلة الى الضابطين . في حالة قلق هو الآخر . فقد تلقى برقيتين بالشفرة . ولكنه لم يعثر على الفهد في شقة « باب اليمن » . ودهش الرجل بشدة . عندما وجد اللاندروفر تحت البيت . ومع ذلك لم يكن هناك أى أثر للفهد . وبعد أن تردد على الشقة عدة مرات . قرر أن ينتظر ما يأتى به المستقبل .

وفي الساعة الحادية عشرة من صباح الجمعة . وصلت الى موقع الشرطة العسكرية . عربة جيب هبط منها رجل نحيل يرتدى الثياب المدنية . واتجه الى الغرفة التى احتجز فيها ضباط المخابرات الثلاثة . وبعد أن القى نظرة . عاد الى كشك خشبى يقع في مواجهة الغرفة على الجانب الآخر من الطريق ولاحظ السنجاب أنه يمسك في يده بجوازات السفر الخاصة بهم . وكان لون الجوازات الأخضر كافيا للفت نظر السنجاب الى ان التحقيق سيكون أكثر تدقيقا هذه المرة .

وبعد دقائق نادى المحقق على الفهد . وبعد أن تأمل الصورة المثبته في جوازه مليا سأله الاسئلة التقليدية . تاريخ قدومه الى اليمن وسبب الزيارة وعنوانه في صنعاء . وفي النهاية . استبقاه الى جواره ونادى على السنجاب . تكررت نفس الاسئلة . بعد التحقيق من صورته في جواز السفر . وعندما تطرق التحقيق الى موضوع العربة . زعم السنجاب ان الاوراق كلها في التابلوة . ولكن تفتيش « التابلوة » اثبت أنه لا يحتوى الا على مفك من الصلب . وعلبة سجائر « بلمونت » . ولفة شريط لحام سوداء اللون !!

وعندما جاء دور « باروخ » . نادى المحقق على موسى زكى سلامة . ولكن « المتهم » لم يخرج من الغرفة . وتكرر النداء دون جدوى . وتبادل السنجاب والفهد النظرات . وأمر المحقق اثنين من جنود الشرطة بحراسة « المتهمين » ثم عبر الطريق ليستطلع الامر .

كان « باروخ » مكوما في ركن الغرفة وهو يحدق في الباب بعينين باردتين . وسأله المحقق . الذى كان يكتم غيظ من استهتار هذا « المصرى » التعس . عن سبب امتناعه عن تلبية ندائه . ولكن « باروخ » ظل ساكنا كأنه أصم . وصرخ اليمنى بغضب متوعدا . وبهدو شديد اعتذر « باروخ » بأن احدا لم ينادى عليه . ولما قال المحقق أنه ردد اسم « موسى زكى » ثلاث مرات . اجاب « باروخ » بأن هذا الاسم لا يمت له بأى صلة !!

بدا الارتياح على وجه المحقق اليمنى وذاب غضبه . فها هو يضع يده على الحلقة المفقوده في قصة المصريين الثلاثة التى كانت مثيرة للشكوك . وبعد أن ألقى موعظة بليغة عن مزايا الادلاء بالحقيقة . والعواقب المرذولة التى تنجم عن اخفائها . سأل بحنان غامر عن اسم « المتهم » .

عاودت الرعدة « باروخ » واصطكت أسنانه فأحدثت صريرا مسموعا . وبدأ العرق في التصبب فوق جبهته . فقد أدرك أنه ارتكب حماقة سوف تؤدى الى اثارة حنق الفهد . الذى كان مخيفا رغم انه تحت الحراسة . وبذل المحقق اليمنى جهده لكى يستحثه على الكلام . ولكنه أغلق فمه وهو يرتجف .

لم يكن مقبولا . بأى صورة من الصور . أن يبقى « باروخ » إلى الأبد مطبقا فمه . وعمد المحقق اليمنى إلى زرع الاطمئنان في نفسيته المحطمة . وقال له أن أسوأ خطوة يمكن الاقدام عليها . هى تركه تحت

رحمة المصريين الذين سوف يشويانه حيا إذا عرفا أنه باح بسر اسمه المزيف .

ولم يجد « باروخ » مناصا من الاعتراف باسمه الحقيقى . وعندما قال أنه اسرائيلى الجنسية . كاد المحقق أن يفقد صوابه من الدهشة . وسرد « باروخ » على مسامعه قصة القبض عليه في الجديدة . وقيام هذين المصريين « باختطافة » من صنعاء . ورحلته الغامضة في مياه البحر الأحمر .

كانت القصة . بالنسبة لليمنى الذى يبدو أنه كان متخصصا في الجرائم العادية . مدعاة للذهول . ورأى أن يضع معلوماته الجديدة أمام المصريين لغله يحصل على تفسير مقنع يضئ له السبيل وسط المتاهة المظلمة التى عزق في خضمها حتى ذقنه . وأصيب الرجل بخيبة أمل قاسية . عندما قال له السنجاب . أن المواطن المصرى موسى زكى سلامه . مصاب بلوثة عقلية . وأن هذه اللوثة أدت إلى محاولة الانتحار . ثم أنها وراء القصص الخيالية التى يجترها !!

وعندما طوى المحقق اليمنى أوراقة في النهاية . كان يعرف الاجراءات التى يجب أن تتخذ . بأقصى سرعة . فقد كان علية أن يخطر « الأمن الوطنى » . أى جهاز المخابرات اليمنى . ليتولى التحقيق فيها يتعلق بالاسرائيلى . وأن يحال السنجاب ومعه عربته اللاندروفر إلى إدارة الأمن العام . أما الفهد . فكان عليه أن يوضح للمختصين في مصلحة الأمن الداخلى . أسباب وجوده في عربة ليس لها ترخيص رسمى . فضلا عن مصاحبته لهذا الاسرائيلى الذى يحمل جواز سفر مصرى مزور !!

وهكذا . عند مشارف صنعاء . وقت غروب شمس الجمعة . كانت عملية المخابرات المصرية . والتى شغلت الجهازين المصرى والاسرائيلى .

لمدة تزيد على شهر ونصف شهر . والتى حشدت من أجلها كل الأسلحة . في البر والبحر والجو . كانت هذه العملية . قد وصلت إلى نهاية محزنة .

ووسط مشاعر الأسف ، والإحساس الممعن بالاحباط . مع القدر المناسب من الحيرة ، كان ضابطا المخابرات المصرية . يجريان تقديرا سريعا للموقف ، وكانا محتجزين في الكشك الخشبى . بينما قبع « باروخ » في الغرفة الصغيرة . على الجانب الأخر من الطريق . وكانت الظلمة تنسدل تدريجيا في سماء العاصمة اليمنية العريقة . وفي الخارج . كانت الجلبة التى تنبعث من عربات الركوب . والشاحنات . وصياح السائقين والجنود . تهدأ مع قدوم الليل .

وفجأة . وصل إلى موضع حاجز الشرطة العسكرية . صوت دراجة بخارية ترسل من مؤخرتها فرقعة مزعجة ، وسمع المحتجزون صوت وقع أقدام مسرعة . فوق الأسفلت ، وفتح باب الكشك الخشبى بهدوء ، وومض ضوء « فانوس زوبعة » من النوع الذى تستخدمة الجيوش . وفرك السنجاب عينية وهو يحاول أن يتبين جلية الأمر ، ولدهشتة الشديدة . تقدم منه ضابط شرطة وحياه باحترام وافر . ثم قال بلهجة رسمية . أن السلطات اليمنية قررت إطلاق سراحهم . وأن باستطاعتهم أن يصحبوا « زميلهم » المحتجز في الناحية الأخرى . ويستقلوا العربة اللاندروفر . ثم ينطلقوا إلى وجهتهم !!

كانت اللحظات مثيرة ومنعمة بالمشاعر المتضاربة . وكان ضابط الشرطة العسكرية اليمنية يتمتم بعبارات الاعتذار عن الازعاج الذى لحق « بالأخوة المصريين » ، ولم يكن الفهد في حاجة إلى عبارات الاعتذار الأخوية . فقد انطلق كالسهم إلى مكان « باروخ » ، واقتاده وهو يتلفت حوله إلى اللاندروفر .

وقبل أن تتحرك اللاندروفر . صافح السنجاب ضابط الشرطة بحرارة صادقة ، واستدار ليصعد إلى مكانة المفضل ، بجوار « باروخ » . ولكنه توقف فجأة وهتف :

- هل تسمح ... أود أن أعرف كيف صدر أمر إطلاق سراحنا .

- حسنا ، لقد عرضت قصتكم على رئيس الأركان فأصدر هذا الأمر على الفور .

- رئيس الاركان ؟!

- نعم ... ابراهيم الحمدى ؟!



مرافقى الرسمى السيد / يحيى العلفى يشير إلى الهاوية
السحيقة التى كادت أن تسقط فيها عربة المخابرات المصرية .

« الفصل الثانى عشر »

رحلة إلى المجهول ... !!

بعد إطلاق سراح ضابط المخابرات الثلاثة ، الذين قضوا ليلة عصيبة في قبضة الشرطة العسكرية اليمنية ، قاد الفهد العربة بسرعة إلى حى باب اليمن ، وهناك استقر « باروخ » في الشقة من جديد ، ومن الغريب أن ضابط المخابرات الاسرائيلى الذى كان منهارا إلى أقصى حد ، والذى تعرض لحادث انتحار مفزع ، استعاد هدوءه بمجرد أن دخل إلى الشقة ، التى شهدت أيامه الأخيرة في صنعاء .

وبعد غروب الشمس ، ترك الفهد زميله ومعه الأسير ، وهبط إلى الطريق ، وتولى بنفسة إعادة اللوحة المعدنية إلى اللاندروفر القديمة . ثم قادها إلى مكانها القديم ، في شارع جانبى ضيق على مقربة من البيت .

وعندما ضمت الشقة الضباط الثلاثة أثناء الليل ، كان « باروخ » يبدو في حالة حرج بالغة ، فقد تسبب في متاعب جمة ، وحنث بكل قسم أقسمة ، كما أن أنهياره والمذلة التى كانت تكسو تصرفاته ، كانا

سببا كافيا لأنه يشعر بالخجل ، ولكى يتجنب نظرات الضابطين المصريين ، انهمك في تنظيف الغبار الذى كان يغطى قطع الأثاث وبعد ذلك قبع في المطبخ ، ليغسل أدواته بعيدا عن الرجلين !!

وفي منتصف الليل ، خرج الفهد ليلتقى بصديقة الدبلوماسى ، وفي الدقائق الأولى من صباح السبت التاسع والعشرين من يوليو ، ثم أول لقاء بينهما ، منذ أن بدأت رحلة الحديدة ، وتسلم الفهد من صديقة ثلاث برقيات جاءت من القاهرة ، أثنين أرسلتا أثناء غياب الضابطين ، وواحدة وصلت صباح الجمعة .

وعندما اطلع السنجاب على محتوى البرقيات الثلاث ، بعد أن قام الفهد بحل الشفرة ، قطب جينيه بحدة ، فقد تضمنت هذه البرقيات ، سبب العدول عن نقل « باروخ » داخل الغواصة ، كما اشتملت على تفاصيل الاستعدادات الاسرائيلية المضادة ، ثم ، تنبيه مشدد بضرورة نقل ضابط المخابرات الاسرائيلى ، وفق أى خطة بديلة ، حيا الى القاهرة !!

كان موقف الضابطين قاسيا تكتنفه الصعوبات من كل جوانبه ، وكان رأى السنجاب أن البديل الوحيد المطروح الآن ، هو أن يقوما بنقل الأسير عن طريق الجو ، وقال الفهد أن أى طائرة ستقلع من مصر ، وتتجة إلى اليمين ، لابد أن تلفت أنظار الاسرائيليين ، وعلى هذا الأساس ، فعليهما إذا استقر رأيهما على نقله جوا ، أن يدبرا طائرة !!

ابتسم السنجاب وهو يناقش اقتراح تلميذه الذى لايعرف المستحيل ، وعندما سألة بسخرية عما إذا كان يفكر في شراء طائرة ، أجاب الفهد بلهجة جادة أن لدية فكرة تتسم بالشجاعة ولكنه يفضل أولا أن يناقش الخطوات التالية !!

ومع افتراض وجود طائرة لنقل « باروخ » تفاقمت الصعوبات وأخذت تحملق في وجه الضابطين كأنهما وحوش خرافية ، فقد كانا في

حاجة إلى طيار بارع ، ليتولى قيادة الطائرة الخيالية ، وكانت ظروف السرية تقتضى أن تستخدم هذه الطائرة ، في الاقلاع والهبوط أراضى نزول بعيدة عن المطارات المعروفة ، وفي نفس الوقت ، كان عليها أن تطير على ارتفاع منخفض حتى لا يفتضح أمرها !!

وبرزت مشكلة سخيفة أخرى أثناء النقاش ، وكانت هذه المشكلة التى يستحيل تجاهلها ، أن الطائرة التى ستقطع الرحلة من صنعاء إلى القاهرة ، حتى لو ذللت كل المصاعب الأخرى ، لابد أن تكون طائرة ضخمة ، الأمر الذى يخلق عائقا خطيرا ، أمام الطيران المنخفض .

هز الفهد رأسة باستخفاف عندما عرض السنجاب مشكلة حجم الطائرة للنقاش ، وقال أنه من السهل وضع وقود إضافي في بطنها ، وفي النهاية هتف بصوت خافت ، إننا لن نعبر الأطلنطى ، أليس كذلك ؟!

وهكذا اتضحت صورة الخطة المقترحة ، في شكلها النهائى ، على نحو يدعو الى اليأس ، فقد كان على الفهد الذى يحتفظ في رأسة بفكرة تتسم بالشجاعة ان يحصل على طائرة صغيرة ، ذات محركين ، وأن تصل هذه الطائرة في ظلام الليل إلى ضواحى صنعاء ، وأن تهبط في الصحراء المنبسطة بين الجبال ، في أرض نزول تحدد بعد دراسة المنطقة بعناية !!

أما فيما يتعلق بالطيار ، فكان من الواجب العثور على طيار لدية قسط وافر من الجرأة ، التى تصل إلى حد التهور ، لكى يغامر بحياته في رحلة تحفها المخاطر من كل صوب ، وأهم من كل ذلك ، أن يعرض هذا الطيار حياته للخطر ، دون أن يطلع على أية تفاصيل عن المهمة التى سيقوم بها !!

كانت خطوط هذه الصورة تبدو مثل حلم بعيد المنال ، ومع ذلك ، تطرق الفهد إلى مراحل الخطة الأخيرة ، فقال أن عليهما بمجرد وصول

الطائرة ، أن يقتادا « باروخ » بسرية مطلقة إلى موضع الهبوط ، وأن ينقلا مع الأسير ، أكبر كمية ممكنة من وقود الطائرات !!

واقترح السنجاب خطة خداع مبسطة ، قبل الاقلاع من اليمن ، وكانت خطة تعتمد على إرسال برقية بشفرة بسيطة ، الى رئاسة المخابرات في القاهرة ، وأن تتضمن هذه البرقية معلومات كاذبة ، عن نقل « باروخ » جوا في موعد سابق للموعد الحقيقي ، الذى سوف يحدد نهائيا بعد اتمام كل الاستعدادات المطلوبة ، وقال السنجاب : سوف

يبحثون في السماء حتى يرهقهم البحث ، وعندما تلمس عجلات طائراتهم الأرض نقلع نحن !!

وقال الفهد أنه سوف يتغيب عن صنعاء ، لمدة أربع وعشرين ساعة ، وأنه يأمل عندما يعود أن تكون في جعبته طائرة ، ولكنه أضاف أن المشكلة الملحة الان هى ، كيف يمكن دخول الأجواء اليمنية ، بطائرة

لا تعلن عن هويتها ، ولا تحصل على إذن رسمى بالهبوط ، ووضع الضابطان في حسبانهما ، أن اليمن دولة شقيقة وأن أى محاولة للتسلل الى أجوائها ، تعد عمل سخيف يتسم بعدم اللياقة ، رغم أن الهدف من العملية كلها نبيل ويحقق كسبا للأمة العربية كلها .

توقف الضابطان أمام هذه العقبة وقلبا الامر على جميع جوانبه ، وكانت مشكلة الحصول على الوقود هى الاخرى تفرض نفسها بقسوة ، ورفض السنجاب اقتراحا للفهد ، بأن يقوما باخطار السلطات اليمنية بمرحلة الطائرة ، وكان رأى السنجاب أن السرية تستلزم حصر النبأ في أضيق الحدود ، وفجأة ، أضاء وجه ضابط المخابرات الذى عركته السنين وهتف : رئيس الاركان ..!

دهش الفهد بشدة وانتبه وهو يحدق في وجه أستاذه بشغف . ووضح السنجاب المسألة قائلا . أن الرجل الذى أصدر الأمر باطلاق سراحهما سوف يقدم لهما عونه بالتأكيد . وأنه السبيل الوحيد أمامهما الآن . أن يتصلا به وشرحا له القصة كلها . ثم يأتى دورهما لكى ينصتا اليه .

ووقع الاختيار على الفهد لكى يجرى أول اتصال مع الرئيس الحمدى ، وأن يبقى السنجاب في حراسة الاسير . وفي الساعة العاشرة والربع من صباح السبت . أجرى الفهد أول مقابلة مع رئيس الاركان . الذى استمع باهتمام شديد الى ضابط المخابرات المصرى ، ثم أعلن بهدوء أنه يؤيد الخطة المقترحه . وأنه يأذن بدخول الطائرة الى أجواء اليمن ، وسوف يصدر الأمر بتزويدها بالوقود !!

وقبل أن تنتهى المقابلة . قال الرئيس الحمدى أنه في غنى عن مناقشة دوافع المصريين للحصول على « باروخ » . ولكنه يمنح تأييده بلا حدود ، حتى لا تتمكن اسرائيل من احباط الخطط المصرية . وعندما صافح ضابط المخابرات المصرى . لا حظ في عينيه نظرات الاكبار كما لمح على وجهه مشاعر الحب .

عاد الفهد الى السنجاب متهلل الاسارير وقد علت البسمة شفتيه ، وقال أنه سوف يلتقى مرة آخرى برئيس الاركان اليمنى . لكى يدرس معا خط سير الطائرة ، وموقع الهبوط ، وكان دور السنجاب المرتقب . يتلخص في أن يقتاد الاسير الى النقطة التى ستحدد بدقة ، وأن يقفز مع الاسير الى الطائرة لحظة هبوطها لتقلع على الفور .

وفي اللقاء الثانى مع رئيس الاركان ، في صباح الاحد ، الثلاثين من يوليو ، اكتشف الفهد أن الرئيس الحمدى لديه خبرة عظيمة بالطيران ، وخصائصه الفنية ، وفي هذا اللقاء، تم الاتفاق على أن تصل الطائرة في الساعة العاشرة والنصف من مساء السبت الخامس من أغسطس ، وكان

السر في اختيار هذا الموعد ، هو اتاحة الوقت الكافي للفهد ليدبر أمره ، كما أن النبوءات الجوية ، كانت تشير الى سماء صافية من الغيوم ، في تلك الليلة ، كما وضع في الاعتبار ، وصول الطائرة الى سماء القاهرة ، في الساعات الاولى من الصباح يوم الاحد السادس من أغسطس .

ولضمان أكبر قدر من السرية ، تقرر أن يطير السنجاب الى القاهرة ، ليتولى بنفسه إخطار المخابرات بموعد وصول الطائرة ، حتى تتمكن من إجراء اتصالاتها بالسلطات المصرية ، حتى تهبط الطائرة بسلام ، ولكى تنتظر في مطار ألماظة الحربى ، سيارة تنقل ضابط المخابرات الأسير بأقصى سرعة إلى مكان آمن ، تابع لجهاز المخابرات المصرى .

ومن أجل مزيد من الخداع ، استقر الرأى على أن يواصل جهاز المخابرات المصرى إرسال برقياته المعتادة عن طريق سفارتنا في صنعاء حتى بعد اقلاع الطائرة ، وفي نفس الوقت ، اتفق على أن يرسل الفهد ، البرقية التى تم الاتفاق عليها من قبل ، والتى تقرر أن تكتب بشفرة عادية ، سهلة الحل ، وكان محتوى هذه البرقية ، ينص على أن « باروخ » سيصل إلى القاهرة على متن طائرة ركاب تصل إلى القاهرة يوم السبت الخامس من أغسطس ، في الصباح الباكر .

طار السنجاب من صنعاء بعد ظهر الأحد ، ليصل إلى القاهرة بعد رحلة جوية ملتوية ، وعندا عرض الخطة التى تبناها بحماس ، أبدت منظمة مقاومة التجسس تخوفها من أن يفشل الفهد في الحصول على الطائرة ، وعرضت على بساط البحث ، فكرة الاتصال بالطريق الدبلوماسى ، بأية دولة صديقة مجاورة ، لكى تقدم الطائرة وطيارها ، ولكن السنجاب قال أن الفهد ، واثق من نجاحه في مهمته .

كذلك اتضحت صعوبة أخرى أسوأ من كل الصعوبات السابقة ، فقد كان من المفروض أن تمتنع الطائرة امتناعا كاملا عن إجراء أية اتصالات

لاسلكية ، وكان الضباط في رئاسة المخابرات يعتقدون أن بمقدورهم انذار الفهد ، إذا حدث وتنبه الاسرائيليون إلى وجود طائرته في الجو عندما يقترب من الأجواء المصرية ، وإزاء هذا الاحتمال ، تقرر أن تفتح الطائرة جهاز الاستقبال ، وأن تمتنع تماما عن الارسال ، مهما كانت الظروف .

وفيما يختص بخط سير الطائرة ، نصح الأخصائيون بأن تتجه الطائرة من صنعاء ، نحو الشمال الجغرافي ، حتى إذا ما وصلت إلى الحدود اليمنية السعودية، انحرفت غربا بزاوية ٢٢ درجة ، وعند الوصول إلى الأجواء المصرية ، تتجه الطائرة شمالا إلى أن تصل عبر الصحراء الشرقية إلى القاهرة .

كذلك اتفق على أن تتولى رئاسة المخابرات ، الاتصال بقيادة السلاح الجوى ، بحيث يمكن نجدة الطائرة ، بأسرع ما يمكن ، إذا تعرضت لهجوم جوى معاد ، وفي نفس الوقت ، تقرر إجراء اتصال بقيادة الدفاع الجوى ، حتى لا تهاجم وسائل الدفاع الجوى المصرية ، الطائرة التى كان الصمت اللاسلكى ، مفروضا عليها .

وعندما تناولت الدراسة آخر المراحل في هذه العملية الخطيرة ، استقر الرأى على إيواء ضابط المخابرات الاسرائيلى في مبنى منعزل من مبانى جهاز المخابرات ، وروعى عند اختيار المبنى ، أن يجرى تجهيزه بمجموعة طبية ، وجهاز لكشف الكذب ، وأن تعد إحدى الغرف لإقامة الضابط الأسير ، بالقرب من مكتب يحتله أطباء الاختبارات النفسية ، مع وضع نظام صارم للحراسة ، وكان اتخاذ هذه الترتيبات ، ضروريا حتى لا يدخل « باروخ » إلى مبنى المخابرات ، فقد كان المصريون على دراية تامة ، بأن الرجل بصرف النظر عن أية عوامل تدعو إلى الاستهانة بقدراته ، ليس سوى ضابط محترف من ضباط المخابرات .

وعرضت الخطة بعد أن وضعت في صورتها النهائية على مدير المخابرات المصرية المشير أحمد اسماعيل على، صباح الأثنين الأخير من يوليو، وقد ألقى المشير نظرة فاحصة على الخريطة الملونة المرسوم عليها خط سير الطائرة، ثم أصدر أوامره إلى مدير منظمة مقاومة الجاسوسية بأن يحرص على ألا تدخل الطائرة إلى المجال الجوى لأى دولة من الدول المطلة على البحر الأحمر.

وبعد الموافقة على الخطة، رحل السنجاب مرة أخرى إلى صنعاء، ووصل إلى هناك بعد غروب شمس الأربعاء الثانى من أغسطس، وعندما أفضى بنتائج رحلته للفهد، قال الأخير، أنهما في حاجة إلى قدر كبير من الحظ الطيب، وأضاف، أن الدبلوماسى المصرى الذى تحمل معهما عناء العملية من بدايتها، سوف يصل في التاسعة لكى يبقى مع الأسير حتى يقوما باستطلاع ارض نزول الطائرة.

كانت المنطقة التى حددت لهبوط الطائرة، عبارة عن سهل فسيح يقع على مسافة خمسة وأربعين كيلو مترا من صنعاء، وعلى مسافة أثنى عشر كيلو مترا من طريق صعده، وكانت الحكمة من اختيار هذه المنطقة، تكمن في أن الطيار يستطيع أن يرتفع في الجو، بمجرد الوصول إلى سماء العاصمة اليمنية، ويستدل بأنوار مطارها المدنى، ثم ينحرف إلى الشمال الغربى، ليصل إلى السهل ويميز أشباح مستقبليه.

وبأنتهاء الرجلين من استطلاع منطقة الهبوط، عادا إلى مقرهما، ووجها الشكر لصديقهما الدبلوماسى، الذى لم يكن أمامه سوى آخر إجراء كلف بتنفيذه، وهو أن يرسل برقية إلى القاهرة، تلك البرقية التى حددت موعد وصول « باروخ »، في صباح يوم السبت الخامس من أغسطس قبل الموعد الحقيقى بأربع وعشرين ساعة.

وفي صباح الخميس الثالث من أغسطس ، أقلع الفهد من صنعاء ، دون أن يفصح عن وجهته ، ولكنه أكد أنه سيعود ، في العاشرة والنصف مساء السبت ، وأنه سوف يعود بصحبة الطائرة !!

ولا بد لى من الاعتراف بأننى فشلت فشلا ذريعا ، في الحصول على معلومات محددة عن الدولة التى قدمت الطائرة للفهد ، رغم أنى سألته شخصيا ، ووجهت نفس السؤال إلى الرئيس الحمدى ، ولكنى لم أحصل أبدا على اجابة محددة .

ويدل رذاذ المعلومات الذى حصلت عليه في هذا الشأن ، على أن الفهد قام بزيارة خاطفة لدولة صديقة ، وهناك ، اتصل بضابط مخابرات من أصدقائه ، في هذه الدولة ، وطلب منه أن يخطر حكومته ، بأنه يطلب باسم مصر ، طائرة صغيرة ذات محركين ، على أن تجهز هذه الطائرة بحيث يمكن تزويدها بالوقود من الداخل ، وأن يطلى جسمها بطلاء أسود ، وأن تزال من فوقها أية علامات تدل على جنسيتها .

وفيما يتعلق بالطيار ، قال الفهد أنه يود أن يحصل على الطائرة ومعها قائدها ، نظرا لدواعى السرعة ، ولكنه استدرك قائلا ، أنه على أستعداد لاستدعاء طيار مصرى على وجه السرعة ، إذا كانت هناك أية عقبات تحول دون تحقيق هذه الرغبة .

وليس لدى أدنى شك ، في أن غرابة هذه المطالب ، قد أدت إلى عرض الأمر على أعلى مستويات السلطة في هذه الدولة ، وعندما تمت الموافقة ، استغرق تجهيز الطائرة وقتا إضافيا ، وكانت الأوامر الرسمية التى تسلمها الطيار ، الذى وقع عليه الاختيار ، تنص على يتسلم أوامره من الفهد بمجرد أن يغادر مطار الأقلاع ، وإلى أن يعود إلى وطنه .

وفي الساعة الثامنة والنصف مساء السبت ، الخامس من أغسطس ، أمر السنجاب « باروخ » أن ينتبه ، وأفضى إليه بأنهما مقبلان على رحلة

جديدة ، وبصوت تعمد السنجاب أن يكون هادئا ، أبلغ ضابط المخابرات الاسرائيلى بأن الموقف لا يحتمل أية مراوغه ، وحذره بشدة من أن أية حماقة جديدة ، لن تلقى سوى القسوة ، ودون أن تضيع لحظة واحدة في المناقشة .

وبعد أن قيد السنجاب يدى « باروخ » وراء ظهره ، وضع عصابة سميكة فوق عينه ، وهمس بأن سوابق الاسرائيلى القبيحة والمتاعب التى جرها ، هى سبب هذا الاجراء المقوت . ثم أقتاده أمامه إلى اللاندروفر وأجلسه بجواره على المقعد الأمامى ، وانطلقت اللاندروفر صوب طريق صعده ، وبعد ذلك توغل السنجاب في السهل إلى أن وصل إلى سلاسل الجبال التى تحده من الغرب .

أطنأ السنجاب محرك اللاندروفر وفك قيود الأسير ورفع العصابة عن عينه ، ثم أمره أن يتقدم أمامه في الصحراء ، سيرا على الأقدام . حتى إذا ما وصل الرجلان إلى منطقة تكسوها الأشواك أمره أن يجلس القرفصاء ، أما هو فبقى واقفا بعد أن ألقى نظرة على ساعة يده .

وفي العاشرة والربع لاح بصيص من الضوء ، على مسافة بعيدة ، ودقق السنجاب البصر فاكتشف عربة بعيدة في الظلام ، وعندما وصلت العربة إلى نقطة على الطريق في منتصف السهل ، انحرفت إلى اليسار وأخذت تتقدم ببطء وهى تضيء أنوارها الأمامية لفترات قصيرة متقطعة وفي النهاية توقفت العربة على مقربة من السنجاب ولاحظ أنها عربة جيب يغطى سطحها بروز أسود سرعان ما أتضح أنه عبارة عن مجموعة من « الحراكن » التى تستخدم في نقل الوقود . وبمجرد أن توقفت الجيب هبط منها شاب يرتدى ثياب الجيش ويتدلى من حزامه مسدس ضخم ، وقدم نفسه للسنجاب قائلا أنه موفد من قبل الرئيس الحمدى . وأضاف

أن رئيس الاركان كلفه أن ينقل إليه تحياته . ويتمنى أن يوفق في مهمته .

وأجاب السنجاب أنه يشعر بامتنان عميق ويرجو أن ينقل هذا الشعور إلى رئيس الاركان . وقال الشاب اليمنى أنه سوف يبقى إلى أن يتأكد أن كل شيء على ما يرام . وبعد ذلك سيعود إلى صنعاء ليصحب زميلا له مرة أخرى إلى المكان . ليتولى قيادة اللاندروفر ولاحظ السنجاب أن الشاب يفحص المنطقة حولهما بعينية . فأشار بأصبعة في اتجاه الجبال . وقال أن اللاندروفر هناك .

واقترح السنجاب أن يقود الشاب اليمنى الجيب بعيدا عن منطقة الهبوط . وأن يبقى هناك إلى أن تهبط الطائرة . وعندئذ يمكن أن يقترب بعربة حتى يصل إليها .

وفي العاشرة والنصف بالضبط انتبه ضابط المخابرات المصرى وبدا عليه القلق . وكان يحدق في السماء بينما أرصف أذنيه وكاد قلبه أن يتوقف عن الدق . وعندما مضت ثلاثون دقيقة دون أن يظهر أى أثر للطائرة . جلس على الأرض وخلع نظارتة وهو يتمتم بشفتيه . وكان « باروخ » يجلس على مرمى حجر منه وهو يتعجب لما يجرى حوله .

وبعد أن أمضت ساعة كاملة . ترك الشاب اليمنى عربة وجاء سيرا على الاقدام ليستفسر من السنجاب عما حدث . وقال السنجاب أن شيئا ماقد عوق وصول الطائرة ولكنها ستصل على أية حال . ولاحظ بعد أن فرغ من حديثة أن « باروخ » قد اضطجع على الرمال ولكنه لم يعزه ادنى التفات .

وعندما أشرفت الساعة على الواحدة صباحا. كاد اليأس أن يتملك الضابط العجوز . ولكنه أصر على أن يبقى في أنتظار الطائرة . ربما لأنه

كان قلقا على النهر . وشكا « باروخ » من أنه يشعر بالبرد ، ولكنه لم يتلق أية إجابة ، فقد أكتفى السنجاب بأن غمغم وهو يلعن هذا الضابط الذى يبدو مثل جثة من القش .

وفي غمرة القلق والسخط والمشاعر المتضاربة ، انتبه السنجاب وتحول إلى أذنيين ، فقد سمع أزيز طائرة تقترب ، وبعد أن أدار رأسة في كل اتجاه كما لو كانت هوائى رادار وضع نظارتة فوق عينيه واتجه نحو الجنوب الشرقى . وفي الأفق رأى الطائرة وهى تدور إلى اليسار . كانت تحلق على ارتفاع منخفض فوق قمم الجبال المحاذية للسهل من جهة الغرب ، وكانت تشبه غرابا ضالا وقد اطفئت أنوارها ، ولكنها عندما وصلت إلى منتصف السهل كانت تبدو عالية كنقطة سوداء تزحف وتحجب النجوم بمقدمتها ، وأخرج السنجاب منديلا أبيض وأخذ يلوح بقوة . ولكن الطائرة أقتربت ثم تجاوزته ودارت دورة كاملة . وفي النهاية ابتعدت نحو الجبال واختفت هناك !!

تصبب العرق فوق جبين السنجاب وشعر كأنه فقد القدرة على التنفس ، وقبل أن ينطق قال الشاب اليمنى أن الطائرة سوف تعود مرة آخرى ، وأشعل السنجاب عود ثقاب ولكنه اكتشف أن في يده سيجارة مشتعلة ، واقترب ازيز الطائرة من جديد ، وظهرت الطائرة مرة آخرى وأخذت تحوم فوقهم ، واشتد الوهج الأحمر المنبعث من سيجارة السنجاب وهو يلوح بجنون بالمنديل الأبيض ، ولكن الطائرة عادت إلى الاختفاء في الافق .

ــ يجب أن نضىء أنوار العربة .

وهكذا همس السنجاب وهو يدير بصره في اتجاه اللاندروفر ، كانت بعيدة في آخر السهل حتى أنه لم يستطع أن يميزها في الظلام ، وقال الشاب اليمنى أن الجيب قريبة ، على مسافة مأئتى متر فقط ، وكما لو

أنه لم يسمع قفز السنجاب فوق الرمال كعصفور بلله المطر ، وتعثر الضابط العجوز في حجر فسقط على ركبتية ولكنة هب واقفا ، وكانت تصرفاتة تبدو عشوائية وكأنه فقد زمام نفسه ، بمجرد أن وقف على قدميه استدار عائدا وطلب من اليمنى أن يضىء أنوار الجيب .

وبينما كان اليمنى يجرى بأقصى سرعة إلى الجيب، كان السنجاب يبدو وقد تقدم به العمر عشرين سنة. فقد كان يعرف أن هذه الرحلة يجب أن تكلل بالنجاح . فقد بذلت جهود وضاعت أموال وتعرضت حياة كثيرين للخطر ، ولم يكن ليفكر في احتمال الفشل أبدا ، وكانت كل الظروف مواتية هذه المرة ، فقط كانت اللحظة الحاسمة قد حلت ، اللحظة الحاسمة في الخطة الدقيقة التى تسير في خطها المرسوم بعناية ، وكان على هذه الطائرة أن تهبط .

أضيئت الأنوار الصغيرة في الجيب في نفس اللحظة التى عاد أزيز الطائرة للمرة الثالثة ، وعندما اقتربت الطائرة لم تتخذ المسار الدائرى الذى أتخذتة في المرتين السابقتين ، ولكنها خففت من سرعتها ودارت إلى اليمين . وفي نفس الوقت بدأ حجمها يكبر تدريجيا . وأدرك السنجاب أنها تهبط . وأمتلاء صدره بالهواء وود لو أنه صفق بيدية . وتعالت الضجة المنبعثة من محركات الطائرة ثم انخفضت. مقدمتها دفعة واحدة ، وأخذت في الهبوط بزاوية حادة ، ولاحظ السنجاب أن بطنها يتضخم لحظة بعد آخرى . وعندما لامست عجلاتها الأرض على مسافة مائتى متر من مكانه شعر كأنه سيطير فوق الأرض من الفرح .

أثارت الطائرة عاصفة من الغبار وأحدثت عجلاتها صريرا مخيفا . وأسرعت ضربات قلب الضابط العجوز عندما وجد أن جناحها الأيمن يميل بشدة حتى كاد أن يلامس الأرض ، ولكنها اعتدلت بسرعة ثم توقفت على مسافة أمتار قليلة منه .

جرى السنجاب كأرنب جبلى ووصل إلى الطائرة وهو يلهث ، وعندما رفع رأسة إلى أعلى وجد الفهد واقفا على الباب وهو يبتسم كما لو كان عائدا من نزهة خلوية ، وصرخ السنجاب قائلا ان العربة ستصل حالا لكى يستخدمها الفهد في النزول إلى الأرض ، ولكن الفهد قفز بخفة ، فقد كان فهدا حقيقيا .

قاد الشاب اليمني الجيب وأوقفها تحت جناح الطائرة ، وخلال دقائق كانت أوعية الوقود قد نقلت إلى جوفها ، ووضعت هناك كيفما اتفق ، على الأرض وفوق المقاعد وفي فتحة الباب أيضا ، وأمر باروخ أن يتسلق الجيب والتقطه الفهد ثم دفعه دفعا حتى أجلسه على أول مقعد وراء مقصورة الطيار مباشرة ، وبدلا من أن يعاون الفهد زميله في الصور إلى الطائرة قفز من جديد إلى الأرض ، وصافح الشاب اليمنى بحرارة بعد أن عرف أنه موفد من قبل رئيس الاركان ، وقال السنجاب أنهم تأخروا وأن ذلك سوف يسبب ارتباكا فظيعا عندما يصلون إلى مصر ، ولكن الفهد هز كتفية باستهتار ، واقترح أن ينقلوا حقائبهم الشخصية من اللاندروفر إلى الطائرة .

مضت الجيب بسرعة لتخترق السهل الصحراوى حتى وصلت إلى مكان اللاندروفر، التى كانت تبدو نائمة في ظل الجبال الشاهقة الارتفاع ، وبعد أن استقرت الحقائب في الطائرة وقف الضابطان المصريان ليودعا اليمنى الذى قدم لهم عونه ، قال الفهد أنه لن ينسى مدى الحياة صنيع رئيس أركان الجيش اليمنى ابراهيم الحمدى .

وفي الطائرة لاحظ السنجاب أن الطيار شاب تخطى العشرين بسنتين أو ثلاثة . ولاحظ أن معه مساعدا في مثل سنة ، وجلس الفهد

بجوار « باروخ » . أما السنجاب فكان جالسا بوداعة في الناحية الآخرى وهو ينظر من وراء زجاج النافذة .

وعندما أعطى الفهد إشارة الاقلاع زأرت المحركات من جديد ، ودرجت الطائرة ببطء ودارت إلى اليمين . ثم توقفت وأحدثت ضجة المحركات هديرا يصم الآذان . وارتعد جسمها بعنف . وبعد ذلك انطلقت مسرعة في اتجاه اللاندروفر . وبعد أن قطعت السهل كله توقفت من جديد !!

ترك الفهد مقعده ودخل إلى مقصورة الطيار ليستطلعه الأمر . وقال الطيار أن طبيعة الأرض تمثل مشكلة كبيرة وأنه اضطر إلى أن يتوقف حتى لايصطدم بالجبال ولكنه سيحاول مرة ثانية واستدارت الطائرة

واندفعت إلى أن وصلت إلى النقطة التى بدأت منها وكتم ضابط المخابرات أنفاسهما . ورفع السنجاب رأسه إلى السماء وابتهل الى الله أن يوفق هذا الطيار الشجاع . وعندما ابتعدت العجلات عن سطح الأرض نهض الفهد من مكانه ليهنىء الطيار . عندما عاد انحنى فوق السنجاب وقبله في صمت !!

وبينما كانت هذه الطائرة تبدأ رحلتها الخطيرة إلى القاهرة . كان ضباط منظمة مقاومة التجسس يشعرون برهبة الموقف . فقد كانوا يتوقعون وصول الطائرة في الصباح الباكر يوم الأحد السادس من أغسطس . وكانت أمامهم أربع ساعات من الأنتظار المرهق . وكانوا قد اتخذوا كل الاجراءات الضرورية . وفيما يتعلق بالخداع . قامت السلطات في القاهرة باغلاق مطار القاهرة الدولى . لمدة ست ساعات . يوم السبت الخامس من أغسطس . وحولت ست طائرات مدنية إلى مطار

بيروت ، وكان أمل المصريين أنه يعتقد الاسرائيليون أن « باروخ » قد وصل بالفعل إلى القاهرة ٠

ولكن الطائرة الصغيرة ، التى أقلت الضابطين المصريين والأسير ، كانت قد تأخرت عن موعد إقلاعها ، بأربع ساعات كاملة ، وتعرضت أثناء الرحلة لمواقف يقشعر لها الجلد البشرى ، واستحقت عن جدارة اسم : طائر الرعب !!

« الفصل الثالث عشر »

طائرة الرعب ! !

في الساعة الثالثة وأحدى عشرة دقيقة من صباح الاحد ، السادس من أغسطس ، بدأت الطائرة الصغيرة ، التى أقلت ضباط المخابرات الثلاثة رحلتها المحاطة بالسرية المطلقة متجهة الى القاهرة ۰ ورغم ان موعد أقلاعها تأخر اربع ساعات ۰ عن الموعد المتفق علية ، إلا ان ضابطى المخابرات المصرية كانا يشعران بالارتياح ربما لاول مرة منذ ان بدأت مهمتهما المعقدة ، لنقل الضابط الأسرائيلى الأسير من صنعاء الى القاهرة ۰

كان ضوء القمر الشاحب يتسلل على شكل بصيص هزيل من النوافذ الضيقة ، وكانت قمم الجبال تتتابع بشكل رتيب ۰ وكان بمقدور من يلقى نظرة ان يرى تحتة مباشرة سناما صخريا داكنا ، تنحدر فوقه نحو الشرق خطوط بيضاء تتشعب منها خطوط سيريالية ، رسمتها مجارى السيول ۰

وعندما دخلت الطائرة في منخفض تحيط به الجبال ، أصبح الظلام في الداخل دامسا ، وكانت القمم الاسطورية والنتوءات الضخمة المدببة تحيط بالطائرة الصغيرة من الجانبين ، تثير في النفس الرهبة ، والمشاعر المبهمة الغامضة ، الناجمة عن التخيل الدائم للحظة الاصطدام بالصخر ، ثم الثقة في ان الطيار هناك في المقدمة يعرف طريقه جيدا وبعد ان انقضت ساعتان ، في جو مقبض يسوده الصمت ، بدأت الطائرة تفقد أرتفاعها بالتدريج وابتعدت سلاسل الجبال الى اليسار ، وشاهد الركاب الثلاثة سهلا صحراويا منبسطا ، وكان ظل الطائرة يبدوا مهيبا على الرمال ، ومن آن لآخر ، كانت الطائرة تمرق بجوار كتل صخرية متناثرة ، وفي المناطق التى تغطيها جبال قليلة الارتفاع ، كانت الطائرة ترتفع لتتجاوزها ثم تعود الى الانخفاض من جديد .

وفي الخامسة والنصف حدث أمر مضحك بدد جو الكآبة الذى ساد الركاب ، فقد خرج الطيار من مقصورته ، وتبادل حديثا ضاحكا مع الفهد ، وعندما سأل عن هذه الصفائح المتناثرة ، أجابه الفهد بأنها تحتوى على وقود إضافى ، ولكن الطيار ضحك بصوت مرتفع وقال ان الطائرة جهزت بخزانات إضافية للوقود ، واقترح القاء هذه الصفائح من الباب ، ولكن أحد لم ينفذ الاقتراح ، فقد عاد الطيار وهو يبتسم الى مقصورتة .

وعندما اشرقت الشمس شعر السنجاب بالقلق ، وقام من مقعده واشار للفهد ان يتبعه ، ووقف الضابطان يتشاوران عند ذيل الطائرة ، وكان الفهد محتفظا بتفائله ، وقال انهما سوف يصلان الى مصر عند الظهر ، وأنه لا يعتقد ان الأسرائيليين يتوقعون وصولهم ، وأضاف مداعبا السنجاب ، ان المصريين انفسهم قد فقدوا الأمل في وصولهم بالتأكيد ، وطلب السنجاب من الفهد ان يتحدث الى الطيار ، ليزيد من سرعتة ،

ولكن الفهد قال ان التحليق المنخفض هو سبب بطء الطائرة . وعندما عاد الرجلان الى مقعديهما ، رمقهما « باروخ » بنظرة متطلعة ، ولكن الفهد جلس بجواره دون ان يلتفت اليه .

كان خط سير الطائرة يقتضى ان تنحرف ، قبل حدود اليمن الشمالية . لتعبر البحر الاحمر في خط مائل ، وبمجرد ان وصلت إليه . كان « باروخ » هو أول من رأى أمواجه البيضاء وهى تتعاقب تحتهم . فالتفت الى الفهد وهمس : البحر ،

مال الفهد برأسة وابتسم ثم التفت الى الناحية الاخرى حيث يجلس السنجاب وهو يشير باصبعه الى اسفل ، ونظر السنجاب الى النافذة بسرعة ولكن ميل الطائرة على جانبها الأيسر ، حال دونه ودون رؤية البحر ، فأشار للفهد مستفسرا ، وعندما سمع كلمة البحر اشرآب بعينه فرأى الصحراء والجبال عند حافة نافذته السفلى ، وعندئذ ، انتقل من مكانه واستند على كتف الفهد وانحنى حتى كادت نظارته ان تلامس رأس « باروخ » وبمجرد ان رأى امواج البحر ربت على كتف الفهد وعاد الى مقعده .

وبعد ثلاثين دقيقة من التحليق فوق البحر ، مرقت الطائرة فوق جزيرة صخرية يحيط بها شريط اخضر من صنع طحالب البحر ، وبينما كان الركاب الثلاثة يحدقون في الجزيرة ، الخالية تماما من أى مظهر للحياة ، بدأت الطائرة ترتعد بشدة . وتحول صوت المحركات الرتيب . الى ضجة تتخللها حشرجة مزعجة . وقام الفهد الى مقصورة القيادة . وعندما عاد بعد قرابة دقيقتين ، لم يستطع تجاهل نظرات السنجاب فاتجه اليه . وأخطره ان المحرك الأيمن لا يعمل كما يجب .

ارتفعت مقدمة الطائرة وكان واضحا ان الطيار قد قرر ان يطير عاليا . وقال السنجاب انه . يعرف شيئا عن قيادة الطائرات ولكنه ينصح

بألا يحلقوا على ارتفاع عال • وأنتقل الفهد مرة أخرى الى مقصورة القيادة ، وفي هذه المرة غاب خمس دقائق ثم فتح الباب وأشار للسنجاب ، وغاب الرجلان في مقصورة القيادة وبقى « باروخ » وحده لأول مرة منذ ان قبض علية •

وفي مقصورة القيادة كان المشهد يبدوا أخاذا • وكان ضوء الشمس ينعكس على سطح الماء ويغمر لوحات القيادة ، وكان عداد تسجيل الارتفاع يتقدم ببطء ، وشعر السنجاب بأن جسما صلبا يضغط كتفة الايسر • فابتعد وهو يتطلع الى الجدار ، ولاحظ جهازا لقياس الضغط مثبتا في حامل حديدى وراء الباب مباشرة •

وقال الطيار للضابطين ان ثمة خللا قد اصاب محركة الايمن ، وانه أضطر الى الارتفاع حتى يتبين حقيقة ما حدث ، وقال انه ينحرف عن خط السير بمعدل اربع درجات الى اليمين ، ورجا الضابطين أن يجلسا في مقعديهما ، ووعد ان يخطرهما بأى تطورات مفاجئه • وعندما استدارا ليخرجا من المقصورة • همس مساعد الطيار قائلا ان على كل منهما ان يتأكد من وجود « سترة النجاة » تحت مقعدة ! !

وأثناء عودة الضابطين الى مكانهما قال الفهد ، في محاولة لتبديد القلق الذى بدأ يخيم فوق الرؤوس ، انه يجيد السباحة وان العملية سوف تكون أكثر إثارة ، إذا وصل هذا الاسرائيلى الى مصر والمياه تقطر من ثيابه ! !

وفي الثامنة الربع فتح باب المقصورة فجأة • وظهر الطيار على الباب وهو يبتسم ، وقبل ان يسرع الضابطان اليه ، رفع اصبعه الابهام ثم استدار متجها الى مقعده ، ولم تكن علامة النجاح التى رسمها كافية ، فقد قفزا من مكانيهما وفي ثوان قليلة كانا يقفان وراءه هو ومساعده • وقال الطيار ان المحرك عاد الى العمل بكفاءة •

غمر الفرح الضابطين وتبادلا النظرات وهما يبتسمان . وسأل السنجاب عما اذا كان بمقدور الطائرة الآن ان تهبط لتطير على ارتفاعها السابق ، وأجاب الطيار انه يفضل البقاء على هذا الارتفاع الى ان يتأكد من أن كل شيء يسير كما يجب ، وقطب السنجاب جبينه وأضاف أن حياةالجميع متوقفة على عدم اكتشاف الطائرة ثم هتف بحزم : يجب أن تهبط الآن .

رفع الطيار الشاب رأسه وبدا عليه الضيق ، وهو يتفرس في وجه ذلك الكهل الذى يصدر الأوامر ولم يكن هناك مجال لأى خلاف في طائرة معلقة فوق كف القدر ، لذلك تدخل الفهد قائلا أن اقتراح زميله يهدف الى تأمين سلامة الطائرة بركابها ، ولكن الطيار اجاب بأنه يود ان تترك له القيادة ، أو ان يحل محله من يرى أنه يستطيع ذلك بطريقة أفضل .

وخفف مساعد الطيار الذى كان يتعجب من هذه الرحلة الغامضة التى شارك فيها دون أى انذار من حدة الموقف ، عندما قال ان المحركين يعملان بكفاءة تامة ، وفي نفس الوقت داعب السنجاب شعر الطيار الشاب وانسحب ووراءه الفهد ، وقبل ان يجلسا في مقعديهما ، لاحظا ان الطائرة تفقد ارتفاعها بقوة .

واستمرت رحلة الطائرة فوق البحر الأحمر لمدة تزيد على ثلاث ساعات ، وكان « باروخ » قد استغرق في النوم ، وعلى الجانب الأخر كان السنجاب قد خلع نظارته وحذاءه واستند برأسه الى زجاج النافذة ، أما الفهد فكان متيقظا ومن آن لآخر كان ينبه الاسرائيلى الذى كان يميل اثناء نومه فوق كتف غريمه ! !

وعندما وصلت الطائرة الى الصحراء الشرقية المصرية ، مرقت بين سلاسل جبال البحر الأحمر ثم انطلقت فوق الصحراء وبمجرد ان لاحظ

الفهد أنهم يحلقون فوق اليابسة ، انتقل الى المقعد المجاور للسنجاب ولمس يده ، وتهللت اسارير الضابطين وقال السنجاب ان مهمتهما تعد في حكم المنتهية ، وأضاف ان بوسعهما إذا حدث ما يعكر الصفو ان يقتادا الأسير سيرا على الأقدام الى القاهرة ! !

وفي الثانية عشرة وأربعين دقيقة أوقظ « باروخ » من النوم ليتناول وجبة طعام جافة ، ولكنه قضم قطعة خبز وأخذ يلوكها بين اسنانه بلا شهية ، ووزع الفهد على زميلية زجاجات المياه الغازية ٠ وكان السنجاب يشعر بالضيق لأنه لم يدخن طوال الرحلة . ورغم أن الأرض المصرية لاتختلف من ناحية المكونات الطبيعية عن أراضى الساحل الشرقى للبحر . إلا ان السنجاب كان منشرح الصدر رغم الارهاق الناجم عن الايام الحافلة بالأحداث التى قضاها في اليمن . لمجرد انه كان يحلق فوق مصر .

وفي الواحدة فتح باب مقصورة القيادة ، وظهر مساعد الطيار لأول مرة ، وأشار الى الفهد ، فنهض من مكانه ، وكان واضحا ان شيئا طارئا دعا الطيار الى استدعائه بدلا من ان ينتقل اليه ، وعندما وصل الى مكان الطيار ، سمع بأذنيه صوتا مصريا ينادى على الطائرة ، وكان الطيار قد خلع سماعات الاذن وقربها من أنف الفهد ! !

كان النداء يتوالى في جهاز اللاسلكى بحدة ٠ وقال الطيار ان مصدر النداء هو مطار الأقصر ، وأنهم يستفسرون عن هوية الطائرة ووجهتها ، وهز الفهد رأسه ، ثم قال ان من الأفضل ألا يجيب الطيار وان يستمر في التقدم ٠

عاد الفهد الى مقعده وصوت النداء يلاحقه ، وعندما جلس في مقعده بجوار « باروخ » كان يأمل ان تعبر الطائرة هذا المأزق بسلام ، ولما

سأله السنجاب عما وراءه أجاب بأن مطار الأقصر ينادى على الطائرة .

وقال السنجاب أنهم تأخروا كثيرا ولكن الموقف لايدعوا الى الندم ٠

مرت ست دقائق ثقيلة وفجأة لكن « باروخ » الفهد بكوعه فانتبه . ووراء زجاج النافذة مباشرة رأى ثلاث نقط لامعة تندفع من الأفق . وقبل ان يتبين جلية الأمر كانت النقط الأمعة قد اقتربت ، وعلى مسافة امتار قليلة من مكانه ٠ رأى طائرة ميج تطير بسرعة رهيبة بجوارهم ، وعلى الجانب الأخر ٠ كانت طائرة ميج أخرى تملأ فراغ النافذة ، اما الطائرة الثالثة فلم تكن في مدى الرؤية ٠ إذ كانت تحلق فوقهم مباشرة !

أسرع الفهد الى مقصورة القيادة وتبعه السنجاب الذى كان حافى القدمين ، ووقف الضابطين وراء الطيار الذى كان يستقبل نداءات المطار وهو يرى الطائرات المقاتلة بعينى رأسه ، ومن باب مقصورة القيادة المفتوح كان « باروخ » يتطلع بفضول وهو يقاوم الرغبة في ان ينضم الى آسريه ، وهتف الطيار منبها الفهد الى أنهم سوف يسقطونه اذا لم يوضح هويته ٠ وجاءه صوت السنجاب من الخلف أن لا يرد ، وصاح « باروخ » متسائلا عما اذا كان ما يجرى انتحار جماعى ولكن أحدا لم يسمعه . وابتعدت طائراتان وبقيت واحدة تحوم أمام زجاج مقصورة القيادة . وشاهد الرجال الاربعة اللهب المنبعث من مؤخرتها ٠

وللإجابة على نداء من المطار ، بأن يحرك اجنحته اذا كان صديقا ٠ بدأت طائرة الضباط الثلاثه في تحريك اجنحتها ، فكانت تميل الى اليسار ثم الى اليمين بتتابع يشبه تتابع رقصة شيطانية ، ومضت دقائق رهيبة ثم شوهدت طائرة ميج وهى تهز اجنحتها هى الأخرى ، وبدأت

الطائرات الاربعة تتخذ طريقها في هيئة تشكيل بالغ الغرابة ، ثلاث طائرات مقاتلة تحيط بطائرة ركاب اسيرة • وفي جوف طائرة الركاب ، اثنان من الضباط المصريين يحيطون بأسيرهم ! !

وبدلا من طريق السير الاصلى ، عبر الصحراء الشرقية ، أجبرت الطائرة على ان تطير فوق الوادى الاخضر ، وقبل مدينة بنى سويف ، انفصلت طائرة مقاتلة عن زميلتيها وهزت أجنحتها أمام طائرة الركاب ثم ابتعدت كالقذيفة ، وتبعتها زميلتاها ، وقبل ان يتنفس الطيار الصعداء ، لمح ثلاث طائرات أخرى وهى ترتفع من ناحية اليمين ، واتخذت الطائرات الجديدة نفس تشكيل الحراسة السابق تماما ! !

وفي قاعدة للدفاع الجوى ، غرب القاهرة كان العريف محمد الاباصيرى محمد ، يتأهب لاستلام نوبته ، في الثالثة الا عشر دقائق بعد الظهر ، وكان يقف بالقرب من شاشة ضخمة من شاشات الرادار وكان زميله يستعد لمغادرة مقعده ، أمام الشاشة ، عندما شاهد الرجلان نقطة مضيئه تتحرك ببطء ، وعلى الفور ، حرك العريف ذراعا يتصل بمجموعة من الدوائر الالكترونية ، وفي نفس الوقت ظهرت نفس النقطة المضيئة على الشاشات الضخمة في غرفة العمليات الرئيسية في قيادة القوات المسلحة المصرية •

ان العريف الاباصيرى شاب طويل القامة ، ذو عينين واسعتين وحاجبين كثيفين • وقد حصل على بكالوريوس التجارة ثم التحق بالجيش ، والتحق في نفس الوقت بكلية الحقوق ، وعندما ظهرت نقطة الضوء على شاشة الرادار ، كان يتأبط كتابا في القانون الرومانى ، وكان يأمل في ان يتمكن من القاء نظرة على الكتاب اثناء نوبه خدمته • في وقت كانت السماء فيه تبدو هادئة • ولكنه فتح عينيه على اتساعها وألقى

كتابة على سرير في ركن الموقع · وطلب من زميله أن يترك له مكانه بهدوء ·

وفي غضون ثوان ازدحمت شاشة الرادار بالحركة فقد ظهرت طائرات الميج الثلاثة · وتحركت الذراع الالكترونية من جديد ، لتسجل حركة الطائرات كلها ، وكان موكب الطائرات الاربع يتجه الى القاهرة ·

وفوق القاهرة حاول طيار طائرة الركاب أن يتجه الى مطار الماظة ، ولكن الميج اعترضت طريقه ، واقتادته الى مطار القاهرة الدولى ، وبمجرد ان حلقت الطائرة فوق المطار ، ابتعدت طائرات الميج بعد ان رقصت رقصاتها التقليدية ·

وتردد نداء مطار القاهرة الدولى في مقصورة القيادة ، وتكررت نفس الأسئلة · طالبة الافصاح عن هوية الطائرة ، ولكن الطيار لاذ بالصمت · وقال الفهد الذى كان يتابع الموقف بعناية · ان الطيار يستطيع ان يتكلم لأول مرة · ليعلن انه يحمل معه راكبا مهما ! !

واستمر مطار القاهرة في توجيه الأسئلة ، فبالاضافة الى جنسية الطائرة كان على الطيار ان يفصح عما اذا كان لديه اذن بدخول الاجواء المصرية ، وشخصية الراكب المهم الذى ينقله ، ولكن الطيار لم تكن لديه أيه إجابة · وكانت العبارة الوحيدة التى ظل يرددها دون ملل هى ، معى راكب مهم ! !

وإزاء هذا العناد اضطر المسؤولون عن حركة الطيران في مطار القاهرة الدولى إلا إعلان رفضهم منح الطائرة اذنا بالهبوط ، ونقل الطيار نص الرسالة الى الفهد ، وطلب منه الفهد ان يدور حول المطار ويصر على طلب إذن الهبوط ، ولكن مطار القاهرة ظل مصرا على الرفض ! !

دارت الطائرة ثلاث دورات حول المطار والتفت الطيار الى الفهد وفي عينيه نظرة يأس وعندئذ قال الفهد أن باستطاعتهم الآن أن يخطروا مطار القاهرة بأن معهم راكب مهم وترددت كلمة راكب مهم في أجهزة الإرسال اللاسلكية ، وبعد دقائق من الصمت المفزع ، أذن مطار القاهرة للطائرة بالهبوط ، بشرط أن تهبط في ممر فرعى بعيد في أقصى أطراف المطار .

ابتسم الطيار وتنهد وأصدر أمره الى مساعده لكى يستعد للهبوط ، ولدهشته الشديدة وضع الفهد يده على كتفه . فلما التفت اليه ، هز رأسه بما يعني ألا تهبط ، ثم هتف بهدوء وهو ينظر في ساعة يده : در دورة أخرى فوق المطار !!

كانت الساعة تقترب من الثالثة والنصف عندما تلقى جهاز المخابرات المصرى ، نبأ من مطار القاهرة الدولى ، يفيد بأن طائرة مجهولة تحلق فوق المطار وتدعى أنها تحمل ضابط مخابرات . وكان الضباط الذين سئموا انتظار الطائرة ، يتصورون أنها تعرضت لحادث ! . ولكن النبأ الذى وصل من مطار القاهرة ، أحدث زوبعة من التصرفات السريعة ، وبدأت أجهزة التليفون في العمل . وأبلغ المشير أحمد اسماعيل . الذى كان يتناول طعام الغداء ، في مكتبه ، بأن « باروخ » وصل بعد طول انتظار الى القاهرة .

وفي الساعة الثالثة وخمس وثلاثين دقيقة ، قال الطيار أن الوقود يكاد أن ينفد ، وأنه لن يستطيع البقاء الى الابد في الجو ، وألقى الفهد نظره على المطار وعلت وجهه ابتسامة واسعة ، فقد شاهد رتلا من السيارات تتجه نحو الممر المحدد للهبوط وعندئذ طلب من الطيار أن يهبط .

أحاطت عربات الحراسة بالطائرة وتقدمت عربة السلم الى أن التصقت بها ، ورأى « باروخ » من النافذة الجنود المسلحين وضباط

الشرطة السرية . بملابسهم المدنية وهم يهرولون تحت الجناح الأيسر مباشرة . وخرج الطيار ومساعده من مقصورة القيادة . ولكن الفهد كان جالسا في مقعده وكأن الطائرة ما زالت تحلق فوق البحر !!

وفي تمام الرابعة سمح الفهد بفتح باب الطائرة وصعد أثنان من الضباط إلى الطائرة وقال الفهد أنهم سوف يهبطون من الطائرة بعد دقائق . ورفض نهائيا أن يفصح عن شخصيته أو عن شخصية أى من ركاب الطائرة . وعندما قال له أحد الضابطين أن الطيار سوف يواجه تحقيقا رسميا . لاختراقه المجال الجوى المصرى دون إذن . إبتسم الفهد وقال أن هذا الحديث سابق لأوانه .

وتبدد الصمت فجأة عندما سمع الجميع « صفارة » عالية . من النوع الذى تطلقه عربات الشرطة . ووصلت إلى مكان الطائرة عربة جيب تتبعها عربة مرسيدس سوداء وابتعد الجنود ليفسحوا الطريق . وعندما توقفت المرسيدس أسرع سائقها بالهبوط وفتح بابها الخلفى . وهبط رجل بدين على وجهه ابتسامة واسعة . ولم يكن هذا الرجل سوى المشير أحمد اسماعيل نفسه . يتبعه اثنان من كبار ضباط المخابرات . وفي أعلى السلم . ظهر السنجاب بوجهه الأحمر . وكان يبدو مرهقا . كما أن حذاءه لم يكن مربوطا . ووراءه ظهر باروخ وكان زائغ البصر متهالكا وفي النهاية ظهر الفهد بقامته الفارعة وكتفيه العريضتين . وكان يتدفق بالحيوية . وقد هبط السلم بنشاط وعندما لمست قدما السنجاب الأرض . تقدم منه المشير أحمد اسماعيل وصافحه بحرارة . أما « باروخ » فقد تلقفته أيدى أثنين من ضباط المخابرات . واقتادوه الى العربة الجيب . وعندما جاء الفهد لكى يصافح المدير . تبادل مع المشير أحمد اسماعيل

حديثا طويلا . وكانت ضحكات الرجلين تصل الى مسامع الذين حضروا اللحظة التاريخية من بعيد .

وبعد هذا الاستقبال الحافل ، هبط الطيار ومساعده ، وقام الفهد بتقديمهما إلى المشير ، الذى صافحهما ووضع يده على كتف الطيار الشاب . وهمس الفهد في أذن المشير بأن سلطات المطار تطلب التحقيق مع الطيار كاجراء روتينى ، وهز المشير رأسه موافقا ولكنه قال أن ذلك يجب أن ينتهى خلال دقائق ، وكلف الفهد أن يتولى بنفسه الترحيب بالضيوف نيابة عنه .

وفي الرابعة والربع تحركت سيارة المشير أحمد اسماعيل إلى خارج مطار القاهرة الدولى ، وانطلقت العربة الجيب إلى المبنى الذى خصص لاقامة « باروخ » ، أما السنجاب فاتخذ طريقه إلى مبنى منظمة مقاومة الجاسوسية . ليقدم تقريرا عن رحلته ، وعندما التقى بمدير هذه المنظمة النشيط . تلقى لوما ضاحكا لأنه تأخر عن موعده ، الذى حدده في زيارته السابقة للقاهرة .

وفي ضاحية مصر الجديدة ، كانت سيدة جميلة التقاطيع مسترخية في مقعد وثير في غرفة نومها ، وكان طفلها يرقد بوجهه الملائكى مستغرقا في النوم بعد أن تناول طعام الغداء ، وسمعت السيدة صوت جرس الباب فانتبهت ، وعندما فتحت الباب وجدت زوجها ، الذى تركها ذات ليلة منذ ثلاثة وخمسين يوما ، فالقت نفسها بين ذراعيه وهى تجهش بالبكاء .

وفي السابعة والنصف وكان الفهد قد اغتسل وبدل ثيابه ، طلب من زوجته أن ترتدى ثيابها وأن تصحب الطفل إلى الطابق الأرضى ، وتنتظره إلى أن يخرج عربته من الجراج ، وعندما سألته وهى تبتسم عن

وجهته ، هتف ، سنذهب لنتم نزهتنا ، إن ذلك يبدو كما لو كان قد حدث أمس .

وبينما كان الشاب الرياضى القوام الهادىء الملامح يجلس مسترخيا وأمامه السيدة الجميلة التقاطيع . كان طفلهما يلهو بالقرب من حافة البحيرة التى تسبح فيها قوارب على هيئة الأوز ، كان « باروخ مزراحى » ضابط المخابرات الأسرائيلى ، يجلس إلى منضدة من الصاج ، في مبنى تابع للمخابرات ، ليكتب بخط يده ، كل ما لديه من معلومات ، وكان أحد الجنود يقف أمام باب الغرفة وقد تمنطق بمسدس اتوماتيكى ، وعندما مر أحد زملائه أمام باب الغرفة همس في أذنه ، إنه اسرائيلى ورفع الجندى حاجبيه بدهشة ثم مضى دون أن ينطق بكلمة .

وفي فندق فاخر من فنادق القاهرة ، كان اثنان من الطيارين يستعدان لقضاء سهرة جميلة بدعوة من جهاز قوى للمخابرات ، وكان الطيار الذى بدا وسيما في ثياب السهرة الأنيقة ، قد أبلغ بأن طائرته سوف تطلى بلونها الأصلى ، كما سترسم فوقها علاماتها المميزة قبل ظهر الغد .

ولم يكن أى فرد من كل هذه المجموعة ، يعرف أن ضابط المخابرات الاسرائيلى الذى وصل إلى القاهرة بعد مغامرة منهكة ، سوف يكون ذا أثر حاسم في مستقبل الصراع العربى الاسرائيلى ، وأن المعلومات التى أولى بها ، سوف تحقق نفعا عظيما في حرب ضارية وشرسة ، وأن هذه الحرب ستنشب بعد أربعة عشر شهرا بالضبط ، في السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، كما أن أحدا لم يكن يتخيل أن مصر سوف تغلق لحظة نشوب الحرب ، نفس المضيق الذى أوفدت المخابرات الاسرائيلية واحدا من ضباطها ، لكى يتجسس عليه !!

صـــدر للمؤلف

● قصتى مع الجاسوس	دار النهضة العربية
●● المفـــاجأة	مكتبة القاهرة
(دور المخابرات في حـــرب الشرق الأوســط)	
●●● عملاء من القاهرة	دار الثقافة العربية
●●●● كنت صديقا لديان	الشركة المتحــدة للنشر والتــوزيع

تحـت الطبــع

● عملية قذرة

(قصة إختطاف رجل !!)

● عبد الناصر ... الحقيقة

مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

رقم الإيداع ٤٩٥١ / ٧٨